رواية

خطايا الآلهة

أدهم العبودي

الطبعة الثانية

خطايا الآلهة

خطايا الآلهة

رواية

أدهم العبودي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

الإخراج الداخلي: آب إمام - آب ستوديوز

الطبعة الثانية فبراير 2015

الطبعة الأولى يناير 2015

العبودي، أدهم

خطايا الآلهة، رواية،

ط2 دار الربيع العربي، القاهرة، مصر.

ردمك: 978-977-5221-31-5

رقم الإيداع(مصر): 2014/27169

الربيع العربي

للطباعة والنشر والدعاية والإعلان

المدير العام: أحمد سعيد عبد المنعم

002-01141411118

002-01140848568

www.rabe3arabe.com

rabe3arabe@gmail.com

rabe3arabe

كافة الحقوق محفوظة للناشر ©

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقةٍ، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابيّ مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببضع فقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

أدهم العبودي

خطايا الآلهة

صَبَابةُ البْدءِ

أرأيـتَ الـذي يحبِـس في أحشـائِه بحـرًا، متجـوّلًا بـهِ، متعبّـدًا لا يشـقى، متأمّـلًا، هـو السـارِح أبـدًا، هـو مَـن طـوى أزمنـةً للوصـولِ، فلمـا بَلَـغ أبلـغَ، ولمّـا اسـتكَان بُعِـث، ثُـمّ اسـتراح.

يـا ابـنَ الجـوّالِ تَـدَارَك
لمـن أتـَى واستجـاركْ
شيـخَ الـزوالِ أَغِثْـني
أصبحـتُ بالنـورِ جـارَكْ
صلّـى اللّـهُ وسلّـم
علـى النـبي المعظّـم
والآلِ مـا قـال مـغـرم
يـا ابـنَ الجـوّالِ تَـدَارَكْ

مقتبَسة

الفصل الأول

(مسعود)

(اعتقوا ملامحَ النورِ الذي كان قديمًا نورَكم ساعةَ دُجى،
وحرّروا طقوسَ الشعائرِ التي كانت تقال لأجلِ خروجِكم
مِن أرضِ المَواتِ، مغتَسلين مِن إثمِكم)

الـذي وافَانـا قَـد جـاء عـن عثمـانَ ابـنِ جابـر فإنّـه قـال: إنّ أبي مسـعود الثـاني ابـنَ نُعمـانَ حدّثنـا عـن طلحـةَ ابـنِ مسـعود الأول، فأخبرنـا:

(أمّـا جـدّي مسـعود فقَـد كان منبـعَ العِلـم المؤكّـد الـذي لـم يُـؤْتَ لواحـدٍ في زمنِـه ولا عـصرِه، كذلـك كان أسـطورة الخلـق في اشـتمالِ الفضائـل وموضـع فِقـه الدنيـا، إذا يجلسـون في حضرتـه يُنْصِتـون، فإنّـه يسـمو بِهـم ويرفـع شـأنَهم ويدبّـر حـالَ عقولِهـم المطموسـةِ داخـلَ غشـاوةٍ مِـن جهـل فتنفتـح بصائرُهـم عـلى حكمـةِ الحيـاة والمـوت والـرزق والثـواب والعقـاب، وبضـع مِـن حِكـمٍ أخـرى لا تُـدرَك إلّا بنكـرانِ ماديـة الحيـاة، أقـام أمْـرَ دينِـه بمـا يصّـح، فصحّ أمْـرُ دنياهـم أجمـع، لـه مِـن الحكايـات مـا يجعلـني لا أفـرغ مِـن سردِهـا العمـر، حكايـات سَـفَرٍ، وغربـة، لا تخلـو مِـن مفارقـات القَـدَر، ولا تخلـو مِـن عبـث، وهـذا بعضهـا...)

في ساعةٍ كهذهِ - ما بينَ غفوةِ ليلٍ كاد يَمضي كُليّة لولا تكاسلُه ونهوض صباحٍ جديد- غبشةٌ رقيقةٌ مِن ضبابٍ مشبّع بطهارة الفَجر، في ساعةٍ كهذه، كان طوافُه بين قُرَى الصعيدِ وبلادِها قَد استوى، حيث لمحَ وهو فوق ظهْرِ الجَمل -المتهادي في خطوه كطوفٍ يحمله موجٌ متصابٍ- مدخلَ قريةٍ يرسو النخيلُ أمامَها في هدوءٍ وسكينة، هُنَا رفع عينيه إلى سماءٍ يبدو سحابُها المتشابك كقِمم بنيانٍ شاهق تعلو الرءوس، وتفرش الدنيا بعذوبةٍ خالصة أصلها امتزاج قدوم بأفول، وشَكَر ربّه، بتمتمةٍ لا تكاد تسمَع مِن بين شفتين شِبه منغلقتين، تيقّن أنّ المستقَر هنا، وأنّ بغيتَه التي جاب البلادَ لأجلها قابعةٌ الآن أمامَ بصرِه، ترجوه أن يتنبّه فيدرك، فيترجّل، فيتوكّل على خالقه ويحطّ.

قال لصاحب الجَمل:

- بوركتَ، سأنزل هنا.

قال الرجل:

- كما تشاء، ولكنَّ المكانَ هنا قفرٌ لا إنسَ فيه يا شيخ "مسعود"، لا يسكن هنا غير الجن، يحفظنا الله.

- راحتي هنا.

هزّ الرجل كتفيه بلا مبالاة وأناخَ الجَمل في صمت، وتفرّس في "مسعود" لبعض الوقت، كأنّها نظراتُ وداعٍ

محتـوم، ثـم مَصمَـص شـفتيه يقينًـا في لوثـة المشـايخ، لهُـم سِـككٌ مسـتعصية عـلى فهـم البَـشر.

هبَـط "مسـعود" مِـن فـوق الجَمـل واسـتقام، فبـدا طويـلًا للحـدّ الـذي ضاهَـى بـه طـولَ النخـل المصطـفّ عـلى أبـواب القريـة يراقبـه باهتمـام وبعـض مِـن استهجان، أخـذ يتملّى في النسـيج الربّـاني المتلاحـم قبالتَـه، والـذي رامـت لـه نفسُـه منـذ راودتـه الرؤيـا المحقّقـة بعـون اللـه، أخـذ يتمـلّى، ويحـكّ شـامةً داكنـة تكلّـل خـدّه الأيـسر، ودّعَـه صاحـبُ الجَمـل بابتسـامة لطيفـة ومـضى عنـه وقـد سـاوَره تعجّـب، كأنّـه المرتـاب.

مكـث "مسـعود" يتطلّـع لعتمـة القريـة رغـم بهـاء الشـمس الشـارعة في السـطوع، قـال في داخلـه: جمعنـا القَـدَرُ برؤيـا في بـلاد بعيـدة.. تـرى لأيّ مـدى قَـد تَصـدق الرؤيـا؟ كانـت قريتُـه غائـرةً في سـكونٍ مَهيـب، وتلفُّهـا رهبـة الوحشـة، نفـسُ وحشـةِ قلبِـه وقتَـذاك، يفصلهـا عـن السـماء شرخٌ ممتـدّ إلى أعـلى، تمامًـا كـشرخ روحِـه، لكنّهـا قريتـه، الـتي رآهـا في منامـه والـتي ستكون بـإذن القهّـار منبـعَ دعوتِـه، عـدل "مخلتـه" المسـتريحةَ عـلى كتفـه، وهَمْهَـم متنهّـدًا:

- بسم الله.

(1)

بسم الله هي بداية كلّ خطوة، كلّ رحلة، سَنَده في مشقة السير، ووطأة الجَهد. بسم الله حين يطلع بكوز الماء نحو شفتيه، وحين يدسّ بينهما حبةَ التمر. بسم الله، لا عونَ له ولا حافز غيرها. على قدميه طاف قُرَى وأراضي الصعيد، ببعض مِن مساعدة الدواب أو الجرّارات التي يصادفها قَدَرًا أثناء رحلته، فيتعرّف إلى صاحبها بيُسر، بابتسامة ودود ونظرةٍ مطمْئِنة، تنشأ علاقةٌ سريعة، لا تستمر طويلًا، لكنّها تترك في نفسه أثرَ الصحبة.

مسعود الأكبر

(2)

كان معلّمي وشيخي "إدريس" جميلًا، وجهُه مريحٌ فلا يَلقَى معاناة في محبّة الآخرين، مَنّ عليه اللهُ بعلومِ الحَضرةِ الربّانية، فصار له شأنٌ مِن الحكمةِ والعِلمِ المحقّق، نشأتُ تحت كنفِه ومِنه آلَ لي عِلمُ وعهدُ "الجوّالةِ" الكبيرُ الذي جئتُ به إلى "مصر

لم يكن في حسباني أنْ أهبِط "مصر"، لولا أن أفاض عليّ الحق سبحانَه وتعالى برؤيا في المنام، كان ضبابٌ يشدّ بصيرتي فأروح نحوَه، ثم ينقشع عن طاقةٍ مِن زخم، وجدتُ نفسي في حلقةِ ذِكْرٍ وإمامي "إدريس" يلازمني، النـاسُ يحيطون بنا، يتزاحمون، وجوهٌ سمراءُ وجلابيبُ بيضاء كبياض صبحٍ طاهر، ولكنّ بها جمودًا كجلاميد صخر صارمة، ونظراتٌ قاسية، قسوة غضبٍ أصيل، غضب بدا لا يزعزعه دهر. كانت أجراسٌ تطن حولي وأنا أمدّ يدي للجمْع بلا جدوى، لم يُعِرني أيّهم بالًا، شعرتُ أنّي لست أكثرَ مِن طيفٍ عابر شفّاف لا ترصده الأعين، ربما لأنّ الأفواهَ لا تنقطع عن الذكْر. يدي ثانية ها هي تتداخل كنغمٍ شفيف في يد شيخي "إدريس"، كانت يدي ترتعش، والبهاءُ الساطع يضرب ذهني، كأنّي مسحور، وكانت ثريا مِن قلبِ عتمة مبهمة تدنو فتتدلّى، غيرَ أنّ نورَها باهر، يخطف العيون، تتألّق أعلانا تألّقَ نجومٍ في سماءٍ غير التي تبصرها عيون البشر، والأبخرة التي تنتشي بها العقول تسري بين أجسادنا بسلاسة- تتحسّس وجوهَنا

وأعيننا وقلوبَنا، وكان بيننا في المنتصف المقامُ الذي رُحنا نلفّ حوله، مقام تغطّيه أقمشةٌ خضراء ناعمة الملمس، زكية الرائحة، تسقط تحته الأجسامُ منتحبة، متضرّعة، تتشبث به الأصابعُ تشبُّثَ الغرْقَ بلوح خشب طافٍ، تتسابق الأفواه تلثمه، وتستجدي منه البَرَكة، والأجراس لم تزل حولي ترن رنينًا لحوحًا، مثل نبضٍ معدني لا يفارق عقلَ قلوقٍ مِثلي. حول المقام يدورون، ومعهم ندور، تتسابق الأيدي تخمش الرداءَ الأخضر الملفوف حول مَتْنِ المقام خمشًا حنونًا، ولا نزال نطوف مِن بينهم كظلّيْن عابريْن، ثم مآقي الأعين مضت تستحيل إلى بياضٍ مِن غمرة الوجد، شيخي "إدريس" يُفلِت يدي ويهتف سابحًا وسط الجموع مثل غمامةٍ رشيقة:

- حيٌّ..

أتبعه وقلبي يقفز مِن بين ضلوعي ليتمرّغ على البساط المَخملي تحت أقدام الذاكرين، كان الذِّكْر مغناطيسًا للوصل، وحبْلًا للقُرب، الألسنة تردّد:

الذِّكْرُ أعظم بابٍ أنت داخله

لله.. فاجعلْ له الأنفاسَ حرّاسا

مَن ذَكَر اللهَ طابَ بالله، ومَن طاب بالله وصَل إلى الله، نفسي في الحُلم نقية، وروحي سامية، كيف أستعيدني؟ كما لو أنّي انطلقتُ نحوَ فخامة الآخرة.

في الحُلم، ما بين الأبخرة التي يغيب بها المريدون، وبين

وعيٍ شِبه يقِظ، شِبه غافٍ، ومَضَتْ في ذهني ملامحُ قريتي، وبدأتْ تتكشّف كأفقٍ ينقشع عنه ثِقل الضباب، فيبدو باهيًا جليًّا كأشدّ ما يكون الوضوح، جعلتْ تتشكّل كأنّها نقشٌ له أثرٌ منذ تاريخٍ سحيق، علقت بوجداني، رأيتُ القريةَ لها معالم محدّدةً كما لو أنّها راسخةٌ في باطن الروح، تحمل شكلًا مميّزًا مستعذبًا، بدت لي في رؤياي مألوفة.

استيقظتُ مبتهِجًا، خلوتُ إلى نفسي قليلًا أتأمّل جلالَ الرؤيا، أنفاسي المتهدّجة لم تهدأ إلّا حين عزمتُ على مشاركة شيخي رؤياي، استقمتُ متنهّدًا وعرّجتُ ببصري إلى السماء، كانت بشائر الفَجر تصافِح البسيطة، وزقزقةُ الطيورِ تأتيني مِن بين تلابيب الشجر التي ترقد أمامي على المدى القريب مِن عيني، زقزقة هادئة حالمة، وفي توافقٍ عذب، هدأت شيئًا فشيئًا، عندما صَدَح التكبيرُ لإقامة صلاة الفَجر مِن قلب المسجد العالي الذي يحتضن رقعة المدى القريبِ بضفائر الشجر والبيوت الواطئة التي يسامِر بعضُها بعضًا، يحتضنها في شموخ وبساطة، تعوّدتُ أن أنتظِر الآذان متأهّبًا بالأوراد في المسجد، لكن الرؤيا استغرقتني، فاختلَسَني الوقت، كيف تجاوَزَ أذنيَّ الآذانُ؟ لم يعد الآن لتوبيخِ النفس موضع، رميتُ قفطاني فوق كتفي وهرولتُ على عجَل آمِلًا اللحاق، توضّأتُ بسرعةٍ في طلمبةٍ وراءَ المسجد، ثم دلفتُ، شيخي كان واقفًا ووراءَه المُصلّونَ قد اصطفّوا ريثما يعلو صوتُه: الله أكبر.

بنظرةٍ عابرة رماني وكأنّني استوقفتُه، إنّما في الواقع كانت كافية لإثارة قلقي، النظرةُ تقصِد العتابَ والاتّهام بالتراخي

والكسل، أو لعلّه يستفسر عن تأخري إلى ما بعد الإقامة، صاح عاليًا: الله أكبر. وجدتُ نفسي قد انسللتُ إلى داخل الصفّ الأخير وأنا أشعر بحرجٍ وضيق، وعرق يتفصّد بجبيني، وأنفاس ليست مستقرةً تتسارع متقاذفةً صدري للأمام وللوراء كبَندول، أتممتُ الصلاةَ وشيءٌ في صدري يعتمِل، كإيقاع يجمَع بين السرور والرهبة، بين الرضا والتوتّر، مضتْ قطراتٌ أغزر مِن عَرَق تنزّ مِن وجهي، دنوتُ مِن شيخي بعد أن فرغنا مِن التراتيل والأذكار والدعاء، والجمْع آذن بالرحيل يقبّلونَ يدَه، ابتسَم ابتسامة فهمتُ منها أنّه قد استوعب اللومَ الذي عنّفتْ به روحي لمّا تأخّرتُ على غير العادة، خرّ فمي على ظهر كفّه يلثّمها، ربّتَ على رأسي وأخَذَ يمسّد شَعرَها بأناملَ مطمئنةٍ، وقال:

اللوم مِن فضائل التّقِي.

- مولاي لو شاطرتَني ما ألمّ بي أثناء النوم لتلمّستَ لي عُذرًا.

- ولدي "مسعود" وهل ثمّةَ عذرٌ إذا ما حَضَر الموت؟

في وهلةٍ، ارتَجَف بدني كلّه، لم أدرِ كيف جاءت جُملتُه بمثل هذه الوعورة على أُذُني وكأنّها سيخٌ مِن نار مَرَق في صلبِ جمجمتي؟ سَرَقني هاجسُ الموتِ لوهلة وتصاعدتْ أنفاسي نحو أعلى، كيف يَخشى الموتَ مَن يَخشى الله؟ إنّما عليّ أن أُقِرّ أنّني أفعل، أجمَعُ خلفَ عظامِ صدري تلك الخشيةَ العظيمة مِن خالقي، ومِن الموت بذات النبض، يمرّ في رأسي دومًا هاجسُه مثلَ ناقوس لا يكفّ عن الدوّي،

فيختبئ قلبي في أعماق صدري أكثر، ويوغِر في اختبائه، خوفًا مِن اليوم الذي يخاصمه فيه دمُ جسدي فلا يجد الزاد، فتتوقّف كلّ الحياة، يا لَه مِن هاجس! لكنّني بعد وهلةٍ ثانية رحتُ أتفرّس في بهاء وجهِ مولاي وقَد مضى عنّي بعينيه يبتهل السماءَ وشفتاه ترتجفان، قلتُ في نفسي: ليس أجدر منّي -هذا الحين- باللوم. انصرفتُ بعدَها لشيخي وإمامي، تقرفصتُ أمامَه، أحكي له ما كان بالرؤيا، وبَدَني يتضاءل كلوحِ ثلجٍ في أسرِ شمسٍ سليطة، كان يستمع وهو يهز رأسَه مُنتشيًا نشوةً ربّانية، ويعقب كلّ هزة متمتِمًا: الله. ثم قال لي مفسّرًا:

تلك المعالم شاهدتها مِن ذي قبل في رحلةٍ قديمة، شاهدت ما يّشبهها حدّ التمام، عليك بـ "مصرَ" يا ولدي، ففيها ما أجاد عليك به الرحمن، هُم قومُ عِلمٍ وحكمة ولديهم قبولُ ما تبغي، ويمكنهم أن يفرّقوا بين داعٍ للخير وبين ملقّق، ولك كلّ العون مِنّي، إنّما ضَعْ في حسبانك أنّك بنٌ عشرين، يلزمك الكثير مِن الجهد لتظفَر.

عجبتُ مِن كونِه يعلم عن تلك الأمور التي لا يملكها بَشر، قال لي: ليكن عهدي بك أن تُحيي ما قَد أماتَه ركودُ الدهر، وأن تَسير لِما شاء لك الله به.. بوعد ألّا تخالف ما عمل به على غيرك.. وكُنْ عند ظنّك به.. يسّر لك طريقك

ألقًا قد بدا يتبدّى في داخلي، ماذا لو أنّ تفسيرَ إمامي الصواب ولو لمجرّد فكرة عبثية؟ كلاّ.. فالشيخ يَعرف،

شيخي كَشَف له اللهُ طاقاتٍ لم تزل في ملكوتٍ بعيدٍ عنّا، وهو يرى حسب ما كفل له البارئ مِن عنايةٍ وهِبة، عليّ أن أجلوَ عن رأسي تلك الهواجسَ المقلقة ولأحتَكِم إلى النداء الروحاني، إنّما مَن أكون أنا لبعثِ مثل ذاك البعث؟ لستُ إلّا تلميذًا في حلقةِ إمامي، هذا أكبر مِنّي مؤكّد، ولولا دعم شيخي لي لبات الأمر حلمًا فحسب، ولكن؛ قريتي، في رأسي، أمام عينيّ، بكامل تفاصيلها، إنّما لو أنّ الأمر هكذا، فلابد هذا مِن فعل القِدِر إذًا...

أن يرتحل.

* * *

في هدأة الملكوت، يبيت السعي مكفولًا بالرضا، ويصبح كلّ غرض مرهونًا بالتأنيب، فهذا الأمر خير، إنّما يشوبه مكروهٌ مستتِر، فلا تقربه- هكذا توحي لي نفسي دائمًا، وهكذا لم يكن لي في رحلتي غير امتثالي لِما توحي به النفس، فحجمتُ نفسي عن مهالكَ مطعّمةٍ بالوسوسة، كأن يستطيبُ لي الجلوسُ في غفوةِ ليلٍ طويل بصحبة مدّاحي الطبيعة، السامرين الذين يفنّدون حلاوةَ التفاصيل ويعزّزونها للروح ثمرةً مستحبّة، ينشدون للقمر، للبحر، ولليل ذاتِه ينشدون، ثمّة استعذابٌ مِن مذاقٍ لم يكن مِن ذي قبل، لكنّني طوّقتُ غرائزي ووهبتُ بدني للتقوى، طالما قرّرتُ الهبوط إلى بَرّ "مصر وفي نيّتي غرضٌ حميد، وطريقي داخل عقلي مرسومٌ بما فَتَح الله عليّ مِن باب معرفة أساسها صفاء النفس وإشراق الروح.

قصدتُ "مصرَ"، ارتحلتُ مع أول سفينةٍ رائحة لهذه البلاد، ودَّعَني شيخي "إدريس" وهو يربّتُ على قلبي، ومُذ وضَع راحتَه استوطنني الأمانُ بلا نهاية، أذكُرُ أنّه قال لي وقتذاك:

"مسعود" كُن دانيًا مِن السماء.. متطلّعًا في الأرض.. زاهدًا عن الفتنة، وراغبًا في الاستنارة والإنارة، طالما الإشارةُ إلهية.

ثم هَمهَمَ:

- يا الله.. ترَى هل كُتب لك النورُ حقًّا يا ولدي؟

قلتُ متلّهفًا:

- ماذا تَرى يا مولاي؟

فقال:

أرى وجهيْن، كلاهما أنتَ يا بُنَي، وكلاهما لن يقابل الآخر، ثم إنّ كليهما بلغ معنى الإيمانِ الخام الذي لم يُدركه بَشرٌ حيّ، ترتيب القدر يا ولدي، ترتيب القدر.

ثم حدقَ بصرَه شطرَ المدى:

- مولاي صفُوك مداد التجلّي، يتوق الفؤادُ حيثما حطّ ضياؤك، والكون أسطورة، لها منبع، فلا القدر نسبيّ، ولا الحقيقة، إلّا برضاك، متّعني برحلة أخرى إليك، مثل ولدي "مسعود"، وقد رحلتُ قبْلًا فلم أرتوِ بعدُ، وقد حُمِلتُ ولم أنتوِ، وقد مُلئتُ ولو بظاهر اليقين، ها هو

قلبي المُثقل يرنو، وها هي الروح المنهكة تتسرّب، ولدي "مسعود" يستكمل تفاصيلَ حلمي، مدّده بصرًا يجوّل في أحشاء الحقيقة، وإيمانًا لا يتقلّب، وعندما تعاود الأرضُ دورانَها، وقتَها، ربما تتسمّر له الكائناتُ خشوعًا.

ثم كأنّه استمات على صدري، ولم أرَه قبْلَ ذلك مستميتًا لعاطفةٍ قدْرَ عاطفتِه نحو ربّي، وبدا في عمق عينيه لمعانُ دمعٍ يترقرق، فجاشَ قلبي، وقلتُ:

- شيخي.. أهو تفسيرك!

تنهّد مبتسمًا وقال:

- نَعم يا ولدي.. امضِ.. النورُ رفيقك الآن.

السفينةُ تكبّ دخانَها فوق الوجوه، فتتعكّر ملامحُها، ثم سرعانَ ما تذوب، متلاشيةً في أغوار البُعد. البحرُ بِساطٌ تتهادى فوقَه السفينة، والبحرُ رغبةٌ للذروة، ونزقٌ غير مأمونِ العواقب، وغموض، وظلام، وتيهٌ ليس يُشبهه تِيه.

تَأرجَحَ وجهُ مولاي وهو يبتعد رويدًا، ثم بدا كومضةٍ هاربةٍ مِن أمام بصري، ثم غاب. واجهتُ ما واجهتُ مِن عُسرٍ أثناء رحلتي، كان البحر حينًا يهيج وحينا يهدأ، وقد يهيج فلا يهدأ إلّا عندما تنقبض قلوبُنا للثمالة، فيضحك علينا الرّبانُ، قائلًا:

- البحر تجربة، تكرارها يفيد أحيانًا، لكن روعة التجربة يحظى بها مَن في قلبِه شغف.

لكنّ أقربَ المسافرين إلى قلبي كان "طلحة"، كان سودانيًا،

وكان طيبًا، وقورًا، اجتمَعَ الكلّ على محبتِه، وبَقى بعدَه في أنفسنا مرارةُ فقْدِه، ذلك بعد أن أهلَكَ روحَه طواعيةً في عرض البحر. كانت أحاديثه معي دومًا ما تدور حول رحلاته التي لا تنقطع، والعوالمِ التي يجوبها خلال تلك الرحلات، قال لي ذاتَ مرّة:

- بُصّ يا شيخ "مسعود"، تَرى هذا البحر، إنّه لا يعدو أكثرَ مِن باب للمرور، أَنفذُ منه إلى عالمٍ ثم عالم، هو أضيق كثيرًا مِن رغبةِ روحي في التحرّر.

فقلت:

التحرّر غاية العلم يا "طلحة"

نظَرَ إلى السماء، وقال لي ضاحكًا:

- نَعم مثلك رجلُ عِلم، لكنّه لا يعلم إلّا ما ملكتْ يداه، العِلم ما يملكه وجدانُكَ بالبصيرة.

اكفهرّ وجهي، فأحسّ، لكنّه أكْمَل:

- لستُ أقصد أن أقلّل مِن قدْرِ عِلمك، إنّما النور كلّه يكمُن خلفَ مستوى إبصارِنا، يكمن عندما يأتي أوانُ أن نغمِض عيوننا، وننساق خلف الرغبة في التلاشي، ليس لأنّه شفرةُ خروجِنا من الحياة متطّهرين فحسب، ولا لأنّنا عدمنا الأملَ في التحرّر مِن متاهة هذه الدنيا وسطوةِ أحداثِها الجبرية، ولكن لأنّه في النهاية يستقطب الأرواحَ الضالّة، نَعَم، كلّما ضلّتِ الروحُ أكثر باتت أقربَ للنور الأعظم.

قلتُ وكنتُ قد أوشكتُ على اتّهامِه بالهذَيَان:

- أيّ كلامٍ هذا! الأرواح الضّالة لا تفيء إلّا عند آخرتها.

- يبدو أنّك لم تطمئن لمعنى العَظَمة بعد، البداياتُ ليست شرطًا أبدًا لتحديد هوية النهايات، لكنّي لن أُخفيك سرّا، رغم ذلك، أنا مَثَلًا، لم تعد النهاياتُ في الواقع تَعنيني كثيرًا، في الغالب لا يَعنيني الآن سِوى بدايتي، ربما باتت كلّ النهايات - إليّ- أمْرًا نسبيًا مجرّد التفكير فيه مرهِق.

ثمّة شرودٌ لا إرادي ربما مِن باب الاستغراق في عالم الجدل- كان يتسلّل مِن عينيه كلّما التفَتَ نحوي.

وكلّما اجتَمَعنا على ظهْر السفينة، وغالبًا ما يحدث ليلًا، يتوكّأ "طلحة" -في استنادةٍ أقربَ للتشبّث بطوف خشبي- على سور السفينة، فإنْ بدتِ الشمسُ في حُمرتِها المزاجية الغاربة نَخرج، نجلس في رفقة أحدنا الآخر دون صحبةِ ثالث، ثم لمّا أخذتِ الأيّامُ تمضي، شعرتُ بمَدى الفلسفةِ التي يحملها بداخله عن هذه الحياة، ولم تعلّمني إيّاها الكُتُب، ولا شيخي، قال لي في يومٍ وهو يشير بسبّابته إلى البحر المُغرق في وحشتِه:

- ماذا تريد أن نصيدَ اليوم؟

- أجُنِنتَ يا "طلحة"؟ أيّ صيدٍ يا رَجل؟

غمَزَ بطرف عينه مداعِبًا، ومَصمَص تجويفَ فمِه الخالي، وتَركني أرمي عينيّ نحوَ فضاءِ البحر، وقال:

- نصيد حوريات.

- إنّ اللهَ يا "طلحة" نهَانا عن العبث، حوريات الرحمنِ

في جنّتِه.

- لا يَصل لله يا شيخ غير عابث، لكن لك عُذرك، فأنت لم تَصل غاية العِلم بعد.

- العابث يصل للنار حتفًا أعوذ بالله.

- فلننتظرْ معًا.. قد أصِل لِما ترنو إليه دونك.

ثم اتّكأ على السور أكثرَ وقال:

- في القديم.. حين فقدتُ أشياءَ ثمينة.. قلتُ لنفسي أكفّ عن الصيد.. إنّما كان الصيدُ الملاذَ مِن الوحدة، والبحر مستقري.

- ترَى يا "طلحة"! لأيّ قدر تُشبه روحُكَ هذا البحر؟

لحدّ الكمال.

قلت:

- الكمال لله وحدَه.

الكمال لله.. ولبعضِ خلقِه.

قلت:

- رأسك معجونة بالأفكار غير الحميدة يا "طلحة"!

هزّ رأسَه في أسفٍ وأكمَل كأنّه يناجي نفسَه:

- أنا ابنُ البخت والمأساةِ يا شيخ إنٍ جاز لك التخيّل، أنا الليلُ لو أسطورة، أنا الريحُ إنْ ملّتِ الترحال، والنهرُ لو احترَقَ شوقًا لطعم الملح، أنا أنتِ أيّتها البعيدة..

وتنهّدَ مخاطبًا طيفًا في المدى لا يراه سواه:

- لو تعرف يا شيخ "مسعود" حجمَ مأساتي!

ثم بدا يتراقص وهو يدور دوراتٍ خاطفةً وأكمَل:

- أيا صبيّة تعاند دورانَ الأرض، وتصنع فلكها عكسًا، وتتساقط فوق رأسي كحبّات النار، ولا أشعر، تقتحمني كسيفٍ مسنون ولا أشعر، تلفظني كباقة يأس، حيث أشعر، أنا أنتِ، وإنْ تضّادَ الاتّجاه، أنا أنتِ، وأنتِ غاية البراح.

ولوّح بإصبعه الهزيل للوراء وهو يلتفتُ نحوي:

- لم يعد لي غير الحقيقة..

وصمَتَ قليلًا ثم أضاف:

- والتذكّر.. والصيد.

أحسستُ بمدى جُرحِه، غاض لأجله فؤادي، سألتُه وقرصُ الشمسِ يغطس في خطّ الماء البعيد:

- هل كانت جميلة؟

ضحك ضحكة قصيرة تبعها سعلتانِ جافّتان:

أحببتُ القمرَ في تمامه، وباستثناء كوني قديمًا قد تقمّصتُ اللعبةَ معها؛ فإنَّ حبَّها لم يكن محضَ افتعالٍ أو تخطيط، إنّما كان قَدَرًا، انتشلت نفسي منه وإليه، فما أتعَسني! وما أخيبَ لاعبا لا يحترف قانون اللعبة! ولم يعُد المَسير بعد ذاك مجديًا، فكان لابدّ من التوقف، ومن رَكْن القلب في منطقة رمادية نائية، لِئَلا أُصبِح مداهَمًا عن غير

رفـق، ولا مباغَتًـا بظـروف الصدفـة، مـا أتعَسَـني يـا شيخ! لعلّهـا الآن تتذكّـر كيـف ضمّتهـا أهـدابي قبْـل حـين، وكيـف ابتلعتُهـا بداخـلي كـدواءٍ لا يعـرف الفشـل؟ عـسى يـذوب جبـل الجليـد الفاصـل بـين عالمينـا ونسـتعيد تفاصيـلَ الأشـياء الهاربـة، يـا لهـا مِـن أمنيـة! هـل أنّي واقـعَ الأمـر آثـرتُ الانـزواء؟ أم ثمّـةَ بدائـلُ للانتظـار كان ينبغـي أن اتّخذَهـا؟ كلّهـا مصادفـات، وكلّهـا تهيـؤات، ومـا بـين الاثنـين قلـبي، ذلـك الـذي اسـتمرأ الجـرح، فلمَّـا اكتـوى، اسـتلذّ، ولمّـا اسـتلذّ، جـافَى، ثـم لـزم موطـنَ جرحِـه، وظـلّ قاطنـه لا يفارقـه، وبـدتْ هي-رغـم معانـاة الانتظـار- سـحابةً يُطِـلّ عليهـا فـؤادي وهـو ينظـر لأعـلى، يُطِـلّ في شـغفٍ ولهفـة، يُطِـلّ بأمنياتِـه وأحلامِـه ومأسـاته، يُطِـلّ ويعلـم أنّ عمّـا قريـبٍ سـوف تسـافر السـحابةُ لموطـنٍ أكـثرَ بـرودة، كي لا تسـتدفئ، فتتقاطـر مطـرًا، فتتـلاشى، وتصبـح هـي والعـدم سـواء.

وأشار بسبّابته نحوَ قلبِه:

- مِـن هنـا يـا شـيخ يبـدأ كلّ شيء حزيـن، تمامًـا مِـن عنـد قلـبي، ليـسري بداخـل حيـاتي نغـمٌ لـن يسـتعيد فرحتَـه قـط، أنـا -وربمـا هـي- لـن يمكننـا أن نقطـف الثمـارَ مِـن فـوق رءوس العاشـقين ثانيـة، أنـا وهـي صـورةٌ باهتـة للمـاضي، بألغـازه وأسراره، أنـا مُقعَـد عـن الحـبّ، صدّقـني، وهـي عاجـزة عـن الإحسـاس، كسـيحةُ الفـؤاد، كسـيرةُ الأمـل، أيّنـا إذًا باسـتطاعته تبديـل حقيقـةٍ موجِعـة؟ كلّ مـا مـات.. مـات، وظـلّ التحـسّر صديقًـا، لـذا نسـيتُ شـكليَ القديـم، انظـرْ يـا شـيخ أيّ رَجـلٍ أصبحـت! بقايـا، مجـرّد بقايـا، مجـرّد عـينٍ لا تـرى سِـوى

المـاضي، مشـهد عفَـتْ عليـه حماقـاتُ العاشـقين، هـذا أنـا.. أنـا، أو مـا تبقـى مِـن رداء تـآكَل بـين أناملهـا، ولـم يعُـد يُدفِئُهـا، أسـمال، ثمّـةَ ملمـحٌ مِـن الحقيقـة الغائبـة دومًـا، ربمـا البحـث عـن المعـنى في حـدّ ذاتـه.

اقتربـتُ مِنـه أكـثر، وقلـتُ لـه وعينـاي متعلّقتـانِ بعينيـه اللتـين اغرورقَتَـا بالدمـوع:

- لا بـأسَ أن نكتـوي.. لكـن الحقيقـة الغائبـة هـي الإيمـان نفسـه يـا "طلحـة"، بجلالـه وعَظَمتـه.

قال لا يُدركني ولا يعي محاورتي:

- أنـا لـم أعُـد، وهـي في مـدارٍ بعيـد عـن كوكـبي، إنّ شمسَـها لا تغيـب، إنّ عشـقَها يحلّـق كسـحابةٍ نديّـة في خيـالي لـم يـزل، إنّي كإبليـسَ طَـرَدني رّبي مِـن جنّتـه لمّـا استمسـكتُ بهـا، فللقلـبِ بُـذور، وللعشـم -في أمـلٍ مسـتحيل- جـذور، كيـف أتطهّـر مِـن أسـمال المـاضي؟ كلّمـا ابتعـدتُ لمحـتُ في طيّـات المـاضي حُلمـي، أنـام كيمـا يجـيء صبـاحُ بِكـر للعشـق، أَنـسى بـه صباحـاتٍ مرّت ولـم تـترك إلّا أثـرَ الخطيئـة، يـا شـيخ، أنـت لـم تدلُـفْ إلى محـراب سـماحة الحـب اللامتناهيـة، فالأصـول هـي هـي، والفـؤاد بـيْنَ بـيْن، والفطـرةُ لهـا بابـان، بـاب بـه ندلـف مملكـةَ الـلا احتمـال، مملكـة الهـوس الكـوني، وبـاب منـه نخـرج للحقيقـة، حيـث لا حقيقـة إلّا ضيّ عينيهـا.

- لكنّي أحببتُ رّبي.. ذلك يكفي.

- حبّ الله فرع مقتطَع مِن حبّ كوني أكبر..

أنت تجدّف الآن.. احذرْ يا "طلحة"..

بـدا سـيئِبُ نحـوَ البحـر، أكمَـل في شـغفٍ سـارحًا في ملكـوتٍ بعيـد:

- سـحّتْ دموعـي حـين تعـرّتْ أمامـي أولَ مـرّة، لـك أن تتخيّـل أنّي بكيـتُ كتائـهٍ، ولـم أكـن أبـكي طوعًـا، كنـتُ مرغَمًا عـلى البكاء، سـاعتَها لـم يكـن لمعـنى الجسـد ذاتُ التفاصيـلِ الرتيبـة، لـم يعـد ثديًـا وخـصرًا، بـل كان نـورًا ليـس أشـدّ منـه نـور، فـاضَ في عيـنيّ فأبـكاني قَـسرًا، هـذا كان جسـدها يـا شـيخ، أو مـا تبقى مِـن شـوق الأزل، مـا تبقـى مِـن تشـكيلات الروحانيـين، إنّ الجنّـةَ ذاك الجسـد، إنّ الدهشـة في معناهـا الأول، إنّ الرغبـةَ لـو باتـت عـلى حـدّ الحيـاة.. مسـكونٌ جسـدُها بالألغـاز.. والأسرار.. فـلا سرّ أعمـق حـيْرةً مِـن سرّ تعرّيهـا تلـك اللحظـة.

ورَفع عينيه للسماء في لحظة غياب عميقة:

- امنحْـني يـا رّب دهـرًا في الجحيـم ثـم ابعثـني نطفـةً في ذاك الجسـد، كطاقـة نُفخـت دونمـا تمهيـدٍ أو اسـتباق.

ثم التفَتَ نحوي وفي عينيه لمعةُ الألم:

- أليـس التعـرّي مقدّسًـا يـا شـيخ؟ ينبغـي أن يقـدّس تعرّيهـا تمامًـا كقداسـة سـمواتٍ سـبع، فلمـاذا تمهّلـتُ حـين اعتصرتـني؟ لمـاذا لـم تعُـد ترتـدي تلـك الأشـجار ثانيـة، أنـا مِـن دونهـا لسـتُ مكتمـلًا، وهـي لـذّة مسـتقاة مِـن نبـعٍ مـوازٍ، وأنـا البـاكي أمامَهـا لسـتُ أشـعر بأطـرافي، شـعرتُ يـا شـيخ حينـذاك أنّ العالـمَ بـأسره أخـذ يبتهِـلُ كي يـدوم تعرّيهـا.

ربّتُ على كتفِه ولم أكن أطمئن للمدى الذي بلغَه هذيانُه، رغم شفقتي عليه، وقلتُ له وقلبي يخشى عليه مِن أفكاره:

- دعْ روحَك تنزع نحو مسافةٍ آمنة لا صخبَ فيها ولا بَشر، ثُقْ لرؤية الله متمثّلًا في التفاصيل، ثق لرؤية عينيه، وسماحة وجهه، وحنوِه، فارتمِ في أحضانه، لتذبْ روحك في مساحةٍ آهلة بالاشتياق الخام، ثم ليبعثك الله كيفما يشاء، لن يهم، إطلاقًا.

عَقَد حاجبيه حانقًا وقال:

يا شيخ.. المطلق.. هو أن ندع كلّ شيء للقدر، دونما حتى أن نُعمِل العقل، فنسعى، لننال بعضًا ممّا نطمح، فنمحو معنى العزم، والبسالة، والحب، ومعانيَ أخرى، قد تصل بنا حتمًا لِما نبتغيه...

وأضاف وقد بدأ يهدأ:

- ما أبغضَ أن نسلّم للإطلاق في حياتنا!

تتداعى قبالتَنا متونُ السماء النهارية، فتسبح ظلال الليل -رويدًا- بين أكفّ الأفق المفرودة، ينهاني قلبي عن التعجّل في الحُكم على رجاحة عقل "طلحة" واتّزانِه، قلت:

- اصبرْ يا "طلحة".. الصبر قد يفاجئك بالمعجزات.

ليس أدلّ مِن ترحالي صبرًا يا شيخ "مسعود"

يَحمِل لنا الهواءُ نسماتٍ مِن حنين، وأنا أُديمُ تأمّلي في

جانب وجه "طلحة" الشائخِ قليلًا، المليء بصفعات الزمن. عيناه شاخصتانِ في عبّ المياه، وعيناي تمعُنُهما مزمن، ترى يا "طلحة" ما الذي قد يُسفِر عنه صيدُ الذكريات؟ ما لَك شاردٌ شرودَ الأبد؟ أيّ ألمٍ تحتويه؟ ربما لو أنّ لي صبرًا في ذاك الملكوت كصبرك لأمسيتُ كهلًا دون الميعاد.. مَن يدري حقا؟

البحرُ تِيهٌ عظيم، والسفينةُ تضرب داخله كأنّها على غير هدى، ائتلفتْ نفسي و"طلحة" مع مرور الوقت، كان يحذرّني مِن شرّ البَشر، ولم يحذّرني مِن شرّ البحر أو غضبتِه المفاجئة، غيرَ مرّةٍ يثور، ويثور الركّاب، ويبدو على الرّبان القلق، لكنّ "طلحة" كان يعتصم بالهدوء والاطمئنان، ويقول لي:

إذا ثار البحر، لم يثر على مجِب، الخوف الفعلي من ثورة الروح يا شيخ "مسعود"، فالروح إنْ ثارت تاهت في غياهب العدم.

البحر لا أمان له يا "طلحة"

ليس مِن أمانٍ إلّا للبحر صدّقني، بالبحر تقتدي النفوس.

رحتُ أدرِك شيئًا فشيئًا بعضًا ممّا يعتمِل في نفس صديقي، ففي عينيه المليئتين أرَقًا بدا "طلحة" يختزل جموحَ الحياة ويمضي، هائمًا كما لو أنّه لا يدري مستقره، وخائفًا حينًا مِن المصير، يجتاز عتباتِ التشظّي عبر تِلوَ أخرى، ولا يأبه -رغم أوجاعه- للمآل، كأنّ شيئًا يطبِق على صدره، ولا يشاطره مع بَشر. كنّا نجلس أحيانًا في صحبة

سمر، والصحبة في غيبة الرحلة مسعِفة حقا، كان أحدهم يعزف النغم، مدّد ساقَيه، وطاب للكلّ نغمُه، أغلق عينيه، وراح يهتز ببطء بصحبة نغمِه، ذلك النغم الناعم، الأثير، "طلحة" يصفّق مع مَن يصفّق، وروحي يتناقض إحساسُها بيْنَ بيْن، وكلّ الأشياء رهينةُ غربةِ البحر، وثمّة مفتاحٌ لم أدركه لبلوغ سرّ سريان النغم في روحي، مشيرًا الخبال، ومِن روعة النغم، قام "طلحة" يرقص، كسوداني أصيل، فضحكتُ بيني وبين نفسي وإنْ لُمتُها لمسايرتها ذلك الجموح، إنّما قلتُ كذلك: بعض التسرية لا تضير مؤمنًا. لكنّ الذي لم يَرُقْني واستهجَنَته نفسي مِن "طلحة" هو إقبالُه على كأسِ نبيذٍ، فآخر، حتى بدا للسَّطَل أقرب، ولمّا لم يحتمل، هروَلَ نحو سور السفينة، وأفرغ ما في جوفه، كأنّه أخذ يُفرغ أوجاعَه داخل عُبَاب البحر، هرعتُ خلفَه، وكان يميل نحو المياه يحدّق، قلتُ له:

أخشى عليك مِن إتيان الحرام جهارًا.

فقال:

الحرام معضلة وبضعة تأويلات.

يا لجنونك يا "طلحة".. لي معك حديث حين تفيق.

ومَن أخبرك يا شيخ أنّي سكران....

واللهِ حتّى الثمالة.

البحر كفيل بالسكارى يا شيخ "مسعود"

يا لبُعد الخَلقِ عن الخالقِ.

في نبرةٍ بدت لي مستهزئة قال "طلحة":

- قُل يا لبُعد الخالق عن خلقِه.

قلت:

- إنّ اللهَ قريبٌ مِن عباده بلا شروط.

أومَأ برأسه في غير اقتناع وتمْتَم:

- ماذا لو أنّ اللهَ مات! ماذا لو بات كلّ شيء مستباحًا كبدءٍ جديد! وماذا لو أنّه لم يَمُتْ لكنّه يوحي للبَشر كحيلةٍ أخرى مثل حيلة آدمَ في الجنّة! ماذا لو انّه أنشأ الكونَ ثم مات! ومِن هنا كانت الفوضى.

ضِقتُ به فقلت منفعلًا:

الخمر أفقدتك عقلَك يا "طلحة"

ردّ في استهزاء:

أتعرف يا شيخ "مسعود"، الكارثة لو أنّ اللهَ لا يموت، حيث ستظلّ الرقابةُ قائمةً ليوم تُنحَر الرقاب.

تمالكتُ غضبي، تركتُه ومضيتُ ساخطًا عليه، بعد قليل حضر معتذرًا، بدا لا يود أن أجافيه، جلسَ وفي عينيه ومضةُ حزنٍ، وقال:

البحر غيّتي، أتعلم يا شيخ كم أهدرتُ مِن عمري في البحر؟ هربًا مِن ملاحقة الماضي، قالوا إنّي دفنتُ سرّي في قرار البحر وإنّي شقّقتُ بطنَ الليل فاختفيتُ بداخلها منذ ذاك الحين، لكنّ الذي لا يعلمون أنّ بَحري قراره عميق، لن

يبلغه يومًا بَشر، كذلك ليلي، بطنه مظلمة مجهولة مخيفة وليس غيري يجرؤ على المجازفة بالرحيل إلى هناك، قالوا إنّ هذا ما كان في بداية سنوات البرد التي لم تَزُرِ الشمسُ خلالها أرضي قَط، أمّا الآن فالبحر يدفئني بأسراره.. إنّما حيرتي لا نهاية لها.. يبدو أنّي خالدٌ سأعيش أبدًا.

قلت:

الخلود فكرة روحانية، أن تعيش أبدًا ليس مِن المنطق في شيء.

- لكنّك ستعيش أبدًا، أراك هناك عاجزًا وحدَكَ يا شيخ، في المسافة بين الروح والجسد.

حاولتُ فهْمَ مغزى كلامِه بلا جدوى، نهض قائلًا:

إنّما هي مسافةٌ آمِنة على أيّة حال، تعالَ نطلع.

- دعني واخرجْ أنت، الخلوة مطلوبة الآن يا "طلحة".

- قَد نختلي ولو في زحام دنيا الله كلّها.. الخلوة خلوة روح يا شيخنا.

وطلعتُ معه، استندنا إلى السور، وكانت تهتز بين أنامله مسبحةٌ فأدْهَشَني، ترتجف يده قليلًا فأثبّتها بمسكةٍ مِن يدي العفية، الموج يتلألأ، ويشكّل حولنا محيطًا فيروزيًا، يظلّ "طلحة" يلهث منفعلًا كلّما شرد أكثر مع لطمات المياه لجنب السفينة.

قال "طلحة":

إنّ حكايتي يا شيخ "مسعود" مسحورة، وكان لي فيها حكمةٌ عظيمة، حبيبتي لم تُشبِه البشرَ في شيء، فحيث الملتقى، هناك، عند الدير البعيد المطِلّ على القرية مِن تبّةٍ عالية، كنّا نجري وحيديْن. ساعة العصاري؛ ساعة أن نلتقي، ساعة أن نشبك كفيّنا ونهرول صاعديْن مع الطريق نحو الدير الذي تشبه قبّته أيقونة مِن أثر، وفي يدينا غصنا زيتونٍ، نبعد عن تلصّص البيوت، وعن نكهة الأناسِ اللاذعة، كيما نتّجه نحو ذاك العالم الرخو المَخملي الرقيق؛ الحديقة الظليلة المتكئة على سور الدير. "يومًا قد نصبح فراشتيْن.. هل توافقني؟" تقول لي، أشيح بوجهي عنها محاولًا تخيّل كوني فَراشة، وفوق شفتيّ ابتسامةٌ ساهمة، ترى هل تفكّر الفراشاتُ مثلَنا؟ هل تحمل قلوبًا كقلوبنا؟ ماذا لو أنّها أيضًا تريد أن تصبح بَشرًا كعكس طموحنا؟ "يمكننا أن نطير دون أن نتحوّل لفراشات" ترميني بنظرة حيرى مستفسِرة، فأشدّها مِن يدها وأجذبها معي، نعدو حذاءَ البستانِ الأخضر المُلقى على جانب الطريق الرملي، تساورنا رعشةُ تشابكِ الكفّين، أغمِض عينيّ فتفعل بعدي، نرفع صدرينا لنختزل الهواءَ القادم منحدرًا نحوَنا، ندعه يداعب خيالَنا قليلًا، ثم نزفره في لذة مِن تلك التي تشبه الطيرانَ في الجو فعلًا. أفترِشُ بجسدي السجّادةَ الخضراء ضاحكًا في لهاث، تجلس جواري، تتأمّل قبّة الدير بعض الشيء، لكنّها تتضرّع جواري للسماء كأنّها لم تكن يومًا إنسية، بل مِن تلك الملائكة التي أرى طوافَها في الخيال منذ بعيد: "يا رّب، لو لم أُبتَلَ يومًا!" ثم يتحشرّج صوتُها فتنقطع النجوى، تستدير نحوي بعينين

مغرورقتيْن وتقول مضيفة: "دعني أختَرْ لك حبيبةً تلائِم قلبَك مِن بعدي" أهزّ رأسي في حدّة واستنكار، وألمّ دموعَها في صدري، أطويها طيّ الحسرة، وأتابع بعينين مشوبتين بالغمام خطواتِ "أبونا" الذي يدنو في تؤدةٍ رصينة، يسحبها منّي في رفق، تمتثل في استسلام، وعلى شفتيه ترسو ابتسامةٌ مطمئِنة، وبصوتٍ شديدِ التهدّج يغمغِم: "مكانها هناك" ترتفع إصبعُه في بطء نحو السماء، أنتفِضُ قهرًا، أجاهِد أن يفهم أنّها قد تعيش العمرَ معي في سلام، لم تعد أيّها القسّ المسائلُ بذات المفاهيم العشوائية إيّاها، فلا الحياة لها شكل الفناء، ولا الموت له شكل التمام. تستدعيني الأشواقُ لأصير وطنًا جديدًا للتشظّي، يقترب الدير ويلتهم خضارَ الحديقة، والقسّ بثوبه الغامقِ الأسود يرتفق يدّ حبيبتي بين أناملِه، غيرَ أنّها لا ترغب في الإفلات، كأنّما خُلقَتْ مِن أجل أن تُصطَحَب. تتعفّر البدايات أمام عينيّ، لم أكن طفلًا، ولا صبيًّا، لم أكن شيخًا، ولا فانيًا، كنتُ نبيًّا مصطفَى، يجيئه الوحي مِن آنٍ لآن، ولا يصفح له أيّة هفوات، هاأنذا نفس الورمِ القديم النابت في خيال حبيبتي، وها هي ذي نفس الفتاةِ المراوغة التي تكابِد مرارةَ الوداع. أقول للقسّ: "دعها قليلًا تجيب بعض الأسئلة" يقول: "ثمّة أسئلة بلا إجابات" أشير نحو الدير الرابض على مقربة: "وهذا" يغمض عينيه مهمهمًا: "فِعل الزمن" لكنّني أستمسِكُ بيد حبيبتي في قوّة لم أعهدْهَا مِن ذي قبل، وهي تستسلم، تمامًا كما استسلمتْ للمرض قديمًا، تتوغّل في أحشاء الماضي كسهمٍ مندفع، وتستحلب منه أدق

اللحظات وربما أقساها. يلتفت القسّ نحوي هاتفًا: "دعها تمضي". أصيح: "كلاّ.. لن تمضي إلّا باختياري.. لسوف أقبض عليها بين سائر حدود المنطق كيما أخلق لنا تعريفًا جديدًا" تتجهّم حبيبتي وهي تستطرد مودّعة: "دعني" يعتريني شللٌ تام، وفي رداءٍ أسودَ يحتوي جسدها تمضي، ترحل مِن أمام بصري كسحابةٍ معتِمة متهادية يا شيخ "مسعود"، فأراني طفلًا يعدو في الحقل حذاءَ الدير، بقبّته التي تبدو كورم حبيبتي. الفَجر يؤّذن، وأنا أركضُ لم أزل، طفلًا غزا البياضُ شَعر رأسِه وخيالها، خلف فراشة أركض، مِن ذات مادة الملائكة، فراشة تبتسم، وتهمس مِن بعيد: "لو أنّني بَشر أرحل خلفَها، ممسِكًا في يدي غصنَ الزيتون، تحملني نحو كلّ العوالم غير المرئية، أسمع نجوى حبيبتي الضارعة، وهي تفطر كبد السماء بكاءً، وبين شفتيها الدعاء الذي لم يُجِبه القدر، والفراشة تتزيّن لاصطحابي، فراشة يومًا كانت حبيبتي.

فجأة، يجذبني "طلحة" مِن يدي، يدور مع استدارة سور السفينة، يتابع بعينيه صفحةَ الماء، ثم يهلّل فجأة وهو يصيح:

- انظرْ يا شيخ..

ويشير لقلب المياه..

أغشى عيونَنا بريقٌ لم يكن في بهائه مثيل، كانت نجمة يتدفق من داخلها الضياء، فتفرشه على مدى البصر، خُيّل لي أنّي سُحرتُ حين غفلة، لم يكن الواقعُ واقعًا، ولا الوهمُ بعيدًا عن ذهني، كانت نجمة وضّاءة في متن المياه، كأنّها

تتنفّس.

- يا الله! إنّها نجمة حيّة.

- ومتى كانت النجوم ميّتة؟ كلّما أفَلَتْ روحٌ على الأرض سقطتْ نجمةٌ مِن السماء في مجهول البحر، ربما كانت هذه النجمةُ حبيبتي، أو أيّ واحدٍ ممّن تركوا قلوبَنا يابسة ورحلوا.

أخذتِ النجومُ المتألّقة في السماء تصطفّ أعلانا في منظومة قدرية تشبه الدائرة، وهي تُطِلّ على البحر مِن علٍ، وكانت النجمة ترتعش بين صفحات الماء كأنّها لم تَعرِف الدفءَ أبدًا، أو لعلّها تُعزّي "طلحة" فيمن فَقَد! لا أدري! تخالَطَ عليّ الأمرانِ فأوشكتُ أن أنجرف نحو فضاء الذكرى كذلك، تمامًا مثل "طلحة"، وموج البحر يتدافع نحونا مُزْدَانًا باللمعان، ومِن صفحته تَخرج هوام فردوسية مضيئة إضاءة ذكرى لم تبارِح خيالَ "طلحة"، قال في وَهَن:

- تلك أرواح البحر تحتفل بتمام الذكرى.

ثم التفتَ إليّ وهمهم:

- كَمْ كنتُ أخشى الغروبَ مِن ذي قبل.. الآن بات للغروب معنى

أتفقد الجلالَ الذي أهاب بسائر المفردات -التي نسكنها داخل السفينة- أن تمنحنا بعضَ الأمل، و"طلحة" مضى يردّد مبتسمًا:

- كلّ روحٍ آفلةٍ نجمة في بحر.. هذا هو النداء لروحي.

وفي السماء، تدور النجومُ دورة غيرَ مسبوقة، يحتوينا غديرٌ مِن سحر طالع إلى أعلى، يمسّ روحي والنجوم، فأشعر بنبضها، ودفئها، وأروم صوبَ لذّةِ الإحساس بالبريق الذي أضاء الكونَ مِن حولنا.

"طلحة"

والتفتُّ نحوَه، لكنّه لم يعُد، كدتُ أُجَنّ خَبَلًا عليه، هل تلاشى كطيف؟ أم سلّم للبحر روحَه؟

إنّما ذابت تساؤلاتي، ذلك عندما انحَدَر الكونُ كلّه داخل عينيّ في لحظة، ففي جلال مصفوفةِ النجوم بأكملها بدتْ تتساقط نحو البحر نجمةٌ تِلوَ أخرى، كأنّ العالمَ إلى فناء.

(3)

الرحلةُ طالت، وفراق "طلحة" جعل فؤادي يُمعِن في الأسى، عِشرتُه القصيرة تركتْ بداخلي ندبةً لن يمحوَها الزمن، كنتُ أقضي وقتي متعبّدًا، أتركُ ركّابَ السفينة يأتون ما يأتون مِن مرحٍ ولا أشاركهم، رغم إقدام بعضهم على إغرائي، لكنّي كنتُ مكتفيًا بما حملتُه في قلبي مِن نصائحِ شيخي، وأقعد في غرفتي بالساعات الطوال لا أخرج لظهر السفينة، كأنّ بي أخشى مشهدَ "طلحة" الذي يرتعش في خيالي، وهو يغيب كما حضر، كنتُ قَد بدأتُ أشتاق لفلسفته التي تتناقض وروحي، إنّما في جميع الأحوال ثمّةَ اشتياق، كان له حضورٌ طاغٍ على نفسي، وكنتُ أبكي أحيانًا رثاءً لِما أقدَم عليه مِن ذنبٍ بإزهاق روحه طوعًا.

البحرُ هائجٌ هذه الساعة، كما لو أنّه أسيان على "طلحة"، قادمة أمواجُه تتراقص مِن قمم المدى وتدفع - كصفوف مِن غضب- بعضها بعضًا نحو بطن السفينة، الربّان مشغول بتفادي صفعات الموج، والركّاب يهرولون، بعضهم فزِع، وبعضهم يَخشى على مقتنياته الثمينة، والسفينةُ يضربها الموجُ فتترنح كدائخة، وبدا أنّ الربّانَ لا يقدِر على كبح جماحها، يكابد بالدفة يَمْنَةً ويَسرَة، والهلع يكسو وجهَه، لكنّي كنتُ مطمئنًا، ولو أنّ كلّ الاحتمالات واردةٌ في عرض البحر، وكلّ الحسرة قابعة داخل النفوس دون عمد، بدونا نسير في أحضان المياه لا نعرف وِجهتنا، وظلمةُ أحشاء البحر تتلقّفنا، ورأيتُ "طلحةَ" واقفًا كشراع في قلب المياه البعيد، وعلى وجهه آياتُ رعب، يهيب فينا أن نعودَ

أدراجنا، كأنّنا أوشكنا على دخول منطقةٍ خطرة محظورة، حاولتُ تنبيهَ الربّان، لكنّه - ووسط المعمعة- لم يستجِب، أخَذ يوغِر داخل المنطقة أكثر، كأنّه يحاول النفوذَ لجهة آمِنة، لا موجٌ عاتٍ فيها ولا عواصف، أو كأنّه عدِم السيطرة، لعلّه كان مخطِئًا، حيث كانت الريح تشتدّ، والعاصفة تزوم إعلانا في ازدياد، لم أكن خائفًا، أو ربما لأنّ إيماني بالقَدَر عظيم، رحتُ أُطَمْئِن بقية الصحبة، وأدعو لنا النجاة، وأذكُر بشكلٍ دائم آياتِ القرآن التي تحثّ على الدعاء (ادعوني أستجِبْ لكم).. (أمَّنْ يجيب المضطرَ إذا دعاه ويكشف السوء). وكنتُ أؤكد أنّ اللهَ لا ريبَ مجيب، وأؤكد أن لن يصيبنا إلّا ما كُتِب لنا، ربما هذا ما جعل ارتياحًا يستقر في أفئدة البعض منهم، ويؤمنون أنّ النهايةَ وإنْ بدت قريبة فإنّ اللهَ على كلّ شيء قدير، غير أنّ العاصفةَ تفاقمت حدّتُها، ونَمَا الإحساس بداخلنا بأنّ الضياعَ آتٍ لا محالة، إلا أنّنا - رغم ذلك- التأَمْنَا حول بعضنا البعض، وقرّرنا البقاءَ في بقعة بعينها حتى يحلّ علينا الفرَجُ أو نهلك دونه، كنّا ندرك أنّ الربّانَ يهتِك حرمة البحر دون معين ولا يلوي على هدف، غير النجاة العبثية، رأيتُ طيفَ "طلحةَ" ماثلًا بيننا، يُخرِج قِربةً جلدية ويطوف علينا، يوزّع منها القسطَ القليل، لكي يكفي مصلُه الجميع، ورأيتنا نجرع منها، وقايةً مِن أمراض الصدر التي تحملها العاصفة بين جنباتها، كنّا نجلس تحت ضوء قمرٍ ضاربٍ في غياهب السماء، ونحدّق في عمق الفضاء، ونرصد بأعين شاردةٍ خطوطَ النجوم التي تتلاحق فيها بمنطق عشوائي، لا أحد منّا يعرف عن خريطة

النجوم شيئًا! دخلتُ غرفتي، وصليّت، ورحتُ أتفكّر، زهدي عن الدنيا -هذا الزهد الفريد- لم يُعفِ نفسي مِن البوح بأنّها تَخشى هذا المجهولَ الذي وقعنا فيه، في الحقيقة هو شَرَكٌ ربّاني، لامتحان قدرتنا على الصمود، لكنّي الآن خائف، خائف لدرجة أنّي أرتعد. ما لك يا "مسعود" حائر لا راحة لك؟ أمَا خَطَر ببالك أنّ الله لعلّه غاضبٌ عليك الآن؟ وأنّ ما وَقَر بداخلك مِن حتمية الفناء لَهُوَ تجديف؟ أين اعتقادك في الغيب وفي الأمور الربّانية النافذة ولو بعد حين؟ رحمة الله واسعة، ألا يقدر الله على الفَرَج في لحظة خاطفة؟

أسبلتُ جفنيّ، فتسربتْ مِن تحت أهدابي دموع، وفي وهلة، وجدتُ نفسي جاثيًا أمام حجرة جدّي النبي عليه الصلاة والسلام أتضرّع:

- السلام عليك يا جدّي.

السلام عليك يا ولدي.

كان الصوتُ في رأسي يُقَلقِلها:

- أتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟

- ما الخير يا جدّي؟ أرشِدْني.

- (لا يقعد قومٌ يَذكرون اللهَ إلّا حَفَّتهم الملائكةُ وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينةُ وذَكَرَهم الله فيمن عنده).

فاستفقتُ وطمأنينةٌ تغزو لبّي، طويتُ سجّادةَ الصلاة، وخرجتُ إليهم مِن غرفتي، صِحتُ فيهم والعاصفةُ تنتزع

بعضَهم بلا هوادة لترميه في هوّة البحر:

- (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت).

رد عليّ صوتٌ مِن وسط معمعة العاصفة:

- نحن أمواتٌ على كلّ حال يا مولانا.

تناولتُ مِن نسمات الهواء العاصف نَفَسًا عميقًا، أوغلتُه داخل صدري ثم نفختُه ببطء، وببطءٍ كان توتري وانزعاجي يتسلّل إلى الخارج، منذ دقائقَ كنتُ في حضرة جدّي عليه الصلاة والسلام، فماذا يفزعني؟ استدرتً دون أن أنبس، ودخلتُ غرفتي وجسدي يتطوّح مِن عزم الريح.

تمدّدتُ فوق البساط ورفعتُ عينيّ إلى أعلى، انطلقتُ ببصري إلى سماءٍ متقلّبةٍ مِن خلال فرجات واسعة، جاهدتُ أن أغمِضَ عينيّ وأخلد للنوم ثم ليأتي قدَرُ اللهِ كما يشاء، فلم أفلِح، كنتُ مهيئًا تمامًا لأن أعتدل بجذعي، ثم أؤرجِحُ رأسي يَمْنةً ويَسرَة، وينفرج فمي عن همهمات متناسقة اللحن:

في حالةِ البعدِ روحي كنتُ أرسِلُها

تقبّلُ الأرضَ عنّي وهي نائبتي

وهذه دولةُ الأشباحِ قَد حضرتْ

فامْدُدْ يمينَكَ كي تَحظى بها شَفَتي

بَعدَها علتْ همهمتي، وصارت دندنة روحية تبلغ عنانَ السماء. كنتُ أرتجف، وأتأوّه، وتُسكِرُني حلاوةُ اللحظة، وكان

شيخي "إدريس" قد حَضَر، ومسّدَ جبهتي، وانضمّ ينشد معي:

بذكْرِ اللهِ تَبتهِجُ القلوبُ

وتَتضحُ السرائِرُ والغيوبُ

لأنَّ الذِّكْرِ أفضلُ كلِّ شيءٍ

فشمسُ الذاتِ ليس لها غيوبُ

في الخارج، كانت السفينة تنازِع البقاء، لم تكن ثمّةَ جدوى مِن المنازعة، والريحُ تصفّر داخل الآذان، لكنّي انفصلتُ عن كلّ هذا، واسترسلتُ في ذِكْري لمقام الفَجر، في هذه اللحظة كَمْ أشعر أنّي خُلقتُ مِن مادةٍ مميّزة عن مادة البَشر! روحي مصفّاة مِن خلاصة أرواح السلَف الأنقياء، الآنَ أذكُر، والآنَ تطوف حولي جميعُ ملائكةِ السماء، أسمعُ أنغامَ صوتِها الحلو وخفقَ أجنحتِها الذي يشبه صوتَ نزولِ المطر على الأرض، أرى بعين البصيرة أجنحتَها البيضاءَ وهي تحلّق فوقي، تشارِكني الذِّكْر، وأجازى بكراماتٍ لم يهبها اللهُ لأحدٍ قَبلي، ولا يقدِر عليها بَشر، أضع كفّي على رأسي وأغادِر، أغادِر، ثم فجأة تنشق رأسي عن إشاراتٍ عظيمة، لعلّي نِلتُ أجْرَ الصبر، إنّما صدمة انتشلت جسدي وضربته في مؤخرة الغرفة، لم تمضِ وهلةٌ حتى أُنتِشلْتُ ثانيةً للجانب الآخر مِن الغرفة، كلّ ذلك والصراخُ يأتيني مِن أعلى كأنّه الهول، أدركتُ أنّنا هالِكون، هي ساعةُ الحَسم، البحر - قلت لـ"طلحة"- لا أمانَ له، لكنّه طمأنني، كَم كنتَ واهِمًا يا صديقي! الآن لن ننجوَ مِن غضبة البحر، ولا مِن

قَدَرِنا، هذا القَدَر المحتوم. العاصفة تطير بالسفينة، كأنّها منتشية، والأمواج تتراقص عاليةً في جذل، والموتُ لا يرى، إنْ كانت هذه النهاية فلا بأس، ربما كانت الرؤيا في الأصل درجة أتقدّم بها ارتقاءً نحو هذا المصير، أَقْبَلَه يا رّبي خاشعًا. كان جسدي يطير مع ما يطير، وتضربني الأمواجُ مِن كلّ ناحية، والأجسادُ حولي تتقاذف في الهواء، والعاصفةُ حلزونية، تصعد بنا وتهبط، لم تعُدِ السفينةُ في حدّ ذاتها مرئية، كلّ شيء تدهور في عُباب العاصفة، جسدي يطير، وروحي تطير، والملائكةُ تَصحبني لأعلى، في هدوء.

(4)

(رأيتُ، فيما لا يُمكن للنائمِ أن يرى - ولا اليَقِظ- دربًا ينتهي بسور، أولُه عتمةٌ، وآخره ضوء، ومِن خلفِه صوتُ السفينة يهدر، آذنًا بالسفر، متعجّلًا في ضجّةٍ بدتْ مستحبّة، كأنّي عُدتُ لنقطة البدء، فسِرتُ، ولم أزل محدّقًا في نهاية الدرب المسدودة، كأنّ بي أشاهد السفينةَ الطالعة مِن علٍ، ومِن حولي أبنيةٌ متفسّخة، لم تستطع رأسي الدورانَ لرصدها بدقّة، كما لو أنّ عليها الطير، أو كأنّي في زمنٍ موازٍ. الدرب يلتهم قدميّ، فأسير، وأستمع لأنّاتٍ خافتة، تعلو رويدًا، فأنتبه، تشدني إليها، فتسحبني قدماي، ناحيةَ بيتٍ بعينه، بابُه مِن خشب، وقوامُه مِن طين، ومعظمُه باهتٌ كأنّ لم يُسكَن قَط، البابُ موصَد، والأنّات تعلو، أزيحُه بيدي، فينفتح، وتبدو لي الألفةُ التي لم أتوقعها، هو بيتي، أو ما يشبهه حدّ التطابق الهزلي، أدلف، الظلمةُ نافذة مِن حولي، في كلّ التفاصيل، وداخل أحشائي. تقودُني حواسي إلى منبع الأنّات، والرهبةُ تداخلني، تتخالط والألفة، أتنهّد، أتلمّس سبيلي إلى موطن الأنّات، أتوغّل داخل البيت أكثر، إنّما ثمّةَ قيدٌ لا يحرّكني فيسمّر قدميّ عند موطئٍ مفاجِئ، يلتهمني الفضول، ولا أبارح مكاني، إنّها ذاتُ التفاصيلِ إيّاها، القديمة، ولو أنّ الظلمةَ سائدة، ولو أنّي ما زلتُ مرتعدًا، مهوّمًا، متحجّرًا بين المسافات، كعلامةِ استفهامٍ ثابتة، لكن كلّ شيء يخبرني عن الماضي، أحاول فكّ قدميّ المثبّتين والأرض، دونما جدوى، فتختنق أنفاسي رغمًا، وأصارع الظلمةَ، والأنّاتُ لا تنقطع، تتحرّك الحوائطُ دنوًّا منّي،

تتحـرّك المَشـاهِد، تتحـرّك كلّ التفاصيـل، عَـدّاي، والفضـولُ قاتـلٌ، يجذبـني نحـو الداخـل، روحًـا، فـلا تسـعفني قدمـاي، ولا إرادتي، فأختنِـق أكـثر، ويبـدو المـدى مظلِمًـا لا ضـوءَ فيـه، ولا نقطـة ضـوء، تتعسّر عينـاي، ولا أجـد منفـذًا لهمـا، أُغمضهمـا جـدلًا، وأكابِـد تفسـيرَ الدافـع الـذي أَفـضى بي هنـا ثانيـة، فتكون دهشـتي، حيـث لا يوجـد دافـعٌ بذاتـه. في بـطءٍ أفتَـح عيـنيّ مـرّةً أخـرى، لا تريـد الصـورُ أن تتكـوّن، مجـرّد ظلمـة، ظلمـة ثقيلـة، أسـتجمِع شـتاتي، وأندفِـع بقدمـيّ، فأتحـرّك قليـلًا، قليـلًا، إلى أن أقِـفَ عـلى موضـع الأنّـات، بـاب الغرفـة موصَـد كذلـك، أدفعـه، كَـم هـو بليـد! لا يـود التزحـزح، أجاهِـد، ثـم شـيئًا فشـيئًا ينفتِـح، ومِـن خلفِـه يغمـرني النـور، باهـر كعـينِ مـلاكٍ بِكـر، صـافٍ كبـدء تكويـن، يحاوطـني النـور، ينتشـلني مِـن دنيـا لأخـرى، وتبـدأ - في تـؤدة- تتقطّـع الأنّـات، ثـم تنقطـع، ثـم يَظهـر لي وجهُـه جليًّـا كيـومِ ولادةِ الكـون، أهتِـفُ:

"طلحة"

مرتميًـا في حضنـه، غـيرَ أنّـه حـين يتلقّفـني، يسـكب فـوق صـدري دموعَـه، ويتمـدّد داخـل إحساسـنا عُمـرٌ جديـد، ولا يسـتمر زمـن، تتوقّـف المَشـاهد واللحظـات، ويتراخـى إيقـاعُ الحيـاة، وأمـتزج بدموعـه، وفي الأفـق شـجرةٌ وارفـة، خـضراءُ بلـونٍ ذهـبي، تغطّينـا، فنتغطّـى، تحتضننـا فروعُهـا، وأبـكي، كمـا لـم يحـدث مِـن ذي قبْـل، وأراني بـرداءٍ مَخمـلي، بحيـث لا يفـترق لونُـه عـن لـون الشـجرة، ولا يشـملني كُلّي، أصعَـد وتهبـط المَشـاهد أمـام بـصري، تهبـط كغمامـة يائسـةٍ خاملـة، أحلّـق و"طلحـة" روحيْن لا مسـاس بشـفافيتهما، ومِـن تحـت أقدامنـا

يسير نهرٌ مِن دمع، لونُه عسلٌ صافٍ، فيقول "طلحة":

- مِن الغرور يا "مسعود" أن نظنّ البقاءَ في سائر الأشياء الجميلة بحياتنا أثناء طريقنا للأمام، ثم لمّا نلتفتُ للخلف ونجدها قد زالت كلّها ولم يبقَ سوى الذكرى، نموت مثلها.. مثلها تمامًا.

في جزع أصيح:

- لكنّك فعلتَ يا "طلحة"

يبتسم ولا يردُ، يسألني بعينيه أن أستكمِل، فأقول:

- أنت ميتٌ يا "طلحة"

فيقول:

- فكّرْ معي ما معنى الموت؟

تتدفق حولنا المعاني، تنزاح -وفقًا لخيالي- بعضُ الحدود بين العالمين، فنزل إلى الأرض ثانية، ليسحبني "طلحة" مِن يدي، فنطلع، وفي الدرب خارجًا تصطخب الأقدام، أستوقِفُ المارّةَ، أسألهم:

هل ترونه معي؟

يحدّق المارّة فيّ، بعضُهم وجوهٌ أعرفها، وبعضُهم لا أعرفه، تجاوبني أعينُهم، فلا أفهم، ألِّح في طلب الجواب بصياغة أكثرَ إقناعًا، ينحسر الضوء عن الوجوه إلّا وجهَ "طلحة"، أستجديهم:

- ألم يمُتْ "طلحة"!

يهمهم أحدُهم في حسرةٍ مِن بين جموع الظلال:

- إنّما أنت الذي مِتُّ.

أستعيدُ بعضًا مِن الماضي، ولا أستعيدني مع ذلك، أتركُ الدربَ وأَلِج للبيت ثانية، إنّه ذات البيت، بيتي، لكنّه بلا ظلمة، كأنّه استعادَ حياتَه، ونَفَض عن نفسه التهيؤات، وفي مِرآةٍ مستطيلة بعرض الجدار أحدّق، فلا أراني، ولا يبقى بداخلي غيرُ الفزع، يجاورني شيخي "إدريس" داخل المِرآة، يمشّط لي شَعري، ويبدو لي طيفًا مِن الماضي، رغم ذلك لا أراني، لستُ مَن يقف في المِرآة، وبأناملَ مرتعشةٍ يشير شيخي للوراء قائلًا:

- عُد لترى.. عُد بالبصيرة يا ولدي.. ولدُك يقتل ولدَك.

فأستدير للوراء، ويتراجع الزمن، يتراجع كفقاعاتٍ هادئة تطلع بي على أعلى، تبشّرني بحياةٍ جديدة، نائيةٍ عن كلّ البشر).

(5)

زمنٌ باتّجاهٍ مختلف، وشطّ خارج كلّ شطوط الحياة التي أعرفها، هذا -ربما- ما سطره عليّ القدَر الفجائي، فهكذا، لابدّ أن تحطّ المقاديرُ على غير مستقرها، لابدّ أن أبدأ في البحث عن هويةٍ ملائمة بدلًا مِن هذا الخَرَف الذي وَقَر في رأسي، مَن أنا حقا؟ هل أنا "مسعود" ابنُ العشرين؟ هل مرّت عقودٌ وأنا في ذات النقطة الزمنية؟ كيف يمكنني استعادة الماديّة الحقيقية؟ تلك التي توجد على الأرض، لا على شطّ مهجورٍ في الخيال، يا له مِن عذاب! فقاعة زمنية غريبة - ومدهشة في ذات الوقت- احتوتني بداخلها، وحجبَتني عن مرور كلّ هذه العقود، مستويات الزمن تتحرّك حولي وتتباعد، وأنا ساقط عن حساباتها، معلّقٌ مثل هامشٍ ثانوي لا يُكترَث له، أرى الغيبَ، كمنْ ينظر في مِرآةٍ يطالِع درجاتِ عمره لآخرها، لكنّه متوقف عن التحرّك للأمام، كآلة معطّلة، كلوحةٍ صمّاءَ -مثل هذه التي أرسمها- يمرّ الزمن على كلّ تفاصيلها ولا يطالها إلّا بعض التراب، أظنّ طالني تراب الوحدة، غيّر بعض المسلّمات، أين العقل وسط هذه الانحرافات الزمنية؟ هل تلك أعجوبة؟ أَمْ مأساة؟ أَمْ قسوة عظيمة منك يا رّبي؟ لا ليس لي أن أواجهَ المكتوبَ بالتذّمر، يكفي أنّك يا "مسعود" حققتْ رؤياي ونِلتَ طموحنا، أنت الآن حللتَ بدلًا منّي في هذا المنعطف القدري الزمني، القدر الذي وفّر لي وحدي بعضَ المصادفات، وأعلنك بديلًا ماديًّا نيابة عنّي، في النهاية مَن عليه أن يبتئِس؟ أنا! أنت! إنّها إجابة عسيرة.

أفتـل لحيـتي، أبرمهـا كأنّمـا أعبـث، هائمًـا قليـلًا في عيـنَي "طلحـة" داخـل إطـار اللوحـة المعلّقـة، غـيرَ عـابئٍ بالشـعلة الـتي كادت تلتهـم جِلـدَ أنامـلي، حيـث يـدوم التذكّـر قارحًـا.. مُلِحًـا.. موجعًـا ومـا أشـدّ الوجـع، وتتلاطـم أمـواج البحـر خـارج صومعـتي مـع أمـواج المـاضي دون مَـرسى، تُختـزَل الذكريـاتُ جميعهـا في حـين أنظـرُ إلى وجـه "طلحـة" المبتسِـم ابتسـامتَه الآسرة، أتسـاءل: مـا جـدوى الانتظـارِ والمـوتُ لا يَنتظـر؟ ثـم أنتبـه أنّ الشـمعةَ قَـد أُشـعلتْ، أتنهّـد، ولـو أنّي أعـود لأنظـر مَليًّـا في وجـه "طلحـة" داخـل اللوحـة، وأطيـل النظـر، ثـم عينـاي تغشـاهما دمـوعٌ، فأسـتدير، وتبـدو روحـي كمـا لـو أنّهـا سـوف تحلّـق نحـوَ سـقفِ الصومعـة روحًـا أبديـةَ العـدم.

وقَـد رمـاني البحـرُ هنـا، شـطّ بعيـد ليـس فيـه إنـسٌ غـيري، وليـس يبـدو عليـه جنـسُ حيـاةٍ أخـرى، كأنّي في مرمـى العـدم اسـتقريت. أولِي ظهـري للشـمعة، يترنّـح ضوؤهـا، أتقـدّم قليـلًا وأسـحب البـابَ بيـدي، فيسـتقبل صـدري الهـواءَ اللّـين الآتي نحـوي، والـذي يزفـره فـمُ البحـر. صومعـتي عـلى شـطٍّ، والشـطُّ منتهـاه الليـل، والليـلُ فـراغ عظيـم، إلّا مِـن التذكّـر، وفي الليـل أيضًـا يسـكن البحـرُ، وربمـا يهمـس بـأسراره، تهـدأ نفـسي عنـد حلـول كلّ ليـل، حيـث تتماثـل الأشـياء، وتـذوب تفاصيـل الكائنـات، فتتشـابه المعالـم. في الليـل، أقِـف طويـلًا، تصافـح عينـاي أكـفّ المـوج المطمئنـة بـين أحضـان الظـلام، أتـردّد قليـلًا قبْـل أن أعـود لصومعـتي الصغـيرة.

أتأمّـل تفاصيـلَ صومعـتي الـتي أقمتُهـا بعـد معاناةٍ وجَهـد، ضئيلـة، تخلـو مِـن كلّ مؤثـرات المعيشـة، تحميهـا مِـن الريـاح

أعـوادُ الغـاب، تضيئهـا الشـموع، ويضيئهـا -داخـل لوحـة عريضـة- وجـهُ طفـلي الـذي أسـميتُه "طلحـة"، والـذي أنجَبَتـه لي الأمـواجُ عَرَضًـا. أضحـك رافعًـا رأسي، تلـك أمـواج ظللـتُ أعوامًـا أطارحهـا غرامـي، أراوِدهـا، أدخـل عالمَهـا، وتـأتي مشـاعري كثيفـةً فيهـا، يـا للخيـال في حلكـة الواقـع المريـر! أصِـل إلى ذروة نشـوتي، وأختلـط بـكلّ كيانهـا، فلأجلِهـا ربمـا اصطفـاني البحـرُ لأسـكن هنـا وحيـدًا، ولأجلهـا أتفـكّك وأصبِـح أشـلاء تتناثـر عـلى سـديم الزمـن، أقـذِف نفسي فوقهـا، وأتركهـا لتداعبـني وتدغدغ أحاسـيسي، فـلا أنجـو مِـن عشـقها إلّا حـين ترميـني عـلى الشـطّ هائـجَ الأنفـاس.

(أيّهـا البحـر! الجنـون اللانهـائي، ترمـح بـلا قيـدٍ وبـلا احتسـاب، تُطلِـق أمواجَـك لـتراود البؤسـاءَ أمثـالي، في الليـل هـا هنـا، كلّ المعـاني تحـدث، وتصفعـني ذكريـاتي، أبتعِـد عـن ملابـسي الثقيلـة، وعـن عوالـمَ تسـكن الذاكـرة، وأنـصرفُ نحـو الأمـواج وَلهًـا، أرتجِـف وهـي تحملـني فوقهـا، مِـن فـرط سـعادتي ينقبـض كلّ الجسـد وهمومي تسـقط داخلهـا، فأنسـاها وأكمِـل سـيري في الميـاه عاريًـا تتحسّـس الرمـالُ بطـنَ قلـبي، تسـبَح معـي، أسـبَح صـوبَ الضيـاء الـذي يطـلّ في منتصـف الحلـم، ينتـشر عـلى مـدّ العتمـة فتنحـسر، وأظنّـني إلى الجنّة أسـبَح، أزرع في تربـة الأمـواج رأسي، وأصبـو لجنّـة البحـر، أنطلِـق والأسـماك وعرائـس المـاء والجّـن وأرواح البحـر والأمـواج كلّنـا نحـو الجنّـة، فـلا نبلغهـا، ويرمينـا البحـر ثانيـة هنـاك، عـلى هامـش الحيـاة، إنّمـا، ربمـا لا توجـد جنّـة في غالـب الأمـر).

منـذ أَمـدٍ، منـذ أُلقِيـتُ في هـذا العـدم، وقلـبي يأمـل الولـدَ

الـذي أسـميته "طلحـة"، تيمّنًـا، ومجـازًا سـأناديه "بحـرًا"، نسـبةً إلى جـدّه الـذي اصطفـاني لأعـتزل هنـا. منـذ أمَـدٍ وأنـا أجلـس أمـام الأمـواج، أتوسّـل إليهـا أن تَمنحـني إيّـاه، أن يتشـكّل بشـكل عبقـري، وأغـرق - والأمـواج- معًـا في عُبـاب الشـوق، حـتّى جـاء اليـوم الـذي اسـتجابتْ فيـه لأمنيـتي الأمـواجُ حبيبـتي المفترضـة جـدلًا.

دومًـا أسـجّل اللحظـاتِ، دومًـا أَجـري بريشـتي لأحفـر فـوق الصخـور وجـهَ ابـني مِـن ثنايـا الغيـب، أصنـع كلَّ يـوم لوحـةً جديـدة متماشـيًا مـع النمـو المتخيّـل لابـني الـذي سيؤانِسُـني في وحـدتي، صنعـتُ عالمـي، بقدسـية لـم تعـد تحـيّرني، بـدا كلّ شيء في البدايـة مسـتعصيًا، لكـنَّ الصـبرَ ينجِـب ماهيـة الأشـياء، أنـا أسـجّل مـا يَحـدث منـذ بدايـة التيـه:

(وقفـتُ عاجـزًا عـن وصـف فرحـتي، وأنـا أحمِـل طفـلي مِـن فـوق الرمـال، لقـد بُعِـث لي ابنًـا مِـن عـدم، يمكنـني اسـتعادة البعـض منـه الآن، كان هـذا الصبـاح، والشـمس تـشرق تداعِـب صفحـةَ المـوج، وكان الولـد -ولـدي- ممـدّدًا عـلى حـدود المـوج، أناملـه تتحسّـس ملامحَـه، ملامحـه ليسـت واضحـة، لكـن قلـبي اسـتوضحها مبكـرًا، إذ شـاهدتُ نفـسي فيـه، وأنـا أمسـكه برفـق فيبتسـم في وجهـي، وتجـوس عينـاه تفاصيـلي بـلا تركيـز، رفعـتُ رأسي للسـماء وشـكرتُ البحـرَ الـذي وهبَـني الولـد، ولـد رأيـت وجهَـه في صبيحـة يـوم بعيـد يطِـلُّ عـليّ مِـن نافـذةٍ في السـماء فأيقنـتُ أنّ الأمـواجَ حُبـلى وسـتأتي لي بالولـد عمّـا قريـب، بـكلّ سـعادةٍ حملتُـه وطفـتُ بـه حـذاء الشـط لتتفحّصـه أمّـه جيّـدًا، لقـد كان جميـلًا، لـه مزيـج مِـن الألـوان في عينيـه يبعـث عـلى

الدهشة، فعينٌ لونها أزرق، تمامًا كلون عين أُمّه الصافي، وعينٌ لونها أخضر، كلونِ سعادتي به، وكان شَعره يسبَح بانسيابيةٍ على جبينه).

يا لها مِن عبثيةٍ للمعاني، أؤمِن أنّ العزلةَ والبحر يصنعان أشكالًا لا يمكن للإنسان أن يصل لها بخياله:

(جميلًا كان ولدي، أخشى عليه مِن حسد الكائنات التي تسكن البحرَ معي، فكّرتُ أن آخذه وأرحل بعيدًا، نصنع عالمًا متفرّدًا لنا فقط، ولو في السماء، لكنّي تراجعتُ، لم يكن لأُمّه ذنبٌ في حبّي له، فهي أيضا تحبّه، ربما أكثرَ منّي، كما أنّ روحي تسكن البحر، فهل أتركها وأمضي؟).

أهمهِمُ لنفسي: "هي الطاقة إنْ تركتها تتسرب إلى الخارج، دعْ روحَك تقودك، واغفلْ -عمدًا- كلّ ما مِن شأنه أن يعيقك، ثم أغمِضْ عينيك، ثم تنفسْ بعمق، ثم ابتسِمْ، ولتَرَ ابتسامتَك ببصيرتك، آنئِذٍ قَد تِرى ابتسامة روحك، وهي تنطلق لتستكشف خبايا الكون، وتسجّل التفاصيلَ الغيبية، وتتوحّد والطبيعة، وربما صرتَ ورقةَ شجر، أو حمامةً بيضاء، أو فراشةً بألوان قزح، فقط استخرِجْ مِن داخلك تلك الطاقة، واضربْ بها مادية هذي الحياة، وكُن خارقًا، كُن أداةً هذا الكون لتحقيق غايته الكبرى، ولولا غاية الكون ما كنتَ، وما طمحتَ، وما ربحتَ شِبرًا على أرض الخيال، فقط افعلْ ما بدا لك روحانيًا، ثم استخدِمْ يدَك، ستقودك حتمًا".

يشجّعني حماسي، والهواءُ خارج الصومعة يزوم، يتفصّد

ذهني عن أحقيّة المعاني بالتدوين، ولو في متن الذاكرة:

(وفي كلّ شروقٍ للشمس، كنتُ أصطحبه على ذراعي ونجلس نتحدّث أنا وهو وأُمّه الأمواج، قد تشاركنا الرياحُ الحديثَ، وقد تشاركنا أسماكٌ ملونة، تَخرج مِن البحر، وتلجأ لدفء الشمس، صراخُ الولدِ يَنثر على تفاصيل الحياة حياة، ويضفي فوق ملامح اليوم بصمتي، كنتُ أقول لأمّه: ما أجمَلَه! فترقص فرحًا وتهرول نحو أبيها، تفيض بهجةً لمجيئه إلى حياتنا الممتدّة منذ سنوات جافة بلا تعرجات، فتُغرق بهجتُها ملابسَنا وأضحَك، أحمِل ولدَنا وندخل عالمها، وأحاول مجدّدًا وأنا أحمله على كتفي بلوغ الجنّة البعيدة، غيرَ أنّه، وفي نصف المشقة، يلوّح لي، يتركني ويعود ممسكًا ضفائر أمّه المتموّجة كأنّه يغيظني، فأبتسِم وأعود أنا الآخر حيث أشعر إلّا جدوى مِن بلوغ الجنّة وحيدًا).

(أتأمّله وهو نائم، كان له ملمس جسدِ أمّه الشفاف الرائق، يتنفس الريحَ كما تتنفسها، ويضرب بذراعيه جدرانَ الصومعة كما تضرب هي جدرانَ الشط، ولدي "بحر" يستطيل يومًا بعد يوم، أرى استطالتَه بعينَيّ وهو نائم، تسرح قدماه صوبَ آخر حدود الصومعة، تتماس وأحلامي، وكنتُ أحذِّره مِن مرافقة جَدّه لشطوط بعيدة، إنّما كان يضرب بنصائحي عرض الصومعة ويمتطي صهوةَ الوقت وراء جَدّه ويختفي بالأعوام، في هذه الأثناء، أتحيّن أيّة فرصةٍ للشجار مع أُمّه فتقول لي: اتركْه لجَدّه يشتد عودُه، فأنهرها صائحًا: أخاف عليه مِن جَدّه، قد ينساه على شط، تبتسم ابتسامة صافية وتتمتم: عيب عليك).

(وأزرَع جسدي في الرمال انتظارًا له، أقضم أظافر ذهني مِن القلق والتوتر، تصطفّ جواري عرائسُ الليل القاتمة مواسيةً، تقضي العتمة معي، وتفارقني في الصباح، رغم غيرة أُمّه منهن، التي تحوطني عند شروق الشمس لتطمئنني، لكنّني أنتظر، وأنتظر، يعود والفرحةُ تستولي عليه، ويحكي لي عن عالم آخر ذهبا وجَدّه إليه، عالم لم أزُره، يحكي عن النساء اللواتي يَجُبن شطّهنّ عارياتٍ ويتسلّقن به أشجارا تصل إلى بوابة السماء، يقول: تصوّرْ يا أبي، نِصفهنّ زوجاتُ جَدّي، والأخريات بناتُه. تتألق عيناه مِن نشوة المغامرة وتزداد الزرقاء زرقة والخضراء اخضرارًا، فيجيئني وقت، أسحَب أُمّه داخل الصومعة، ونجيش معًا، نتلاقى مشاعرنا، أرفع رأسي لأعلى داعيًا الله أن يأتيني بولدٍ آخر، بَعث جديد، يشبهني، يشبه الابنَ القابع في الذاكرة، لا يشبه الأمَّ الجديدةَ ولا الجَد، تهتزّ الصومعة، يفيض إحساسنا ويرفع صومعتي إلى السماء، لمّا ينصرف عنّي ولدي، يحمل بين ذراعيه كلّ إخوته مِن الأمواج، ويسحب داخله رمالَ الشط، ويكتنز داخل عينيه زرقة كلّ أجداده وخضار العالم، ويعدو نحو الجنّة، يعدو، ليس مكترثًا بقلقي، تتبعه الأسماكُ والعرائس والأمواج، ولا يعود، فلا أعلم هل وصل إليها؟ إذ أخرجُ أمارس انتظاري المحتّم، وتمرّ السنوات، وأنا رهين الانتظار، أتأمّل تفاصيل الحياة حولي، كنتُ وحيدًا، أشعر إلّا أمل في رجوع ولدي، ولدي الذي خاض المغامرةَ وصولًا للجنّة، لكنّ أُمّه وجَدّه رحلا، رحلا منذ زمن، وتركاني وحدي على الشط، والحياة حولي قاحلة.. بائسة.. قبيحة).

(6)

"والرحلة دائرة، والدائرة لا تنتهي، فاجتذِبْ كلّ المعاني وتأمّلْ يا "مسعود"، تأمّل لا غير".

ليس هكذا يكون اليأس، إنّ السنواتِ تمضي، بلا رجعة، وإنّي أعيش ها هنا في المساحة بين حدَّيْ الوهم والأمل، كَم عامًا مرّوا منذ ألقتني العاصفة لهذا الشطّ؟ الصومعة مليئة بالوجوه التي اصطنعتها ذاكرتي، كلّها تُشبه وجه "طلحة" صديقي السوداني، وكلّها وجوهٌ مكرّرة لـ"طلحة"، ابني الذي يسكن في الخيال، وجوهٌ مرسومة فوق جِلدِ سمك، وفوق صخر، وفي قلبي، أيّ الأزمنة استدعتني لأعيش هنا؟ أيّ الأمنيات قد تتحقق؟ وحيدًا أعيش، وحيدًا سوف أكون دومًا، ووحيدًا سوف أموت.

"كُن متّصلًا بسرّ الوجود، تغنَمْ، كُن ساريًا سريانَ روحٍ لا تعرف للبحر حدودًا، ولا للبرّ"

هذا البحرُ لا شطّ عليه إلّا شطّي، طالما وقفتُ متفرّسًا في عتمة المدى، مجرّد موج يزيح موجًا نحو البعيد، حيث لا يصل بصري، وحيث لا يوجد شطّ أراه، أللمأساة تصوير أكثر عبقرية! كَم عامًا مرّوا يا "مسعود"؟ وكَم مِن الجنون اقترفتَ؟ إلى أيّ مدى نزع ذهنك؟ تتدرّج العقبات لحدّ المستحيل، ويبيت الأمل -مع مرور السنين- أضحوكة، بالأمس كنّا يا "طلحة" نراقب النجومَ التي تتهاوى نحو صدر الماء، وبالأمس كانت فلسفتك تجديفا لا يوائم روحي،

بالأمس غاب كلّ شيء، وظلّتْ روحي ممدّدة تستشرف الأمل، الآن ليس مِن أمل، أيّ إحصاء للسنين! أيّ مواكبة لمرورها! تعاستي نفس تعاستك قديمًا يا صديقي، أنت فقدتَ حبيبة، وأنا فقدتُ عمري هدرًا، قريتي في "مصر كادت تغيب عن ذهني، ملامحها شاخت، ورسالتي رسالة ضريرة، يا الله، أيّ الرسائل حمّلتني!

" وبعد...

هي رسالة إليّ، أو إلى الآخر الذي يسكن حشايا الغيب، والذي أمعن في تسلّطه عليّ، وغالى في أحكامه حدّ المقصلة، وشرّد براءة السنوات الأولى في عمر المحكوم عليه جزافًا. هي رسالة لن تصل، وربما لن تُذكر إلّا في حالة كهذه، هي رسالة -في مجمل الأمر- جاءت بشكل عرضي.

وبعد..".

يا الله، لا يوجد "بعد" في هذا المنفى، يوجد حطام الرجل الذي أوشك أن ينسى ملامحَ ماضيه تمامًا.

تمدّدتُ على الرمال، صار تمدّدي عادةً كئيبة، فقط لأعبر ببصري حاجزَ السماء، وأحاول استبصارَ أيّ أمل، وفي السماء ملامحُ ولدي، نَعم لي ولد في غيابة المستقبل، ولدٌ سأسمّيه "طلحة"، ولدٌ سيأتي ولو بعد حين.

"ولدي "طلحة": أليس لك مِن يدٍ تنتشلني مِن هذا المكان! أليس لك مِن صوتٍ يستدعيني لأمثل لك!"

الموجُ يخربش بطنَ قدميّ، والليل يشفق عليّ، يُسرع

بالمجيء كي لا يتركني لعبث النهار، المناجاةُ مستحبّة يا أيّها الليل، تراني في حكمة ناسكٍ، وتعبّد زاهدٍ، وتلاوة مسحورٍ، وفصاحة مأزوم، لكنّك أبدًا لن ترى عبثَ حيلتي، وهوانَ عزمي، لن ترى بكائي الذي يتخالط والبحر كلّ مساء، ترى الطير معنى لحريّتي، والخيل رمزًا لانفلاتي، ترى كلّ ذي حاجةٍ مستأسدا، وأنا حاجتي لا قضاء لها.

أرفع رأسي والدمعُ غيم:

مولاي أطلِقْني وجيبًا دبّ في أصداء المعاني، مولاي عقِّمْني مِن ضلالي، وارمحْ بي ريحًا عبقريةَ العصف. حيّ يا مَن تسكن الغيب، حيّ يا بعيد جدلًا، يا قريب، حيّ يا إلهَ الصغائر والكبائر، حيّ بالحاء حملني رسالتي، وبالياء يسّر لي طالما استوحيت مِن ملكوتك اطمئناني. حيّ، في ظلمة البحر، وفي خواء التفكّر، حيّ في بلائي، وفي كأسِ نبيذٍ معتّق في صندوق ملائكي. إذًا حيّ، للقيامة، ونقطة البدء، حيّ، للسامر، والمقامر، والملغّز، حيّ. فالبدء أنا، والحيّ حيّ بامتثالي، ولامتثالي.

يهبط صدري لحوافِ الروح، ويعلو أرقًا لا يتبدّد، وجواري ثمّة حركةٌ طفيفة فوق الرمل، ألتفِتُ، أحاول بعينَيّ رصدَ هذه الحركة، لكنّ القمر ضوؤه متناثر على مدّ البحر، ولا يطالني منه إلّا ما شحّ. أعتدِل، أرمق أكثر، ثَمَّ عينانِ تلمعان في وسط العتمة، أفزع قليلًا، لكنّي أعود لأحدّق في العينين، كان ثعبانًا صغيرًا ينبش في الرمل التواءً، كان يقترب منّي، وكنتُ مندهشًا، لو بِكَ لدغةٌ فاسرِعْ وافعلْهَا، ربما

أرْسَلك لي اللهُ لتُنهي عذابي. الثعبانُ يتأمّلني، وأتأمّله، ثم يتعرّج ليزحف فوق ظهر كفّي، فيقشعّر جسدي كلّه، إنّما أتركه ليستكمل رحلته مع جسدي، يزحف الثعبان، وأنتظِر، يتمهّل وهو يجوب خلايا ذراعي، شعرتُ بأنّ شَعر جسدي كلّه قد وقَف، لكنّي صبرتُ، حتى استكان الثعبان تحت دفء ذراعي، وبدا أنّه اطمأن لي.

كان الثعبان ينمو يومًا بعد يوم، ويتطاول. صاحَبَني، أناوله الفُتات افتراضًا منّي أنّه في حاجة للطعام، وأدركتُ أنّ الأسماكَ طعامه، فشارَكَني في طعامي، ولم تعُد الأيّامُ ثقيلةً كعهدي بها، الآن بات لي سميرٌ في وحدتي، سميرٌ لئيم، لكنّه وفيّ لي.

لا أعرف عن عادات وطبائع الثعابين شيئًا، لكنّ الذي تعلّمتُه مِن صاحبي هو الحكمة والصبر، إنّ صاحبي يحترف الاختباء، ويُتقِن المراوغةَ والدهاء، ودائم الحيلة، وفي ذات الوقت يشاركني حياتي المعلّقة كصاحبٍ مخلِص أيّما إخلاص، كبُر أمام عيني، رغم أنّي لا أعرفُ الكِبَر، وكان يفترش مضجعي جواري، وينام.

الشمسُ ساطعة كوجه رضيع، والصبح يتثاءب، فأتثاءب معه، وكذا يفعل صاحبي، خرجتُ مِن صومعتي، مستنشقًا الهواءَ القادم مِن ناحية المجهول، مادًّا رأسي صوبَ الأفق، علّي أظفر ببعض الأمل، ولكنّ الموجَ كان يلطم الشطّ في صوت مكتوم، نزلتُ ببصري، ثم تقهقرتُ للوراء، وكِدتُ أَسقط على ظهري، ورحتُ بعينين متّسعتين أنظر نحو

حافّـة الشـطّ...

كان جسـدًا مرميًـا هنـاك، لـم تكـن بـه حيـاة، لزرقـة الوجـه وقضـم الأسـماك للملامـح، لـم تكـن بـه حيـاة، وكانـت بـه -رغـم ذلـك- دهشـةٌ كبـيرة، هـو يشـبهني أو يـكاد، هـو أنـا لكـن بعـد عقـودٍ مـن الزمـن، كأنّي أعايـن نفـسي، بـدا أنّـه الـسرّ الـذي مكتـوب عـليّ أن ألاقيـه كلّمـا اسـتراح قلـبي قليـلًا.

الفصل
الأول

(مسعود)

(أقسمتُ عليك يا ساكنَ هذا المكان، حية أو عقربًا أو ثعبانًا، تجيئني طائرًا بأمر الرحمن، تخالف تموت، بإذن الحي الذي لا يموت).

عثمان

(1)

- هه يا "عثمان"، أكمِل يا أخي.

- إنّ أوراقَ جَـدّي "مسـعود" فُقـدِتْ، لكـنّي الوحيـد الـذي جَمَـع الحكايـة مِـن جَـدّ لجَـد.

ومـدّد "عثمـان" سـاقيه، ثـم جـرع كأسًـا كبـيرةً مِـن الجعـة، وقـال:

- تَعرفـون مـا حـلّ بـأوراق جَـدّي "مسـعود"! إنّـه العجـب العجـاب، تخيّلـوا مزَّقَهـا وأضرم فيهـا النـيرانَ ثـم صلّى عليهـا، فلمّـا سـأله جَـدّي "طلحـة" قـال: اسمعْ يـا بُـني، هـذه رحلـتي منـذ نشـأت وحـتى اسـتقرت، الآنَ لسـتُ في حاجـة إليهـا، أنـت يـا بُـني رحلـتي ومآلُهـا جميعـه، أنـت الحكمـة يـا "طلحـة"، لقـد رأيتُـك قبْـل أن تكـون، ورحلـتي كانـت كلّهـا لأجلـك، كي أحافـظَ عـلى مـا قَـد تبـدّده يـدُ الخلَـف.

وسـكتَ "عثمـان" قليـلًا، واعتـدَل، وتقلّـبَ، واسـتراح، ثـم اتّـكأ عـلى مسـندٍ وقـال:

الجـد "مسـعود" الأكـبر كان جميـلًا، مريحًـا، لـه جاذبيـةُ ساحرٍ وصفـاتُ نـبي، قـدمَ مِـن بـلاد "المغـرب" بعلمِـه وعهـدِه الـذي آلَ لـه عـلى يـد شيخٍ كبيرٍ مِـن شـيوخ "الجوّالـة" هنـاك،

سكَنَ القريةَ وتزّوج إحدى نساءِ القُرى المجاورة، ثم تزوج أخرى فأخرى، وترعرعتْ سلالتُه كثيرة العدد في كنف القرية إلى أن سُمّيتِ القرية باسمه بعد أن اختلطت سلالته بأهل القرية القلائل، كان متواضعًا شفّافَ الفؤاد، ضليعًا في علوم القرآن، فقيهًا، له نور يشع مِن الوجه، نور غريب، حتّى إنّ البعضَ قالوا يضع يدَه على بطن الصغير الذي يبكي فيبتسم، يضع راحتَه على رأس رجلٍ فيقرأ ذنوبَه كلّها، قالوا إنّ حريمَه تتجدّد عذريتُهن مع كلّ لَقاء، إنّ الترابَ يستحيل بين يديه إلى تَمر، قالوا إنّه قد صام عن الطعام والشراب خمسَ سنين لمّا مات صديقه المقرّب ثعبان الماء، هو الذي استقبله حين هبط إلى القرية، أول وجهٍ قابله في القرية وجه صاحبه الثعبان، وثَب خارج الترعة إلى حضنه كأنّ أُلفةً أزلية بينهما.

- والجثّة يا "عثمان"؟

أيّ جثّة!

"عثمان" نفَدَ صبرنا..

آه.. الجثّة.. لكنّي سوف أترككم الآن، لي كأسُ سأنهيها ثم نستكمل الحكاية.

واللهِ شكلها حكاية مِن خيالك.

فقام "عثمان"، ضرب الرجلَ بسنّ حذائه، ثم جلس، واحتسى كأسًا أخرى، وتجشّأ، ثم قال:

- حكاية جَدّي "مسعود" الثاني لا تقِلّ أهميةً عن حكاية

"مسـعود" الجَـدّ يـا بغـل.

- لتكن حكاية "مسعود" الثاني إذًا.. الليلُ في أولّه يا "عثمان"

- حَسَـنًا.. والـذي جاءنـا عـن "مسـعود" الثـاني، فهـو في الأصـل عـن أبي "جابـر" ابـن "مسـعود" الثـاني" ابـن "نعمـان" ابـن "طلحة" ابن "مسـعود" الأول.

جابر

(2)

الشمسُ تتجاهل سائر تفاصيلِ المشهد مِن حوله، وتلازم قامتَه المهيبة، يتقدمه ظلُّه على الطريق الترابي المُفضي إلى بيت الحاجة "منيرة"، يبدو له على البعد الترابُ سرابًا متراقصًا مِن شدة القيظ، ينقشع رويدًا فيما يدنو منه وفيما تدك خطواتُه الراسخة جسدَ الطريق، فينفرد له الجسد محتضنًا خطواتِه، أصوات الأورال -التي تخمش داخل الحَلفاء الساكن هذا النهار- تصاحِبه بطول مسيره. رغم الحَر الموشك على غلي ماء الترعة، غيرَ أنه يحيط جسدَه بعباءةٍ سوداءَ مِن الصوف، أسفلَها جلبابٌ مِن الصوف كذلك، يلف معظمَ بدَنِه، تبرز مِن تحته "تقشيطة" بيضاءُ ناصعة، كأنفٍ بلون القشدة، فبدا لا يكترث لحَر الدنيا، أو بدا أنّه يزهد بشكل ما تَرَف الإحساس بشيء مِن تهوية. تطرق قدماه صلابةَ الأرض، فيكاد يسمع صوتها مجلجلًا بالمهابة والكبرياء. يبلغ بيتَ الحاجة. يقف قليلًا يتلوى بمنكبيه يعدّل انسدالَ العباءةِ على كتفيه ثم ينقر نقرًا خافتًا على باب بيت الحاجة الذي يصل أعلاه بالكاد إلى منتصف صدره، وهو يتنهّد. ينتظر قليلًا، وموجةُ الصهدِ تتلقّف رأسَه إلى سنوات مضت، فيبتسم، ويتذكر صورةَ الولد الذي يتأرجح على الجَمَل خلف أبيه، وكثبان الرمال المتناثرة حولهما تبدو له لا تنتهي في هذا الخلاء، تنبثق متتاليةً فيما يخوض الجَمَل بداخلها، والخلاء صحراءُ وأراضٍ مجهولة، يطؤها الأبُ نبشًا عن الثعابين، يتذكّر رياحًا

خفيفة، رياح فصل الخريف الخجلى، تنثر أمام أعينهم نُدَفًا بيضاءَ كالثلج، تختلسها مِن تلال الرمال، وتداعب بها ثبات نظراتهم، فيطرف الولد بعينه ويزيح مِن فوق حاجبيه الكثيفين ذرّاتِ الغبار الملتصقة.

في هذه السن، لم يكن يَعرف الحكمةَ مِن تصميم أبيه امتهانَ هذا العملِ الشاق الذي يدفعه لاقتحام الأماكن البعيدة بحثًا عن الحيّات والثعابين، إنّما لعله يفطِن أنّ الأبَ كان يغويه حتمًا الترحالَ ويهوى اندماجَه بهذا العالم الغريب، عالم الخرافة، الذي لا يعتقد فيه، لعلّه أيضًا إرثُ الأبِ مِن الجدود، هو هذا الإرث البعيد الذي يستحيل التفريط فيه، كان يسأل أباه:

- ألا تخاف؟

فيضحك الأب ضحكًا عاليًا متواصلًا، يربّت كتفَه ويقول:

الخوف يا ولدي صفة لا يتّصِف بها الرجال.

أنا أخاف.

- أنت لم تصبح رَجلًا بعد.

في الواقع، "جابر" لم يكن يخاف، قَدْرَ ما كان بدنه يقشّعر عند ملامسة هذه الكائنات، كائنات ملساء ناعمة، يشعر معها بانقباض، يشعر بلؤمها ومكرها، يشعر تمامًا أنّه مهما حاول مصاحبتَها والتقرّبَ إليها فلا أمان لها، بعد أنّ بخّ ثعبان السم في عينه، آنذاك، كان "جابر صغيرًا، وكان يلعب بأحد الثعابين، وفجأة، باغتَه الثعبانُ ببخّة

داخل عينه مباشرة، داواها أبوه بغسلها بماء النهر قبل مرور ربع ساعة، وإلّا فَقَد بصرَه أبدًا، علَّمَه أبوه أن يعرف كذلك أنّ نزع السم منها مجرّد خدعة كبرى، فالنوع السام يظلّ سامًّا لكنَّ الآخرين لا يعرفون هذه الحقيقة، بل لا يجوز بالأساس إفشاءُ أيّةِ أسرارٍ تتعلق بجماعتهم. الآخرون لا يعرفون عن جماعة "الجوّالة"، اللهمَّ غير لقاءٍ على باب يطرقه "الجوّال" تطهيرًا للبيت، الناسُ يصدّقون كلامَه بأنّ البيت فيه لعنة الخطر، كما يفترضون تمامًا في هذا الواقف أمامهم الأمانةَ والمقدرة على فهم الأمور التي لا يفهمون، فيفتحون له، ويتركونه يعبث في أرجاء البيت بحثًا عن ضالّته السامة التي جاءه نداؤها مِن ملكوتٍ بعيد، تطلع الأفعى، ويطلع معها ما فيه النصيب، فيأخذه "الجوّال" راضيًا، ويَخرج تزفّه دعواتُ أهلِ البيت.

بعض "الجوّالة" يفعلون هذا، أمّا أبوه فلم يتدنَّ مطلَقًا لكسب الرزق، رزقه كان يأتيه وهو معزَّز مكرّم جالس في بيته، إذ يجيئه المرّوعون مِن النواحي المجاورة طالبين النجدة والحماية مِن ثعبان ماكر يطوف منازلَهم، أو حيّةٍ مخيفةٍ تَخرج تشمّم وتعود لجُحرها، فيرحل معهم ويعود لهم متباهيًا يحمل جيبه بعض النقود، أو كان أحيانًا يرحل مع قافلة الموالد التي تجوب قُرَى الصعيد ليلعب ألعابًا ساذجة مع الأفاعي أمام المتفرجين.

إنّها الحاجَة، وما أشدّها! فأبوه كان يمتهن أحيانًا عملَ الحاوي، البعيد عن حرفة "الجوّالة"، لكسب الرزق، حتى باتت له شهرةٌ بين أصحاب القوافل، فكان يسافر معهم،

وأحيانًا يأخذه معه، تستغرق الرحلة أيامًا، يرجع بعدَها، ثم يذهب للصحارى القريبةِ والأراضي الزراعية التي تسكنها الحيّات، يضرب بهدى معلوم بحثًا عنها، في شتى الأماكن التي تستوطنها، قد يشّق عليه إيجادُها خصوصًا في الشتاء، شتاء يتقلّص فيه خروجها ونشاطها، كما تتقلّص فيه رحلاتُه إلى الصحراء والخلاء.

كان أبوه يقول:

غواية "الجوّال" يا ولدي أنّ تسحبَه الدروبُ الماكرات لجوفها، وتشتهي الصحراءُ غرسَ أقدامه برمالها، فيضيق ذَرعًا بالبَشر، ويضرب عرضا وطولًا وحدَه، العمر به يمضي وتنصرم السنون، غواية "الجوّال" يا ولدي أنّه، وحيدٌ لا يسأم الترحال قط، وهذه غوايتي.

* * *

ريحٌ خفيفة تداعِب ذاكرتَه إذ ينفرج الباب فتتبعثر الذكريات وتتلاشى، في ثوانٍ انفتح البابُ وفي ثوانٍ حضرت ذكرياتُه وغابت، انفتح عن نافورة مِن رجال ونساء تتفجر، جميعهم يتزاحمون حول مدخل الباب تاركين مسافةً لعبوره.

بسم الله.

تفضّل يا مولانا.

رجالٌ يُشكلون حوله نصفَ دائرة، إشارة لدخوله غرفة بعينها، ملاصقة للجانب الأيسر مِن فتحة باب البيت، بصرُه يسقط أرضًا وهو يتنحنح ثم يُلقي السلام عليهم

ويَدخل الغرفة، على بابها تتكدّس النسوة تحمل أعينهن ملامحَ الترّقبِ الممتزج بالقلق، وفتاةٌ ممدّدة على أولى كنبات الغرفة، فتاةٌ يغطيها العَرَق، تتمكن مِن جسدها ارتعاشةٌ لا إرادية، وذراعها تتدلى خارج حدود الكنبة، زرقاء اللون، دَنَا منها، أمسَك الذراعَ ثم رفعها لأعلى وأغمض عينيه، تلا آياتٍ مِن القرآن بسرعة، وأراح الذراع جوار الجسد، تملّى لدقائق في الفتاة المتقلّصة، وتناول كوبَ الشاي الموضوع قبالتَه والمؤطرَ بنقوش مذهبة، في البداية راح يرتعش بين أنامله وهو يتأمّل الفتاة، ودخانه الذي سريعًا ما يتبدّد بين دوائر الغبار التي تخلقها أتربة الطريق غير الممهد -المفتوحة عليه غرفة الضيافة- يحف أنفه ووجهه، فتلفحه سخونةٌ بها ألفة ما، يدور الغبار قليلًا أمام عينيه شبه الغائمتين، يرشف رشفةً على مهل، لا ينصرف بصره عن الممدّدة أمامَه، تتلوى وهي تئِن، ينفرج فمُه عن تلاوات مَرّة ثانية، يقبض بأصابعه على لحم الذراع التي كست معظمَها زرقةٌ شاحبة، ثم يجعل يخبط فوق الذراع خبطاتٍ متتالية لا عنف فيها ولا قوة، فقط خبطات كشفتْ له موضعَ قرصةِ العقرب تحديدًا، فأخرَج موسا، بعد أن أحكَمَ قبضتَه أعلى مكان القرصة، شقّ به العِرق النافر مِن الذراع، الذي بثَقَ دمًا أسودَ اللون، لثوانٍ أغمَضَ عينيه، بدا جسده كتمثال حطب، وكأنّ أنفاسَه قد سكنت، في لحظةٍ أخرى فتح عينيه يتنهّد بعمق، ما بين اللحظتين سكونٌ كأنّه يختزل به هواءَ الغرفة بأكمله في رئتيه ليدفعه مرّة ثانية بمثل هذا الارتياح، ما بين اللحظتين - ويده متشبثة بمرفقها والدم الأسود

ينسال خارج الجرح- كانت ملامحها قد أخذت تتمطّى في رأسه، وكعدسةِ كاميرا كان قد التقطَ هذه الملامح في لمحة خاطفة وهي مُسَجّاة قبالتَه فاختزنَها، وها هو يتمعّن فيها داخل خياله، أسبلَ جفنيه وجاس فيها بخيالٍ هادئ وزمنٍ متمَاهٍ، في فضاء عقله كانت تبتسم الآن، ابتسامة مشرقة إشراق الحياة بعينها، ثم وكأنّه استفاق بَغتة، عاد بثغرٍ يرتجف نحو ذراعها، كان الدم الأسود يتقاطر كزخّات مطر، راح يشفطه شفطاتٍ خاطفةً ويبصقه جانبًا، بعد قليل تبدّل اللون الأسود في فمه إلى الأحمر القاني، هدأت انتفاضة الجسد، وهدأ شفطه، سَحَب مِن جرابه المعلّق فوق كتفه عُشبةً حمراءَ اللون، بلّلها بالماء، ووضعها على جرح الموس، التفتَ إلى الجمع الغفير الذي يقبض على أنفاسه في انتظار كلمته مبتسمًا، وقال:

- الحمد لله.

فانطلقت زغاريدُ النساء ترجرِج جنباتِ البيت، وتحرّكت أهداب الفتاة، همهمتْ، تأوهتْ، ثم ازدردتْ لعابَها واعتدلتْ بوهَن.

قال "جابر":

- دقائق وسيزول الخطر تمامًا يا ست الكلّ.

قال أبوها:

- اسمها "خديجة"، "خديجة" يا مولانا.

جاست "جابر" الجالسَ أسفل منها بعينيها شبه

مستفهمة، لكنّه طمأنَها بنظرةٍ هادئة ونهض، فتكاتل بعض الرجال يعاتبونه، قال أبوها:

الغداء جاهز.

- بارك الله فيكم.

- عيب يا مولانا.

- تسلم يا عم "عبد الحارس"

غيرَ أنّ "جابر" أصرّ على الذهاب، لم يكن يقبَل بأيّة حال أن يجلس على موائد بيوت ناس القُرى، لا يَعرف هل يخشى أن يُتهم بالتدني كبعض "الجوّالة" الذين يجوبون الموائدَ في كلّ الأنحاء بحثًا عن الزَفر؟ أم أنّه طبْعٌ تطبَّعَ عليه مِن أبيه؟

بلغَ قرية "الجوّالة"، قرية صغيرة في جانب مهمل مِن صعيد البلاد، يقطع بينها وبين عمار القُرَى الأخرى ترعةٌ طويلة عريضة، ويصل بينهما كوبري صغير، جذوع نخلٍ تمدّدت فيما بين طرفَي الترعة، يعبرونها مشيًا أو على دابة، إنّما الجرارات التي كانت تنقل القصب والمؤن من خارج القرية بداخلها، تنتظر الناحية الأخرى حتى يقوم أهل القرية بتحميل ما عليها ثم تغادر قبْل مغيب الشمس.

الناس يخافون دخول القرية، يَعرفون عنها الرهبةَ والخصوصية الشديدة، ففي أنحائها تُسمَع القعقعة والفحيح، بل يكاد ينطق اسم الجد [illegible] في ثنايا الفحيح، "مسعود": أول الأجداد الذين أخذوا عهدَ "الجوّالة" ثم

تناسلت الأجيال المشتغلة بهذه المهنة وعمّروا القرية، قرية سكنها معهم الكوبرا والمقرنة والقرعة والكذّابة والبخاع وأبو السيود والأرقم والبرجيل والكسبة، كلّها أنواع مِن الثعابين تآلفتْ ونسل "مسعود"، الذي سيّسها جيلًا وراء جيل، وولدًا يليه حفيد، أنواع مِن الثعابين يحملها الأطفالُ حول رقابهم وعلى أكتافهم يلهون بها في شوارع القرية، التي تناثرت فيها مئاتٌ مِن جحور تسكنها الزواحف.

وفي القرية نسل "مسعود" طبقات، كلّهم أقارب، غيرَ أنّ منهم مَن تخصّص في تصدير الزواحف، قد مكنّه مِن هذا النوع مِن الشغل حظّه بوقوعه على منطقة وافرة بالزواحف، أو رأس مال موروث، كذلك منهم مَن يعمل باللف على البيوت وإخراج ثعابينها وهو أقل "الجوّالة" شأنًا، إذ يُعَد بينهم مثل الشحّاذ، حتى إنّ هؤلاء يسكنون في ناحية مِن القرية عند آخر حدودها، حيث فرضت طريقة تناولهم لطقوس "الجوّالة" عُزلةً عليهم، يندر التعامل بينهم وبين أقاربهم الآخرين، كما أنّ منهم عائلة "نعمان" أحد أحفاد "مسعود"، الذين يعملون في الموالد والتطبيب، كان "نعمان" له أربعة أبناء مِن زوجتيْن، سلو عائلة "مسعود" أن يتزوج الرجلُ امرأتيْن او أكثر حتى لا تتقرض أحيال الصيد، لكنّ الوحيد الذي كسر شريعة العائلة ولم ينهج نهجَهم ابوه "مسعود ابن نعمان" كان يحب صفية" زوجتَه حبا جمًّا، أنجب منها "جابر" ولدا وحيدا عوّضه عن الدنيا وما فيها، وأغناه عن بريق الدنيا، لأجل هذا الولد رفض السفرَ إلى "أوروبا" مع حواجب صديق، فهو يحب الولدَ ويحب أمّه

ويحب حياتَه معهما، عارَضَه الجميع في العائلة، له ابنُ عمٍ فوقي ممن يصدّرون الزواحفَ للخارج اسمه "عبّود"، تحايل عليه، وساق له كلّ أبناءِ عمّه الأشقاء وغير الأشقاء، كانت حُجته أنّه سوف يروّج للعمل في "أوروبا"، يفيد ويستفيد، لكن "مسعود" أبَى بإصرار، كان عنيدًا، وثابتَ الرأي، إنما "عبّود" في جلسة عرب قام وشَخَر لـ"مسعود":

- واللهِ جننت! أنت رجل أهبل، مَن يضيّع فرصة كهذه؟

"مسعود" ردّ بهدوء:

أنا.

حرام عليك.. والله لولا أنّ أولادي كلّهم على سفر لأرسلتُ واحدًا منهم في هذه الرحلة.

أنا راضٍ بالعيشة والحمدُ لله مستورة.

- راضٍ بالبيت الطين الذي تعيش فيه؟

- الحمد لله.

و"عبّود" لم يهدأ، أقنَعَ جوّالًا آخر مِن العائلة أن يسافر إلى "أوروبا"، يفتح سوقًا جديدة لتجارة الزواحف هناك، والرزق يعُم على القرية كلّها، وبعد أن تهيّأ "عوض" للسفر، وأعدّ عدته، رفض "الخواجا":

- "مسعود" صديقي، ولن أقبَل رَجلًا سواه.

وقامت القرية على "مسعود"، توبيخًا وتأنيبًا ونهرًا، ولم يفلح أحدٌ في إقناعه، كان يدرك أنّ "جابر لم يزل صغيرًا

وليس له غيره في القرية التي يسعى فيها كلّ رجال العائلة إلى مصالحهم الشخصية، أولُهم "عبّود"، كان انتهازيًا، يُدرك غاياتِه بجميع السبل، الخاطئ منها والصائب، أصبحت المهنةُ إليه مجرّد تجارةٍ تدرُ عليه دخلًا وفيرًا، مع مرور الوقت، نسي أصولَ المهنة، ولم يجدّد العهد، لكنّه لم يكترث، لا يخرج لصيد الزواحف، فله فريق مِن فقراء القرية يَخرجون يصيدون له أنواعَ الزواحف المختلفة فيشتريها منهم بثمن بخس ويصدرّها للخارج بمبالغَ قَد تصل إلى خمسمائة جنيه للواحد، يصدّر أنواعًا متعدّدة من الزواحف، "السحالي" و"السلاحف" وجميع أنواع "الثعابين"، كما كان أحيانًا يتاجر في ثعالب الفنك والضفادع والغزلان والذئاب والصقور، هذه باهظة الثمن، لها فريق آخر يخرج لصيدها ليلًا على عكس الزواحف التي يصطادونها نهارًا، تَخرج رحلاتٌ في مواعيدَ متقطّعةٍ مِن الشهر لصيد الحيوانات الكبيرة، خرج "عبّود" مرّة في رحلة منهم ، نصبوا فخًّا لذئب، فوقَع فيه، فتجمّع حولهم أكثر مِن عشرة ذئاب، حاصروهم لساعتين متواصلتين، أشعلوا نارًا حتى خروج النور، ولكن الذئاب ظلت في الجوار مختبئةً وراء كثبانٍ مِن الرمال تتربّص بهم وتنتظر أن ينكسر شعاع الشمس فينقضّون عليهم ، اضطروا في النهاية أن يضربوا الذئبَ الساقط في الفخ، راح يعوى ويتوجّع، خافتْ بقية الذئاب وفرّت هاربة، مِن يومها قرّر "عبّود" ألا يخرج في رحلة صيد مرّة أخرى.

(3)

أنا "جابر"

مِن هؤلاء، "الجوّالة"، أعيشُ في قريةٍ هي الأرض كلّها، وقريتنا في الغالب تخلو مِن المعجزات، لا تدخلها معجزةٌ كما لا تَخرج منها معجزة، ليس لجهل بأيّ معجزة في الخارج هنالك أو حتى عجز المقدرة عن اختلاق المعجزات، بل لأنّنا بحقيقة الأمر -وفي غلبة ليست مفتعلة- لم نكن نعرف طريقا للمعجزات، كانت مجهولةً برمّتها، ومحجوبةً علينا، ومنقطعةً منذ عهد "مسعود" الأكبر، الذي شمل معجزات الدنيا ولم يورّثها لنا، أمّا الذي صادف للمعجزة طريقًا فهو إمّا هُلك فلم يصل لِما بعد الجنون، وإمّا تاه في دهاليز الخيال، وهُم قليلون؛ أولئك الذين عاقروا التمرّدَ على واقعنا واستأثرتْ بعقولهم غواية الاستكشاف، وهَجروا قريتنا.

وكانت الترعة مِن جانب ومِن بعدها تقوم قريتنا، ترقد في إجلال وفي رهبة، تلتفّ الترعة حول عنق القرية كما لو أنّها تدور حول نفسها وتصبّ في منبعها ذاتِه في حلقة منذ الأبد، وتطوّقنا، وكانت قريتنا تقوم على سهلٍ منبسطٍ يقال إنّه سهلٌ لجبلٍ ضخم -هو أضخم جبال الكون- يلي حدودَ البلدة، فلم تستكشِفه عينٌ عليمة ولا يبين في أفق قريب أو بعيد، فكلّ الأفق محجور بالتبعية، وكانت قريتنا باهتةَ المنظر، يلفّها في معظم الوقت ضبابٌ مغبّر، لم تكُ مترامية الأطراف وليست شاسعةً في أراضيها، بل خانقة

وفيها قبح مِن تضاريس ألِفها البَشر هنا، تتناثر داخل جوفها سلسلةٌ مِن تلال قاتمة قميئة، تقوم فيها بيوت قُدّت مِن طوبٍ نيئ خالص، يأخذ اللون الترابي الكالح، صُنع صناعة خشنة غير متقنة مدفوسة بالقشّ، تساند بعضه على بعض، وركب بعضه فوق بعض، ائتلفت منه بيوتنا التي كادت أن تستريح كذلك رءوسها على بعض، لولا اكتمال جفاف البناء، فتحجّرت في وقفتها المتكئة كأنّها استسلمت، وتركت فيما بينها دروبًا تشبه التفسّخ، لا تكاد تتّسع لعبور رَجلٍ أو اثنين على الأكثر إلّا أن يتقدّم واحدٌ على واحد لتجد قدماه موضعَهما مِن الدرب، وفي أعماق تلك الدروب، أبواب بيوتنا المنخفضة، التي لا تتمكّن قامةٌ مِن عبورها إلّا حين تنحني على انحنائها، بيوتٌ لا تكاد ترتفع إلى أكثر مِن طابق وسطحه.

وبيتنا أول البيوتِ المشرفة على ضفّة الترعة الغربية مِن درب نافذ، وهنا تكون له حظوةٌ على سائر بيوت القرية، يجلس في فنائه جَدّي "نعمان"، أكبر رجال القرية، والذي تقدّمتْ به السن، وأدرَكَه الوهَن، أذكُره أيّامَ لا يكاد بصرُه فيها يذهب إلى الأنحاء وبغير أن يقبض على كلّ تفصيلة شاردة وواردة، إلّا وأحصاها، مع أنّه لا يسمع مِن دون أن نرفع الصوتَ يسيرًا، ولا يَرى أقربَ الأشياء إلّا بتدقيق النظر وبالقليل مع ذلك من الوضوح، لكن معجزته كانت في الذاكرة، يحكي عن كلّ شيء كأنّما كان بالأمس القريب، دون أن تفلِت أدق التفاصيل مِن لسانه، وكنتُ أراه يومًا بعد يوم وهو سارح في صمت، يجلس في عمق الفناء مِن دون

أن يكترث واحدٌ في البيت لوحدته، وكأنّهم يسلّمون لقرب موعد هلاكه، مجرّد واحد سوف يطُرح من المجموع كغيره كثيرين، وباتت مغادرتُه صوبَ السماء قدرًا لا مهرب منه، فقدْ فشا البياضُ في كلّ رأسه، وتساقطت جلّ أسنانه، واستراحت التجاعيد بين ملامحه استراحة كهولةٍ مؤكّدة.

لم أكن أشفِق عليه فحسب، بقدْر ما أصابني في لحظة ذلك الهاجس مِن شعور الافتقاد المسبّق، لم أكن أدري مَن غيره سوف يحمل لنا إرثَ حكايات الجدود القدامى ويبثها في وجداننا؟ هو الذي لقّنني حكاياتِ الجَدّ "مسعود" حكايةً وراء حكاية.

في يوم، ألفيتُه مطرِقا، ويداه تعملان مِن حوله في الهواء بعشوائية وتعبثان في لا شيء وبلا اتّزان كأنّما مسّه جنونُ الفناء الذي أوشك، وعيناه تذهبان مِن حوله بلا تركيز، يأخذ قطعةً مِن قماشٍ بالٍ ويضع طرفَها بين ما تبقى مِن أسنانه ويظلّ يلويها ذات اليمين وذات الشمال في تؤدَةٍ كأنّه يمتحن متانةَ أسنانه، كأنّه يودُّ لو يُثبت أمام نفسه أنّه لا يستحق لعنة الموت بعد، ولم يهرُم كفاية كي يزورَه عزرائيل. حاولتُ أن أخالطه علّني أوّفر له بعض الأُنس والتسرية في أذيال عمره، والأسى يعتمل في قلبي ويختلج في روحي لأجله، لكنه لم يكن ليستيقن مَن أنا على وجه التحديد تلك المرّة، كانت ذاكرتُه قد بدأت تتّجه نحو خرف الهلاك المُقبِل عمّا قريب، وبدا في معظم أحواله بعدها صامتًا، تزوغ عيناه بيننا في لا مبالاة غير متعمّدة، ويبتسم ابتساماتٍ خاطفةً تنمّ عن إصابته بعطب الخرف، ثم يهش ذبابًا وهميًا،

فطنتُ أنّ عقلَه أخذ يهيّئ له ما هو دون الرؤية والحقيقة، بعد أن تيقن مِن خرفه، وكانت شفتاه تأخذان في التحرّك مغمغِمَة بألفاظٍ لم نكن لنقدر على تفسيرها، ألفاظ غامضة، متداخلة، عصيّة الفهم، كانت تدفعني للحُرقة عليه، وأنا أشعر به يحدّث نفسَه كممسوسٍ حقيقي، يصِف في بعض أوقات التركيز النادرة وفي صوت يشبه النشيجَ المرير ما كان مِن أيام خلَتْ، أيام قوته، أيام كان فؤادُه يختلج لمجرّد فكرة أنّهم السابقون وهو لاحق مِن دون ريب، يومذاك، نظَرَ في عينَيّ، وقال وهو يستمسك بذراعي:

- كيف لله أن يكون بمثل هذا الجبروت؟ جدَّي "مسعود" رأى الجنّةَ والنارَ معًا على الأرض، لقد رآنا يا ولدي قبْل أن نولد، ألا نستحق بعضَ التميز؟

أمّا أنا فكنتُ دائمًا ما أقِف قريبًا مِن لجّة مياه الترعة، تصبو عيناي نحو الأفق، أجاهد أن أجد مسلكًا للنظر فأقف بنحو محدّد على مكان الجبال المسحورة ومواقعها، والصحاري العظيمة التي يختفون بالأيّام فيها ليعودون بالزواحف المختلفة، كنتُ أرى أبي مِن حين لحين، وكان يرجع مرهَقًا مِن رحلته، أمّا أنا، فقدْ كنتُ أحمل تحفّظًا دفينًا تجاه ما يَحدث في قريتنا، لم يكن يروقني شيءٌ ممّا ارتضاه على أنفسهم آباؤنا، إذ طالما ساورَني الطموحُ أنّني يومًا قد أنشئ ما بيني وبين قدَري نوعًا مِن الألفة والوفاق، بحيث نبدأ أيّ خيار محتّم معًا، ونمضي فيه معًا، أتّفق وهو أحيانًا، ويعترينا الخصام مِن حين إلى حين، لم يكن يروقني فحيحُ الأفاعي الذي يملأ يومَ قريتِنا.

وكنتُ أتطلّع في الترعة، في أجمّة مياهِها التي تتجّه نحو مصدرها، في طرفة لم يكن ليستسيغها عقلي، وعيناي تجوسانِ قلبَ أشجار قريتنا العالية التي تشبه القبّة كغابة مظلمة، كانت كثيفة وتدنو قممها من بعضها البعض كما لو أنّها مغلقة على سرّ محظور، كنتُ أقول في نفسي: ليس مِن سرّ أعظم شأنًا مِن ائتلاف الإنس والثعبان في موطئ واحد!

(4)

- هكـذا نحـن يـا بُـني، نتطلّـع في النـار كأنّهـا فِعـلٌ شـيطاني عابـث، كأنّنـا لا نـدري أنّ اللــهَ قَـد يغضـب عـلى بَـني آدمَ فيُدخلـه الجنّـة!

كنّـا جالسـين حـول ركيـة نـار، وكان الشـتاء هـذا العـام قاسـيًا، كنّـا نسـتدفئ بالنـار والحكايـات، قلـتُ لأبي:

لكن جَدّي "نعمان" زار الجنّةَ يا أبي!

ضحك أبي، قال وعلى فمِه الابتسامة:

- لـو أنّهـا الجنّـة تلـك الـتي زارهـا جَـدّك فالحـسرة عـلى البَـشر، ربمـا النـار أكـثر رفقًـا عـلى الإنسـان مـن الجنّـة.

لم أستوعب، لكنّي قلتُ مشفِقًا على جَدّي:

- أبي.. جَدّي "نعمان" اشتدّ مرضُه، أليس مِن دواءٍ له؟

- دواؤه يـا "جابـر" عزلتُـه، هـو طَلَـب ذلـك، إنّ اللـه إذا اختلى ببـشر أذهَـبَ عقلَه.

- جَدّي يا أبي يحتاجنا.

جَدّك يا ولدي يحتاج ربّه أكثر.

وسـمعنا صـوت جـدي "نعمـان" وهـو يصيـح مِـن عمـق الـدار:

الحلـم واحـة، والواحـة تعسّـف بهـا صحـراء، والصحـرا رمـل تافِهُـه لثيـر ونـاره موطـن الخشيـه، فصُـغْ كوامـن عشـقي يـا مـولاي؛

هذي روحي في زجاجة مرمرية.

ضحك أبي وقال:

- هل سمعتَ يا "جابر"؟ جَدّك تَرك عالمَنا منذ زمن.

كانت ثعابين تفح حولنا، تستدفئ ونارنا، كان بعضها يتحسّس كُمّ جلبابِ أبي في ألفة، وقتذاك، كنتُ أخشاها، وكنتُ لا أقربها، كنتُ ألعن ذلك الإرثَ الذي حمّلَنا إيّاه "مسعود" الأكبر، وكنتُ أقول لنفسي: إنّ "مسعود" الأكبر مجرّد هالةٍ مِن وهْم، لعلّه كان سكّيرًا أو زئرَ نساء!

كان جَدّي "نعمان" لا يزال يهذي مِن الفناء:

أكاد أُجزِم أنّ الله خَلَق الإنسانَ كي يكون مَسخَرةَ بقيةِ الكائنات.

ويصفّر بفمِه صفّارة متقطّعة ثم يُكمل:

- نعم، أنا الإنسان، إذا أردتُ أن أنفلت فعلتُ، وإذا يئستُ لا أُبقي على إيمان.

عبّود

(5)

الشيطانُ في داخلنا، ونحن نعذّبه كلّما خالفْنَا تعاليمَه، ليس أعذب مِن زجاجة خمر معتّقة، ومالٍ لا يفنى، ورغبةٍ في كَنز الملذّات، إنّ الزهوَ لا يُشعرنا به إلّا المال، السعادةُ تكمن في أن تعلو فوق البشر كلّما ازددتَ ثراءً، هذه هي الحقيقة في مجمَل الأمر، ربما لذلك يحقد "الجوّالة" عليّ، ويحقد كلّ رجال البرّ، ليس مِن رَجل له نفوذي وسطوتي.

أجلس - كالعادة- أتفقد واردي وصادري، وأرتّب الآتي مِن الأعمال والرحلات، أحتسي الشايَ الأخضر، كما نصحني أحدُ أطبّاء الأعشاب كيما يقلّ وزني وأتخلّص مِن الكِرش الذي يُثقل تحرّكي.

في المساء، تزقزق عصافير أشجاري، أكثر مِن خادمٍ يلاحظ أنّ العصافيرَ عندي - وعكس طبيعتها- لا تزقزق إلّا في المساء، كلّهم يُبدون استغرابَهم، فأقول لهم:

لابدّ وإلّا تقارَن عصافيري بأيّ عصافيرَ في الناحية، أجُنِنتم! أنا "عبّود" بجلالة قدْرِه.

أحدهم مصمَص شفتيه مَرّة يضايقه حديثي، فطردته على الفور.

في "فيلتي" المقامة على عَشرة أفدنة، أعيش وحيدًا، لا يعيش معي غير زوجات أولادي الثلاثة الذين رحلوا منذ سنوات في رحلة لإفريقيا ولم أسمعْ عنهم خبرًا، أنا أعرف

أنّهم لم يُنهوا رحلتَهم بعد، وأنّهم عائدون لا محالة، الغريب أنّ عرّافةً حملتْ لي خبرًا مشؤومًا، وقالت إنّ وباءً عظيمًا أكل أولادي، وأنّهم هلكوا ولم يتبقَ منهم ولد، الوباء الذي لم ينجُ منه أحد قط، أخذتُ حديثَها على محمل العبث، وطردتها مِن البلدة، لكن انقطاع أخبار أولادي أوجَسَني خيفةً بمرور الوقت، وبتّ كالتائه دون مستقَر، أتصيّد أيّة أنباء آتيةٍ مِن إفريقيا بلا جدوى، حتّى أنّ أحدَهم قال لي متحسّرًا:

اعتبرْ أولادك في خبر كان.

زوجة أكبرِهم جاءت لي يومًا وقالت:

- تركَنا أولادُك ورحلوا يا حاج، تركونا كاليتامى.

لكنّي كنتُ أعرف أنّ أولادي سوف يعودون، أوصوني على زوجاتهم، وحمّلوني أمانةً إلّا ينقص منهنّ شيئًا، وكان عُرْف بيتي أن الزوجةَ إذا دخلتْ لا تخرج، وإلّا تَرى أهلَها إلّا يوم يموت واحد، هكذا عُرْف بيتي، وهكذا كان على نساء أولادي أن يزددن شراسةً وجوعًا، أربعةُ أعوامٍ أكثر ممّا تحتمل امرأة، إنهنّ يتضورن، العوز في حدّ ذاته فضيلة، فكان ينبغي أن أسدّ النقصَ الذي أوصاني به أولادي- ودون مساءلةٍ أخلاقية.

يلهو حولي أحفادي، أكبرهم لم يزد على سبعة أعوام، والزوجات أقبحهنّ لم تُكمِل خمسة وعشرين، دومًا يترصدنَني بأعينهنّ، بعض نظراتهن عتاب، وبعضها اتّهام بتقصير مع واحدة منهن.

أنا رَجل البيت الآن، وواجباتي تكاثفت لأكثر ممّا تتخيّل إحداهنّ، زوجة الأوسط حضرت ذات مرّة وفي عينيها غضب، وصاحت:

- يعني أشتكيك في النقطة يا حاج! لك أسبوع لم تزر غرفتي، شكلها "الدلّوعة" خطفت عينيك.

وضحكت، أعرف معنى غيرتها، و"الدلّوعة" هذه زوجة أصغر أولادي، فقلت لها:

- هل هذا كلام! كلكنّ على قدم المساواة، فقط مشغول هذه الأيّام.

أعرف أنّها أكثرهنّ شراهة، لذلك -ولأنّي عَظْمة قديمة- كنت أتحاشى الالتزامَ بيومها، فأضطر للتحجّج بحُجج واهية، بل يمكنني أن أدّعي أنّي على سفر ثم أبيت الليلةَ في فندق في المدينة، وكنت أقول في نفسي: كيف استطاع ولدي أن يغلب شراهتَها؟

وبيتي مغلق على أسراره، عُرْف آخر أنّ البيت لا يدخله غريب، وأنّ التزامي مع زوجات أولادي هو مِن باب سدّ الحاجة، كي لا تضطرّ واحدةٌ إلى النظر خارج الإطار، بل كنت ما أخشى أن تهجّ إحداهنّ ولا ترجع إلّا وفي يدِها قسيمة طلاق غيابي مِن المحكمة، وهذا عارٌ لا أقبله، هددتني مِن ذي قبْل زوجة الكبير، وقالت لي علانية:

إمّا تطلقني المحكمة وإمّا تجد لك حلًّا في مصيبتي، جسدي يأكلني يا حاج وأنت تتفرّج، والصراحة راحة.

وعدتُها بأنّي سوف أزورها في غرفتها، وفي المساء، أذعنتُ لمطلبها.

كنت أعرف أنّي الرجلُ الآن، وأنّي أحمِل العبءَ على كتفيّ، عبء سدّ حاجتهنّ وإلّا افتُضِح بيتي في البرّ كلّه، في المساء طرقت الباب، وكانت متأهّبة، كأنّها تخطّط لِما سوف يقع، والذي وقوعه حتميّ، كانت الأولى، والاثنتان الأخريان تبعتاها عقب ذلك، كانت جاهزة بالعطر أولًا، اشتممته فأثار كوامني، قلت في نفسي: على بَرَكة الله. نظرتْ لي بما يعني خجلَها، وأنّي يجب أن أفضّ هذا الخجل، اقتربتُ منها، عبثتُ بشَعر رأسها فساحت، أخذتْ تئِن وقالت: ياه يا حاج. وارتمتْ على بطنها، فقلت: الخلفة! قالت: عاملة حسابي يا حاج.. لا تقلق. خلعتُ جلبابي، وطوقتها، كان الأمرُ أنّي لابدّ وأقوم بالدور، حفاظًا على غيبة أولادي، راحت تتلوّى على الفِراش، فأشعلت ما تبقّى مِن غريزة، لم تكن جميلة قدْرَ ما كانت فتحًا بعد خمول لسنين، رفعتُ عنها قميصَها، فبانت مؤخرّتُها السمراء المدوّرة، لعقتُ قليلًا، فهاجت للذروة، لعقتُ ظهرها، فاستدارت بثدييها، أخذتُ أمصّهما كسكران، وأغمضتْ عينيها تتأوّه، في لحظة أخرجتُ ما احتفظتُ به دون أن يُمَسّ لزمن، فبدا ناريًّا، حَمَل سخونةَ جسدي المشتعل إليها، أول ما أمسكتْه أفزعها، فصرختْ: ما شاء الله عليك يا حاج.. أُمَّال ولدك طالع لمن؟ قلت وأنا أضحك: شكله طالع لأخواله. مضتْ تعبث فيه معجبةً بمتانته وعرضه وطوله، ورأسه الضخمة الملفوفة، وقالت: صحيح.. ربنا لمّا يكرم واحدة. قلت: كرم ربنا كبير. ضحكتْ

وقـد فهمـتْ مغـزى كلامـي ثـم همسـتْ في أذني: يعـني أكـبر ممّـا أعطـاك! قلـت: يـوووه.. لـم تَـرَي شـيئًا بعـد. ورفعتُهـا نحـوي، غصـتُ بـين شـفتيها، فغاصـت بـين أحضـاني، واسـتماتت، وفي بـطءٍ أدخلتـه، كانـت تريـد أن تسـتلذّ قـدْرَ إمكانِهـا، وكلّمـا غـاص أنّـت، وكلّمـا أنّـت غـاص، حـتى اكتمـل التحامـه، فدَخَـل وخَـرَج، ورفعـتْ سـاقيها، وصرخـتْ، واسـتعذبتْ.

وكان المساء يرفل في السكينة، يرحل ململمًا ثوبَه العسلي.

جابر

(6)

يـوم مـات جَـدّي "نعمـان"، يـوم انحـسرت البهجـة عـن حيـاتي، خَـرَج "الجوّالـة" عـن بكـرة أبيهـم يودِعـون جثمانَـه في جبّانـة القريـة، ويبكونـه بحرقـة، ويتحاكـون عـن تاريخـه المُلهـم، وكيـف كان بإشـارة مِـن يـده يطـوّع الثعابـين ويجعلهـا تنطلـق نحـو يـدِه، كأنّهـا منوّمـة، وتتقافـز حولـه، في الحكايـة بعـض الغرابـة، وبعـض مِـن مبالغـة، لكـنّ الـذي لـم يبالـغ فيـه أحـد، مكانـة جَـدّي في النفـوس، واجتمـاع "الجوّالـة" أنّ كبيرَهـم قـد مـات اليـوم، وليـس مِـن كبيرٍ بعـده. رأيـتُ أبي يقـف عـلى قـبر جَـدّي، ولا يصافـح أحـدًا، ولا يجـاوب أحـدًا، كأنّـه انقطـع، يبـكي كمـا لـم أرَه يبـكي مِـن ذي قبـل، يحمـل رأسَـه فـوق كتفيـه بمشـقة، ويترحّـم عـلى "الجوّالـة" الذيـن يتراصّـون في القبـور أمـام عيوننـا. رأيـتُ مِـن قـبر جَـدّي تنبـت صبيّـة لهـا أجنحـة، تمامًـا كالملائكـة، تشـدّه في يدهـا روحًـا مقبلـة، تستمسـك بهـا في إحـكام، ثـم تدلـف إلى الداخـل، وتختفـي.

بعـد ذلـك، لـم أعـد أسـير حـذاء القبـور إلّا ورفيـف الأجنحـة يلازمـني، أؤكّـد لنفـسي أنّـني سـأكون مغتبطًـا لـو شـدّت يـدي يومًـا وزرتُ معهـا عالمهـا، زرتُ جَـدّي، وزرتُ "مسـعود" الأكـبر، ليـس في الأمـر مِـن رهبـة، تبـدأ الحيـاة الفعليـة حالمـا تنتهـي الحيـاة الافتراضيـة، التائهـون في فلكهـا.

بعـد جَـدّي "نعمـان"، الكبـير الـذي مـات، عـادة قريتِنـا صـارت؛ أن يثـأروا مِـن رِفعـة النخـل وشـموخه، ومِـن تعاليـه

عليهـم، يثـأرون نقمًـا ربمـا، وربمـا لهـوًا، فيجـزرونَ رؤوسَـه، ويتركونـه عاريًـا كفيفًـا أمـام سـخرية السـماء، يغدو وحيـدًا دون عيـون، كيـلا يتلصّـص عـلى سـوءاتهم؛ رغـم أنّـه يواريهـا -لـو يدركـون- عـن غضـب الـرّب النافـذ عنـد أقـرب منعطـف قـدَري.

١ كان النخـل متعامـدًا لـم يـزل فـوق جـدار الأرض المسـتوي - طبعًـا دون رؤوس- لكـن لـم يعـد يـرى نكبـات القـوم، بـات النخـل ضريـرًا، عاجـزًا حـتّى عـن فضيلـة الاسـتشراف، ولـو أنّـه لـم يـزل ينبـت منبثقًـا مـن عـبّ الأرض كدلالـة قهريـة، أتذكّرهم وقتمـا ظلّـوا يومًـا بعـد يـوم يتسـلّقون أكتافـه، في اسـتهتار عمـدي، أو في لا مبـالاة عابثـة حـدّ إلّا يعبـأ "جـوّال" بالنتائـج، يلفظـون عـدم الاكـتراث لعابًـا لا يحفـل بفجيعـة النخـل، وينحـرون عنـق نخلـة فنخلـة، فتقـع الـرأسُ مصمتـة، بسـباطاتها وعيونهـا المتّسـعة اتّسـاعَ سـخط الدنيـا، بدمّهـا الـذي يشـخب كعنـوان مأسـاوي للّهـو، وببلحهـا الـذي بـدا لـم يكـترث أحـدٌ بـأن يعسّـل بـه فمَـه بعـد ذلـك، ولـو لمجـرّد المـذاق.

يطلـع "الجـوّال"، وفي يـده منجـلٌ قـاسٍ، يهتـم أولًا بتقويـم أنيابـه، فـأن تكـون الأنيـاب حـادّة، مسـنونة بحرفيّـة، إلّا يكـون مجـال هنـا للخطـأ أو الارتبـاك أو التقاعـس، هـذا في المطلـق، وبانقضاضـة مباغتـة، يـنزل "الجـوّال" فـوق رقبـة النخلـة، فيجزّهـا جـزًّا دون رفـق، ويتابعهـا ببـصره إلى أن يطمـئن لانتكاسـتها الأخـيرة، متكوّمـة كأفئدة يائسـةٍ مفترشـة تـرابَ الأرض مسـفوحةَ الـدمّ، وقليـلًا مـا كان يسـتأنف هـو نفسـه ذلـك "الجـوّال"- مراسـمَ قطـع رؤوس بقيّـة النخـل، إذ سرعـان مـا يقفـز واحـد غـيره ليعتـلي نخلـةً مجـاورة ليخليهـا مِـن الـرأس،

مهمِلًا أيّ تفكير، طارحًا نبضاتِ الشفقة بداخله أرضًا؛ ولو حتّى شفقة دوام العِشرة.

منذ أمَدٍ لم يعُد تاريخ القرية يذكره؛ كان ذلك.

مع الوقت، بمرور عامٍ إثْرَ عام، بدا النخل الأعمى ينحني أكثر فأكثر، مساوِمًا الأرضَ على أن تتحمّل عجزَه، وتقيمه منصوبًا دون خور، يتخبّط في الجوار عشوائيًا لا يدرك- إلامَ يفضي به العجز، يحثو ثرى الهمّ على جذوعه المبتورة مطبّبًا بعض الألم.

يسمع النخلُ تأوّهاتِ البيوت غير أنّه فَقَد حسّ المشاركة الشعورية، بدا لا يأبه، إذ خان "الجوّالة" حرصَه على المكان، بل خانوا أكثر حرص المكان على ستر عوراتهم، واستلذّوا العيشَ بلا رقابة، وإنْ كانت معنوية، فتشابهت الأصواتُ في آذان النخيل، ما بين شكوى وما بين عبث.

* * *

في المجمَل، علينا أن نعاين المشهدَ مِن زاويته الخرافية، هي الزاوية الواسعة جدًّا، التي تضمّ أعباء المشهد بأسره، وتحيله فورًا -بمنهج العبثية- إلى ذلك المنطق العرفي؛ عميق الصدمة، والمسكوت عنه في غالب الأحيان.

في المشهد نخلٌ ضرير، لم يقاوم كثيرًا فانجرف خلف لذّة الاستسلام قدرًا، وفي المشهد رجال، إنْ أمكننا تدقيق النظر في ملامحهم ما استشفّينا تباينًا ملحوظًا، هي ذات الوجوهِ المتشابهة حدّ التطابق، هي ذات الانفعالاتِ

البخسة التي تراوغ أحيانًا، وتتباهى بدونيّتها أحيانًا، تنسلخ مِن موضعٍ شديد الاختباء في نفوسهم، وتحوم متفاوتة الدهاء، كجراثيمَ ماكرةٍ تتخيّر موطنَها بين خلايا الزمن، تتماهى.. تتماهى، لتتشكّل بعثًا جديدًا اسمُه لغة المصلحة، باتت سائدة، ممنطقة للغاية، ولها رسوخ تأصّل حتى في مجريات الأحداث، فما عدا ذلك، كلّ شيء مباح، وكلّ نزق مستباح، وكلّ ما يعني الرجال؛ فطرة الاقتيات في حدّ ذاتها، خالصة مخلّصة مِن تراكمات المساءلة التي أضحت بفوات الزمن أمْرًا مضحكًا؛ بل مخجِلًا، عظيم الخجل، إنْ أمعنّا التوصيف.

غاية السعي هنا، إلّا يكبّلنا حرج، وإلّا يلجّم رصدَ الحكاية تأنيبٌ، فمِن الجائر أن نصفع السلفَ بالحكاية المباغتة عنوة فلا يستسيغ، حكايتهم في الواقع تحتاج رغم ذلك إلى تمهيد ربما أكثر تنميقًا كيما يشاطرهم الحدث...

أقصد حكايتنا - نحن الجوّالة- على نحو محدّد، أقصد الجنون جليًّا في العموم.

(7)

في الصحـراء خلـف أبي، عـلى ظهـر الجَمـل، أضرب، تُرهقنـا شمسـها، لكنّ الـذي يُرهقـني أكـثر عبثيـةُ البحـث عـن الزواحـف في حـدّ ذاتهـا، أراد أبي أن يورّثـني تجـارةَ الأجـداد، إنّمـا حـين ورثتُهـا، فعلـتُ وفي نفـسي اسـتنكارٌ لا حـدود لـه. نجـوب الرمـلَ السـاخن، ونخيّـم بالأيّـام انتظـارًا كيمـا ننـال صيـدًا أوفـر. تقصفنـا العواصـفُ أحيانًـا، لكـن أبي كان يعـد عدّتـه لتفـادي أيّـة عاصفـة، كان يثبّـت أوتـاد الخيمـة في رمـل يطعّمـه بحَجـر يـأتي بـه مِـن "أسـوان"، ويفتتـه فيصبـح - مختلطًـا بالمـاء- أشـدّ بأسًـا مِـن الفـولاذ، وتمـر العاصفـة بقسـوتها وشرّهـا دون أن يمسسـنا سـوء، وكنـتُ أقـول لأبي:

- الصحراء يومًا سوف تقصف أعمارَنا.

فيضحك، ويقول لي:

- مِـمَ تخـاف يـا "جابـر"؟ أظنّـك نضجـتَ كفايـة لـكي تواجـه كلّ الأخطـار.

إلّا خطرَ الطبيعةِ يا أبي، ليس أشدّ منه خطر.

- خلـقَ اللـه الأرضَ في سـتّة أيّـام، وفي اليـوم السـابع اسـتوى عـلى عرشـه، خلَـق الأرضَ وسـخرها لنـا، إنّ الطبيعـة يـا ولـدي تخشـانا، وتمتثـل لأوامرنـا، فاكتسِـبْ بعـضَ الجسـارة، واملـكْ الطبيعـةَ بـين ضلوعـك.

- إنّي لا أحِب هذه التجارة.

ولكنّهـا كفـرض العـين يـا "جابـر"، مهمـا كرهناهـا، هـي

تجـري في دم "الجوّالـة" جميعًـا.

- ألا لعنة الله على "الجوّالة"!

يتجهّـم أبي، ويـولّي عـنّي بـصرَه معترضًـا على كلامي، وينشـغل -عمـدًا- بتسـييس ثعبـان، أو سـلخِ ثعبـان نافـق، وأرمـي داخـل ظلمـة الصحـراء عينَيّ، وأحـاول تصويـر جَـدّي "مسـعود" الأكـبر أمـام بـصري، بـلا جـدوى، بـدا رمـزًا بطوليًـا لا يُشـبه بَـشرًا، ومِـن قُـرب، كان عـازف "الربـاب" الـذي نسـتعين بـه في رحلتنـا للتسريـة يُنشـد:

"المَرجلة لا هي غصب ولا جبرانية..

المَرجلة عزم وسلامة نيّة...

وبعيدًا عن قولة بلاغية...

يا ناس دي المرجلة غيّة"

صـوت الربابـة يـسري في فـراغ الصحـراء، والليـلُ وقـت اللهو، ووقـت الإنشـاد، يسـتكمل العازف:

"بغامر أنا وربي محاديني..

لا ضعف ولا شيطان محَا ديني..

وأنا قلبي مع الله الشر معاديني...

وأفضل رغم المهالك مع ديني".

يتمـدّد أبي، ويبـدو لـم يـزل غاضبًـا عـليّ، أمـدّد جسـدي جـوارَه، لكـنّ عينيـه في السـماء، والنجـوم تداعبهمـا. أتأمّـل

وجهَه على ضوء النجوم، كَم يُشبه جَدّي "نعمان"! يستدير نحوي، يتفرّس في وجهي قليلًا، ويُمعن التفرّس، تطِلّ مِن عينيه نظرةٌ عميقة، يحدّثني بها عن عتابه، يقول لي:

- إيّاك أن تتنصّل مِن أصلك يا "جابر"، عارف، لولا أصل "الجوّالة" لَما كان لنا شأن في البلاد.

وعازف الرباب يُنشد كما لو أنّه ثمل:

"المَرجلة مش صك أو تكليف..

المَرجلة للواعي أصل شريف...

المَرجلة مش هب ولا شدّة سيف...

يا ناس دي المرجلة كيف".

مسعود الأكبر

(8)

"بدا أنّك يا "مسعود" موطن السرّ الذي بدّل زمني، فَحَلّ بدءٌ نيابةً عن منتهى، ولم تعُد المسائل لها إجابات مُريحة، رأيتني - ورأيتك- روحًا انشقت لجسديْن، يا لعجبي! حوصرتُ أنا في هذا البُعد الزمني الغريب، واستكملتَ أنت رحلتَك إلى قريتنا، تركتني هنا كيما أراقب فقط تطوّر سلالتنا نحو نهايات مُفجعة، شيخُنا قال أنت ابن عشرين، وسأظلّ معلّقًا أنا في العشرين هذه، أمّا أنت، لديك آلية النمو، انفصلتَ عنّي، ورحتَ تُكمِل ما شرعنا فيه معًا، ترى كيف آل بك المُستقَر؟ كَم عمرك الآن؟ السنوات هنا تجري بي، لكنّي لا أشيخ، ما جدوى الخلود وأنا وحيد؟ لكنّك سوف تسأل كيف توصّلت لمعرفة السرّ؟ هه! لقد تتابعتْ عليّ في هذا البُعد الموازي خلفتك، واحدًا واحدًا، ورأيتُهم وهُم ينشبون الحربَ ضدّ بعضهم البعض، ورأيتُك يا "مسعود" يدور بك العمر، لتبلغ أرذلَه، ثم تأتيني طرحًا مِن البحر.

عندما شاهدتُ جثّتي، أو جثّتَك، لم أصدّق، اعتقدتُ أنّ الجنونَ قد استولى عليّ بالشكل النهائي، وانتابني الرهابُ لأيّام، إنّما حاولتُ ما أمكنني- السيطرةَ على انحرافات الزمن، وتركتني مع الله قليلًا ليكشف لي، فراقبتك منذ حلولك على قريتك، واقفًا تتفرّس في وحشتها، وفي قلبك إحساسٌ بي، تُدرك أنّي حُبستُ ها هنا، ولن أخرج مِن هذا العالم قَط، لكنّك أبيتَ إلّا أن تنفذ رؤيانا لتمامها،

استوطنتَ القرية، ثم أخذتَ تمنحها الحياة، استقطبتَ البَشر، وبات لك عشيرة، تقوِّم ما نَشَأ مِن أفكارهم، بالعِلم الذي جئتَ به مِن موطننا.

الغريبُ أنّي شاهدتُ سير السلالة مِن منحدر لمنحدر، لكن لم تكن بيدي حيلة، الأغرب أنّ تلاحُقَ الأزمنة مَرّ سريعًا، فبعد جثّتك، حمَل لي البحرُ جثّةَ "طلحة"، ابننا، الذي سميّته "طلحة" تيمّنًا بالسوداني صديقنا، كنتُ أدفن الجثثَ في قلب الرمل، وكان الماء يعرّيها، فأعيد دفنَها، فيعرّيها، وهكذا، ومع كلّ ابنٍ أو حفيد كان قلبي يحترق أكثر، وأود لو أجاوز الزمن، وأعبُرَ ذلك الحاجزَ بيني وبينكم، وأترك هذا البُعد لأسكنك ثانية، ونستعيد جسدَنا المشرّد.

رأيتُك تهبط يا "مسعود" مِن فوق ظهر الجَمل وتستقيم، لتبدو طويلًا للحدّ الذي ضاهيت به طول النخل المصطفّ على أبواب القرية يراقبك باهتمام، أخذتَ تتملّى في النسيج الربّاني المتلاحم قبالتَك والذي يروم يدًا تحيكه ليتمثّل صنعًا اشتاقتْ له نفسك منذ راودتك الرؤيا المحقّقة بعون الله، ودّعَك صاحبُ الجَمل بابتسامة لطيفة ومضى عنك وقد ساوره تعجّب، مكثتَ تتطلّع لعتمة القرية رغم بهاء الشمس الشارعة في السطوع، قلتَ في داخلك: جَمَعنا القدر برؤيا في بلاد بعيدة. كانت قرية غائرة في سكون مهيب، وتلفها رهبة الوحشة، نفس وحشة قلبك لحظتئذ، يفصلها عن السماء شرخٌ ممتدّ إلى أعلى، تمامًا كشرخ روحنا، بدوتَ تَعلم أنّي سجين، بعيد عنك، ولن نلتقي أبدًا، لكنّها قريتنا يا "مسعود"، التي رأيناها في منامنا والتي ستكون بإذن القهّار

منبعَ دعوتِك، عدلتَ "مخلتك"المستريحة على كتفك، وهمهمتَ متنهّدًا:

- بسم الله.

بسم الله الذي فرّقنا، بسم الله الذي علّقني في هذا المنفى، بسم الله الذي كان في طلعة كلّ صبح يَختزل الزمنَ كلّه والأجيال، ويبعث لي رسالة عبارة عن جثّة مِن جثث أبنائنا، "طلحة"، ثم "نعمان" ثم "مسعود" ثم "عبّود" ثم "عثمان"، إلى أين انتهت السلالة؟ وكيف انتهتْ إلى ما انتهتْ إليه؟ كيف لم تَستدرك يا "مسعود"؟ هل هذه هي رؤياك؟

في كلّ طلعةِ صبحٍ وجعٌ جديد، في كلّ طلعة صبح، أجلس وثعباني على ضفة البحر المهجور نتصفّح وجهينا على مِرآته، فنبدو متشابهيْن تمامًا، ثم نبتسم في حسرة، حين يرمي لنا البحرُ ابنًا، يرفع الثعبان عينيه نحوي فيرى ذات الإطلالة، بدوره يبتسم، لكنه ينظر ثانية للمِرآة فلا يجد سوى وجهِ زمنٍ آتٍ حتمي، ولأنّ حقيقة المِرآة أنّها قد تخدع، وقد تصوّر ما هو دون الواقع، لا يبدو عليه أنّه يهتم، فقط يشيح بعينيه بعيدًا عن سطح الماء ويزحف عليّ يداعبني، فأمضي عن البحر محدّثًا نفسي: إنّ السببَ في كونه هجرته الوجوه، ليس المقابر التي تعيش على شطّه، والتي تحمل جثثَ أبنائي، وليس لون مياهه الذي تحوّل للأسود، على قدر ما يرجع السبب لطبيعته الكاذبة التي تلفّق انعكاساتِ الوجوه، وتختلق الوقائع.

ثم كانت المقابر التي تتناثر قريبةً مِن البحر يا "مسعود"

والـتي تحمـل جثـثَ أبنـائي، مقابـر يتزايـد عددهـا يومًـا بعـد يـوم، رغـم ذلـك فـإن اخـضرارَ شـواهدِها يتكاثّـف طرديًـا كذلـك يومًـا يليـه يـوم، الشـواهد تمتـص مِـن شـطّ البحـر لـونَ الحيـاة الأخـضر فتتركـه يابسًـا، وتبـدو - وهـي تسـتضيف هـذا اللـونَ الأخـضر فوقهـا- كحديقـة مبهجـة، لابـد أن يزورهـا الزمـن، أن ينْعَـم بجمـال منظرهـا، إنّمـا الزمـن لا يعنيـه عزلـتي في هـذا البُعـد.

أخـذتُ نَفَسًـا عميقًـا وببـطء رفعـتُ عـن رمـل الشـطّ قدميّ، لويـتُ رقبـتي ناحيـة الثعبـان، كان صامتًـا، وكان ينظـر بـشيء مـن اهتمـام وتحفّـز أمامَـه، وبـشيء مِـن ترقّـبٍ وكثـير مِـن خـوف، اسـتدرتُ بـدوري، فتسـمّرتُ قليـلًا، الأرضُ الرمليـة كانـت تنبلـج، وتَخـرج منهـا ذراعٌ عظميـة، تخمـش أصابعهـا الطينَ وتتحامـل عليـه لتخـرج، شـيئًا فشـيئًا تخـرج، شـيئًا فشـيئًا يظهـر رأس أصلـع تمامًـا إلّا مِـن بضعـة شـعيرات جافـة يغطيهـا تـراب أزرق اللـون -لعلـه نفـس الـتراب الـذي اختلـس زرقـةَ ميـاه البحـر وتركـه معتمًـا- ثـم يكـون تجويـف العـين، المعتـم الخـاوي العميـق، فالأنـف الصلبـة، فالأسـنان المتآكلـة، بعدهـا يشـب الجسـد النحيـل أمامنـا فنرجـع قليـلًا إلى الـوراء، لا لخوفنـا مِـن منظـر المومياء المغـبّر البـالي، لكـن مِـن ابتسـامتها المريبـة الـتي قابلتنـا بهـا. عـن عظـام صدرهـا نفضـتِ الغبـار، وبخطـوات أشـبه بخطـوات راقصـة كانـت تدنـو، فـيزداد بـالأرض الرمليـة تحجّرنـا، وبصـوت ناعـم قالـت:

- موعدكما مع الغيب.

لـم يكـن هنـاك بديـلٌ عـن الرجـوع إلى مِـرآة البحـر- كان هنـاك الحافـز الأشبه بأمـر نفـسي، لا يجـوز مخالفتـه ولا تقـوى الإرادة عـلى هـذا- لـم يكـن هنـاك بديـلٌ عـنّ الرجـوع لمياهـه السـوداء الراكـدة بـلا حـراك، وأكاذيبـه السـخيفة، لـم يكـن الفـرار طرحًـا، كمـا لـم يكـن التسـمّر حـلًا، فاسـتدرنا، وانكفأنـا نطالـع عـلى صفحـة المِـرآة وجهينـا، مثلمـا تطالـع المِـرآةُ أيضًـا وجهينـا، وكَـم يكـون الكـذبُ مَنجـاةَ هـذا الوقـت؟ فالحقيقـة تعـني بشـكل مفاجـئ أن يبـدو في المِـرآة وجهـان، المومِيـاء والثعبـان، ووجهـي، ثالـث الوجـوه، يختفـي، فيعتريـني توجـس، وأنهـض، محـاولًا بقليـل مـن أمـل وكثـير مِـن يـأس، أن أحتفـظ بصديقـي الثعبـان في حِجـري، غـير أنّ الثعبـان بسرعـة ينـصرف عـنّي، إلى المومِيـاء، ويدخـل بـين عظامهـا، كانـت المومِيـاء أنـت يـا "مسـعود"، أنـت أنـا، قلـتُ يـا "مسـعود" مهلـلًا:

إلى الغيب.

فيلتفـت إليـك صديقـي الثعبـان مبتسـمًا، ويمـضي داخـل البحـر، فتمـضي معـه يـا "مسـعود"، لعلّـه يـدرك أنّـه لـم يعـد رهـينَ هـذا الشـطّ، فالبحـر إذ ينفـرج، وتبـين فجـوة غائـرة، يـدرك أنّـه لابـد أن يتبعـك إلى الغيـب المزعـوم، الـذي يعيـش داخـل البحـر، ليتـني تبعتكمـا يـا "مسـعود"، لأنّي حتمًـا سـئمتُ مـن إحسـاس الخلـود والفـراغ والوحـدة، وكذلـك حتمًـا سـتتزايد القبـور قـبرًا آخـر".

طلحة

(9)

بعيـدًا، حيـث حـرارةٌ مستأسـدة، وفي قلـب بقعـة قفـر مُوحشـة، لا بَـشر فيهـا ولا دواب، كان مقصدهـا، وبعـد مـشي عسير، بـدا كأنّ الأفـق ينفـرج، في بـطء ينفـرج، والمشـهدُ يـزداد براحًـا، والبيـت النـائ أعـلى تبّـة صخريـة يدنـو، يتشـكّل باتّسـاع البـصر، بـل ويمعـن التحديـق فيهـا وهـي تخطـو تجاهـه، كأنّ دبّـت بـه حيـاة. كانـت خطواتُهـا المتلكئـة المتعـثّرة جـرّاء الطبيعـة الناشـفة لـلأرض تتسـارع حثيثًـا، وتـزداد كلّمـا صعـدتْ أكـثر نحـو البيـت، فتنفّسـتْ أخـيرًا في هـدوء، كأنّهـا بلغـتْ مبلـغ الاطمئنـان النسـبي، رغـم مشـقّة الصعـود، وعُـسر الموطـئ.

ثيابهـا معفّـرة، متهدّلـة، باليـة بعـض الـشيء، ربمـا بـدا ذلـك بشـكلٍ لافـت في منطقـة الكتفـين، وبـدا أكـثر أنّ الرحلـةَ كانـت شـاقة، ونظراتهـا يعتريهـا لا اسـتقرار، رؤيـة مشـتّتة، الشـمس كادت تغطـس وراء التبّـة الصخريـة، وهـي تقـرع البـاب بكـفّ متعرّقـة.

في هـذا الـوادي، تضيـق رؤيـةُ العـين بفعـل الريـح الـتي تمتـلئ بـذرات الـتراب والرمـل، لـذا لـم يكـن غريبًـا أن تظـلّ أهدابُهـا ترتعـش، حـتى مـع سـكون الريـح، ربمـا تعـوّدتْ مِـن طـول مسـيرها بغيـة هـذا المـكان البعيـد، كانـت قـد بـدأتْ تتنفّـس في هـدوء، وكانـت مـع ذلـك ترتجـف، قالـوا لهـا -سرًّا- إنّ سـاكنَ هـذا الجبـل هـو الوحيـد الـذي قـد يصـدّق قولَهـا، وعـلى حـدّ قولهـم، هـي تزعـم وقـوعَ حكايـةٍ لا تسـاير المنطـق،

فلا تُصدّق. يدها تطرق، والصمت لا غير هو الذي يجيبها، تطرق ثانية، بدا لا أحد بالداخل، تشتدّ طرقاتُها، وتوغل في الاستمرار المحموم، ثم يبدأ جسدها ينتفض، وبصرها يزوغ أكثر، وملامحها ترتعش، لحظة فكّرتْ أنّ رحلتها ربما أسفرت عن إخفاق أليم.

في حنق، تنزع عن كتفها مخلتها، فتسندها أرضًا، ثم تخبط، دون جدوى، وتنتظر قليلًا ثم تعاود الخبط، فترتجف شفتاها وتوشك على البكاء، وتلهث، ويداخلها اليأس، وتُحبط مِن مجرّد فكرة عدم الجدوى، لعلّ الزاهدَ المُبتغى نائمٌ تلك الساعة، إنّما لا تلك ساعة نوم، ولا النوم تظنّه قد يستغرق الزاهدَ لحدّ عدم الشعور بطرقاتها التي بدأت في الاحتداد.

ظلمةٌ تناوش الأجواء، ينصرف الوقت ها هنا مبكّرًا، ولا حيلة لها، لن يمكنها أن تمضي ليلةً في عراء، ولا أن تعود أدراجَها، يا له مِن عناء! ويا له مِن حظّ! ربما أرشدها البعضُ للمكان الخطأ، رفعتْ رأسَها للسماء، كانت ريحٌ باردة قد وخزتْ لحمَها، فارتجفتْ أكثر، وتقدّمتْ نحو باب البيت أكثر، تحتمي مِن البرد بظلّه المجازي، التصقتْ بالباب، ثم جلستْ، دافنةً بين وركيها رأسَها، وكان البرد يزداد حدّة، فأحسّت بالخوف، وأيقنت مِن حماقة إتيان رحلتها لأجل هاجس باحتمال وجود مَن يمكنه تصديق حكايتها ومِن ثَمّ مدّ يد العون. تخيلتْ هذه الساعة أنّ أشباحًا قَد تَخرج لها مِن بين الظلام شاحبة، مرعبة، فتأجّج الخوف بداخلها لمنتهاه، وقد بدأتْ أصواتُ عواءٍ تترامى مِن أسفل

الـوادي، أدركـت أنّ الذئـابَ خرجـت لتصيّـد فرائسَـها، ارتعـدت مِـن الفكـرة لدرجـة توقّـف الأنفـاس، خشـيةَ أن تتبـع الذئـاب رائحتَهـا، فتصعـد إليهـا، لا يمكنهـا بحـال تحمّـل رؤيـة هـذه المخلوقـات الأكـثر شراسـة أصلًا، تخيّلـت فقـط منظرهـا وهـي تـدلّي ألسـنتَها في انتظـار الانقضـاض فامتـدّ داخلهـا الوجـل، وتشـتتت فرائصهـا، ونهضـت ثانيـة، وفي وهَـنٍ يخالطـه إحبـاط عـاودت الطَّـرق، كانـت أصابعهـا قـد بدأ الإحسـاس بهـا يتلاشى، وهـي تطـرق، وجسـدها ملتصـق بالبـاب، وصـوت العـواء يقـترب، فراحـت تحـاذر أن تلتفـت للـوراء، والتبّـة همـدت إلّا مِـن صـوت العـواء.

لـم يـرد أحـد، وتحققـت مخاوفهـا، لاحـت مِـن مقربـةٍ عينـا أحـدِ الذئـاب، تشـعّان شررًا، لقـد اشـتمّت الذئـاب رائحتَهـا، فـلا مفـر مِـن الهـلاك، ليـس مِـن سرعـة في العالـم كتلـك الـتي هرولـت بهـا الذئـاب متسـلّقة التبّـة، كمـا لـو أنّهـا سـايرت الريـحَ الطالعـة لأعـلى محمولـة معهـا، وفي طيّـات الظـلام سـكن جسـدها، وبـدأ الارتجـاف الداخـلي، وسـكنت أنفاسـها، وعـلى مقربـة، تتزايـد الأعـين الناشـعة حمـرةً لامعـة، وتومِـض، ويتكاثـف الحصـار، الذئـاب اللاهثـة تترقـب الانقضـاض، وهـي عدمـت الحركـة، شـلّت أطرافهـا، وبـدت كتمثـال لا روح فيـه، والذئـاب تحـوم، تصنـع حولهـا نصـف دائـرة متحلّقـة إيّاهـا، ولا مجـال للتقهقـر، تراجعـت حـتى بـدت كقطعـة مِـن جسـد البـاب الخشـبي ذاتـه، اللحظـة متوقّفـة المسـير، لحظـة سـاقطة مـن سـير الزمـن، انكمشـت في وسـط الهـواء البـارد، والرعـب البـارد، والذئـاب بفرائهـا الداكنـة، وأجسـامها الـتي تتراقـص فيهـا

العضلات، تقترب أكثر، تتحفّز، تجسّ خوف الفريسة أولًا، تعاين المأدبة، وتحاصرها أكثر فأكثر، إلى أن صكّ سمعَها صوتُ انفتاح الباب، فانتهزت الفرصة، وصرخت صرخة عالية.

لا تنظري إليها، سيشعرك بالأمان أن تنظري بعيدًا عن أعينها.

لكنَّ عيونَ الذئابِ بوميضها اللامع تشدّ بصرَها عنوة، غير أنّ الزاهد تقدّم عليها، ووقف جامدًا قبالتَها، انكمشت هي خلفَه أكثر، وتراجعت بقدميها حتّى تمكّنت مِن عبور الباب لداخل البيت، وكانت تراقب الزاهدَ الذي بدا كطاقة مِن ملاذ، وهو يتقدّم نحو قطيع الذئاب في ثبات، ولا يخشى شيئًا، أثار ذلك دهشتَها لبعض الوقت، إنّما أخذت تتابع بعينيها إشاراتِ يديه، التي بدت طلسمية لا تَفهم منها شيئًا، ولا يعنيها، وبدا الزاهد مسترخيًا تمامًا في التعامل مع هذه المخلوقات، ويتقدّم عليها فتتراجع، وتخاطب بعيونها البرّاقة بعضَها البعض، وتتراجع، وتتّخذ القرار بأن تهبط مِن حيث صعدت، فسمعت همهمة، كأنّه يتلو عليها، والذئاب تزوم، يتدرّج عواؤها لسرسعة، ثم خضوع، كما لو أنّ الزاهد يسيطر عليها بفكِره، فتنحدر، وتنصرف، ولا يبقى لها غير اللهاث، الذي لم يتأخّر إلى أن انقطَع كُلّية، وغاب صوتها في عمق الوادي بالأسفل.

استدار نحوَها، بدا ساطعًا، مشرقَ الطلّة، في منتصف العقد الرابع مِن عمره تقريبًا، طويلَ الباد، عاديّ القامة،

كثّ اللحية، ورغم شَعره المشعث فقدْ أتمّ بهاءه الخلاّب على وجدانها، فوق شفتيه ابتسامة رصينة، أخّاذة، راحت تتأمّله في دهشة ممزوجة برهبة، أدركت أنّه هو المُبتغى، الدلالات واضحة، خطّ الشيبُ فوديه، عيناه وضّاءتان، ووجهه صبوح، أحسّت بروحه الممعنة في الشفافية، وإنْ كانت ملابسه متواضعة، مجرّد أسمالٍ بالية، لم تُنقص مِن قدْر مُحيّاه الآسر. وقف -بدوره- يتطلّع إليها، لهاثها لم يزل فعّالًا، وأطرافها ترتعش، ابتسَم في ودّ يطمئنها، رغم ذلك قال:

- زائرة!

هزّت رأسَها مؤمّنة، حمَل أغراضَها عنها، ودلف للداخل مغلقًا بابه، وأضاف باقتضاب وهو يولِي لها ظهرَه:

- لا أقبل الزائرين.

- إنّني قطعتُ رحلة شاقة مِن أجل أن ألقاك يا شيخ "طلحة"

أشار لها بيده لتجلس ففعلتْ، بدا عليها الارتباك، وبدا "طلحة" لا يكترث، جلس القرفصاءَ أرضًا وهو يحدّق في عينيها مستكشفًا، طال ذلك، ممّا حدا بها للارتباك أكثر، وبلعت ريقها متحرّجة، لكنّه لم يَني يحملق فيها وقَد انعقد حاجباه، وبدت عليه تكشيرةٌ لم تستوعبها، أو تستسيغها، لا تدري لِمَ أحسّت أنّها بالفعل زائرةٌ غير مرغوب فيها! حاولتْ أن تستهلك الوقت الفارغ مِن أيّ معنى، فقالت بلا مناسبة وهي تتحاشى نظرةَ عينيه:

- كيف يمكنك أن تعيش وحيدًا فوق سّن الجبل!

لاحَظَ ارتباكَها، فابتسَم، قائلًا:

- إنّ سّنَ الجبلِ براحٌ لو يُدرك البَشرُ! هنا أستشرِفُ غيبَ الحيارى، هذا سِلو "الجوّالة"؛ استكشاف الغيب.

ثم أضاف:

- يومَ أن صعدتُ لسّن الجبل، كان ليل، ولم أكن أخشى شيئًا قدْرَ هجمةِ ذئبٍ جوعان، لكنّي قصدتُ الخلوة، إنّ العالم في الخارج صاخب بما لا يلائم نزعة روحي للسكينة، وقرية "الجوّالة" أضيق مِن روحي، امتثلتُ لنداء أبي، جاءني في الحُلم وأمرني بالاعتزال.

استراحت، بدا يسري بداخلها الاطمئنان أكثر، هزّت رأسَها موافقة أنّ العالم في الخارج صاخب.

- لم يكن برفقتي لا صاحب ولا دليل، كان الجبل يناديني، وكان الشباب ينصرف عنّي، ويوم وقفتُ في الأسفل هناك...

وأشار بيديه للخارج:

- كاد السفح يلتهمني، شعرتُ أنّ الجبل سنّه بعيد، شاق، يلزمني دهرٌ كي أستكمل رحلتي نحوه، إنّما شغفي بمخالطة أسرار الكون كان أقوى، فصعدتُ، لا أدري كَم يومًا ظللت أصعد، لكنّي صعدت، وجدت سّن الجبل حصيرة واسعة فمدّدت جسدي، ونِمت، عكس اتّجاه الريح، حتّى لا تشتمّ الذئابُ رائحةَ غريبٍ مثلي ومناسب لوجبة شهية، فلمّا جاء الصباح، حمل لي بعض الأسرار فأعانني على تلبية حاجة

روحي، كانت الطيور تلامسني فاستجبتُ، داخلت نغماتها روحي، وكانت الشمس تعتليني دون حاجب، ولم يكن ثَمّة حَرّ، بل كان جسدي رطبًا شفّافًا، وهنا أقمتُ عزلتي، وكان بيتي.

ثم بعد قليل، أَغمَض عينيه، وتنهّد تنهيدة طويلة، ثم تمتم:

هنا تجلّى لي رّب كلّ مربوب، وسيّد كلّ ذي سيادة، استجرتُ على أعتابه وحدي، فكان صاحبي، قصدتُه متذلّلًا بشفاعة الضياء محمّد، صليّتُ عليه وسلمت، وصليّنا عليه وسلّمنا، استجرتُ بسرّ الذات، وبحقيقته العظمى رّبي، وبنور النور المنبلج، وبساط الأنس المنتسج، وبطيب الوصل ولذّته، ببحر القدرة، وتجلّي العزّة.

ثم هَمهمَ:

- هنا أستجير به مولاي.

قالت:

إذًا أنت المبتَغى.. فأَجِرني.. إنّ سرّي حيرة عظيمة.

- سرّك ألم..

اندهشتْ، فهمّت تجاوبه، لكنّه قاطعها بإشارة حازمة مِن يده، ولم يزل مغمض العينين، وأكمل:

- غير أنّ بعض الألم يكفي لشفاء الروح..

أسبلتْ جفنيها تستمع، وكان يهمهم:

- إنّما مال روحكِ تفيض كسلسبيل بلا شطّ؟ أم تراكِ حين استدعاكِ طيفًا فاستجبتِ، كالوحي أنتِ، كالحيّ أبدًا، كالجذر راشق في ثنايا الذكريات، كالنور طاقة، كالحلم لحظة، كالعمر وهْم، كأنّي أنتِ، كأنّكِ لا حدود لهذياني.

وغاب "طلحة"، فتلاشت بعض المعالم مِن أمام عينيها، استحوذ عليها غمام غير منطقي، لم تكن - هذه الساعة- في حاجة لأيّ قدْر مِن الهذيان، ولم تكن تعرف إنْ كان ضباب عينيها أصله جَهد أَم حالة روحانية! إنّما كان صوت الزاهد قد بدأ يبتعد، وحيث يرتّل، ينصرف العالم، ويحلّ اللا منطق، وتدور في دائرة مِن ارتجاج، إنّها لم تعد تحتمل، والأضواء تأتي مِن نقطة داخل رأسها، فتجتاح تركيزها، وتنبش عن قشّة تلقفها نحو الواقع ثانية، فلا تجد، كان "طلحة" قد ابتعد درجة أن يصبح الآن مجرّد نجمةٍ في سماء بعيدة، ومضة نور في الفضاء، ثم صوته ضاع كلّية، وكان كلّ شيء يحرّكها نحو العدم، وفجأة، شبّت، تترنّح، تخبط بذراعيها حولها في عدم اتّزان، وعلى مقربة، انكفأت تفرغ ما في جوفها.

يد "طلحة" تربّت على كتفها، وصوته يعود:

- ارتاحي.. أعراض بديهية لِما تحمله أحشاؤك.

لم تصدّق، هو أدرَك إذًا! أجلَسها، وأخذت تتأمّل بوعي مُستعاد، بدا "طلحة" لا يملك ترفا في حياته قدْرَ إيمانِه، يعيش كأبسط المخلوقات، على عجَل صنع لها شرابًا لم تستسغه في البداية، إنّما ولو أنّها لم تدرك كنهَه، أخذت

تحتسيه اطمئنانًا لـ"طلحة"، وكانت تراقبه وهو جالس أمامَها ووجهه إلى أعلى، لم يحاول أن يتفرّس فيها، بل كأنّه نسيّ وجودَها، ورحل لعالمه البعيد، سندت كوب الشراب أمامها وقالت له مهمهمة:

لا أدري كيف حدث ذلك؟ أنا عذراء.

أومأ برأسه، ودَنا منها، فدنتْ منه بجوارحها، مسّد رأسَها، وقال:

- في الملكوت ينشأ الاتّصال الذي لا حيلة للعبد فيه، وتسرح الروح لأبعد مِن أفق الخيال، ففي الملكوت عِبرة، لكن لا تتعجّلي الفهم.

لم تفهم، لكنّها سرعان ما راحت تجهش ويده موضوعة فوق رأسها، هي بدأتْ توقِن أنّ به أمرًا خلاف كلّ البَشر، وبدا هو كما لو أنّه كان يعرف سرّ بكائها، فأكمل:

مولاكِ أعلاكِ قابض على السرّ، والغيب جاثم على الخيال، فدواؤك بكاؤك، والروح إنْ تبكِ تَبُح، وإنْ تَبُحْ تَلِن، وإنْ تَلِن يُسْرَ بها، فإن ثَمّة إسراء فلا دلالة أعظم مِن الكشف، هذي روحكِ قلت- في زجاجة مرمرية، وهذا غيبك أراه بسرّ الروح، الكائن بروح السرّ، المصلّى عليها، والمبذورة شمسًا في شروق مزهر، وعينًا على الغيب، وقلبًا -في ظلال العرش- يرجف، وقولًا كُنْ، فكان، ودعاؤه بكاؤه، وبكاؤه دواؤه، والروح في شجرة نابتة على ضفّة سلسبيل تسكن، وفي بطن حوت أُمِر فأطاع، وكان بيتا تحت البحر. ونار أغرقت الخوف، ومركب قيدت فحملت، ونبيّ مات

فعـاش، ودّمر سـال فيُـورف، وغـراب لا يفهـم فسـلّم، وأرض لا تطـاق، عُمّـرت، ويمامـة بلـون الصخـر، وعنكبـوت بصـبر الوحـي، ووحـي بوجـه نـبيّ، ونـبيّ يتدثّـر مـن هيبـة مـلاك، ومـلاك يسـكن الخطيئـة، وخطيئـة تـزرع الفضيلـة، والـدوام للمـولى، للمـولى الـدوام.

تحـشرّج صوتـه قليـلًا لمـا راحـت هـي تنهنِـه بـين يديـه، فأضـاف:

- وكان الشقاءٌ إلهيا.

قالت في وهن:

- ثَمّـة سرّ يسكن داخـلي.. أشعر بنبضـه.. لكنّـني أحلـم بنـور عظيـم يسـلبني حيـاتي كلّ يـوم يمـرّ.

- إنّ النـور إذا مـسّ الفـؤاد شـفّه، وإنْ جافـاه سـفّه، وإنْ خالطـه واسـتأنس، عفّـه.

ثم أضاف في نبرة أقلقتها:

لكن معاناتك حتمية.

قبضـتْ عـلى رسـغه، بمـا تبقـى مِـن طاقـة في داخلهـا، دنـت مِـن وجهـه ولامسـت عيناهـا عينيـه عـن قـرب، غاصـت فيهمـا قليـلًا إنّمـا كان الوجـع بأحشـائها يتوحّـش، راحـت ترتعـش، وتجـزّ عـلى أسـنانها، فتنغـرس أظافرهـا في لحـم رسـغه أكـثر، ولا يبـالي، قالـت والكلمـات تخـرج مِـن فمهـا بمشـقّة:

أريد أن أفهم.

احتواها بين ذراعيه.

- سوف يَحدث، صبرًا، تريثي، فإذا الحقيقة بانت كلّها تُستباح، لا المُستغيث هدرًا يُغاث، ولا الظنون يُجيبها ما أدركه بصر دون عقل أو بصيرة، إنّ دمعكِ صبابةُ عشقٍ مبذور، وروحكِ يقطّرها الحنين عطورًا تفيض، فلا تُستدرك بالدلالة الآنية..

وأخذ يضمّها بين ذراعيه أكثر، أحسّت به كدواء يسري بأحشائها فيخفّف ألمَها، كان دخوله في أعماقها صافيًا، كانسياب ماءٍ عذبٍ يشق غديرا أخضرَ بِكرا، أكمَل وهو يمتزج برفق مع أسرارها:

هونًا هونًا، كي يستديم الغيب للعليم، ويستقيم الملكوت براحًا للمتعطّش، فالسارح أنا استكفيت وجدًا، والقابض على السّر رفقًا يحتويه، فيحتويني، فيملكني، فيسوّيني، فيكشف لي، وأكاشفه، ويُشرق لي شمسًا، فأتعرّى جدلًا للتكوين، ومِن ثَمّ تفهمين.

ثم غاب ثانية، حيث غاب عقلها:

فيا مولاي استويني أستوِك، ولا تُمْهِلني، فأشتاقك، وإنْ تغب، لا أغيب، ضاربًا حواليك سؤالًا سؤالًا، ناتئًا مِن بين ضلوع الحقيقة ضلعًا ليس أعوجَ ولا مفرودًا، ضلعًا جاوز الوجود، وشدّد، فمدّد، فسدّد العناية ببغية الولاية، فشكّلني وليًا إذ يطوف يشوف، وإذ يشوف لا تراه إلّا عينُ ذاهبٍ إليك، وعائد إليه، بالمستقر، فهو الخُلاصة، وأنت مولاي المُنتهى.

قالت:

- جئتُ مِن موطن الضلال.. لكنّي لم أضلّ.

- أعرف.

- فلماذا يحدث معي ذلك؟

وصرخت، نزعت نفسها مِن بين ذراعيه وأخذت تتلوّى، بدت لم تعُد تحتمل، وهي تنازع الألم، بمكابدةٍ أسفرت عن عَرق غزير، ثم كأنّ روحها تصعد، ارتمت تحت قدميه، نظرت له نظرة بعينين حمراويْن، قالت ضامّة حاجبيها:

- شرابك! ماذا فيه؟

بهدوء، نهض، أبعد عن عينيها عينيه، نظر مِن خصاص النافذة نحو الأفق المظلم، تنهّد تنهيدة عميقة وهو يقول:

- الراحة، فيه راحتك يا ابنتي.

عثمان

(10)

- جَـدّي "طلحـة" كان مخبـولًا حقيقيًـا.. تركَنـا وتـرك القريـةَ وكلّ شيء، ثـم هـام عـلى وجهـه، أتعرفـون كَـم ابنًـا تـرك وراءه! مجنـون رسـمي، أقـام بيتًـا في الجبـل واعتكـف.

- إنّما تُشبِه جَدّك "طلحة" كثيرًا يا "عثمان"

- يُشبهه في جنونه.

وضحـك الجمـع، "عثمـان" حـدّقَ فيهـم ثـم لـوى فمَـه سـاخطًا، وقـال:

- إنّكـم جماعـة مِـن البهائـم، لا تعرفـون شـيئًا، أنـا لسـتُ مجنونًـا قـدْرَ أنّي أرى مـا لا ترونـه.

- تراه باحتساء الجعة والنبيذ وركوب الحريم.

- يـا بِغـال، النبيـذ غـذاء السـقيم، والحريـم تخـرِج السـمومَ مِـن الجسـم.

كانـت جماعـةٌ في الجـوار تنشـد، لـم يكـن يجلـس في صحبـة "عثمـان" إلّا جماعـة معيّنـة، هُـم مَـن يجالسـونه عـلى مـرّ السـنين، اطمـأن لهـم، واسـتراحوا لمجلسـه، "عثمـان" جـاوز الخمسـين، لكنّـه عفـيّ، كأنّ طاقـة "الجوّالـة" وسـلالتَهم قـد اسـتقرت بـين ذراعيـه، وفي لمعـة عينيـه. يجلسـون معـه، ويسـتمعون لحكايـات "الجوّالـة" الـتي لا تنفـد، كأنّ "عثمـان"؛ وهـو الحفيـد الوحيـد البـاقي مِـن سـلالة "الجوّالـة"، اختـزن

تاريخ الأسرة، ثم نشره، وأفرده، على مسامع الناس، ليتّعظ بعضهم، ويُسري عن بعضهم.

- لي في الأجداد الكثير مِن التباهي، والكثير مِن المعرفة.

- ولك عند الأجداد دمٌ يا "عثمان"

بدا "عثمان" لم تُرْحُهُ هذه الجُملة الأخيرة، فامتعَض، وعضّ شفتيه، وحوّل بصرَه ناحية جماعة الإنشاد، ثم بدأ في هزّ رأسه مع اللحن، وحضرت له كأس أخرى من جعة، فاحتساها على عجَل، ونَهَم، ولم يُبقِ، ثم بعد أن قضى لحظة يفكّر، لفّ عينيه نحو صاحبه وقال:

- تُرى لو أنّ "عبودًا" أو واحدًا مِن أبنائه عاش هل كنتُ سوف أترك دمَ أبي؟ لقد أهلكهم السيل مع مَن أهلَك، ليس الآن مِن مستحق لانتقامي غير هذا الدهر الغبيّ.

- أتسُب الدهرَ يا "عثمان"؟

- وأسب جَدّ مَن خلّفوك يا ابن النجس.. قُم انصرف.. والله ليس لك مجلس بيننا.

ورماه بكأس فارغة، فانتفض الرجل، وهبّ فزعًا يهرول، وضحك البقية.

أمّا "عثمان" فاستراح يتنهّد، ثم أكمل:

- إنّ إرثَ "الجوّالة" لا يختلف عليه اثنان، هو متقلّب تقلّبَ ليلٍ ونهار، يمضي هارسًا في مضيه عقلانية الكون كلّه، فمِن جّدٍ لابنٍ لحفيد، والحكايات بعضها مأساة وبعضها عجب

العجاب، أنا الوحيد الذي عاش ليخلّد ذكراهم.

لكنّ واحدًا مِن صحبته قال في لؤم:

لستَ الوحيد يا "عثمان"....

انتبَه "عثمان"، ضمّ حاجبيه، فأكمَل صاحبه:

لك ابن تائه لا تعرف مكانه.

مصمَص "عثمان" شفتيه متنهّدًا، وانصرف نحو اللحن يدندن:

يا سمير الليل لا تعاند

كلّ الهوى مفضوح

والليل نهايته جروح

والذّل باق وصامد

أمانة يا سمير لا تعاند

* * *

وكلّما تذكّر الناسُ ولدًا اسمُه "عبد النبي" ابن "عثمان" يترحّمون، كأنّه في عِداد الموتى، لا المفقودين، "عثمان" نفسه - ومنذ زمن- عدّ ابنه ميّتًا، ربما لأنّ ابنَه الذي هجّ في بلاد الله لن يعود قط، "عثمان" يعرف ذلك، وربما لا يُبالي.

عبد النبي

(11)

منذ أمَدٍ، لم يعد يذكره، بدأ كلّ شرّ، والمشكلة أن يبدأ كلّ شرّ دونما احتساب. في مثل هذا الأوان ربما، وقَعَ عليه هذا النوع مِن العقاب، ليس مِن إحساس قد يبدو أعظمَ مرارة، فالظلمة نافذة داخل روحه، وروحه في عُلبة، والعُلبة غرفة رطبة، وقشعريرة جسده هي المتحرّك الوحيد داخل الغرفة، ما عدا ذلك، بدا كلّ شيء ساكنًا، مُحبطًا، مفعمًا بالاختناق. بدأت رأسُه يَمنةً ويَسرة - بعد قليل وفي ارتجاف- تدور، لا شك أنّ الهستيريا تلجّم تنفسّه، وتتوغّل في أحشائه، لم يعد يذكر بشكل مؤكّد متى بدأ ينتبه للابتسامة اللعينة التي تطِلّ مِن فوق ثغر الجدران؟ ابتسامة بجحة، متشفيّة، ابتسامة تروح وتجيء، تراود صبرَه في هذا الظلام، وتغزو خياله، ربما انتبَه بشكل طفيف منذ بدء نوبات العقاب، إنّما كان لابد أن ينتبه، دون حتّى أن يرهِق كلّ حواسه في محاولة البحث عن علّة الابتسامة، خاصّة عينيه، في وسط ظلام الغرفة الدامس، كان ينبغي أن يفعل، لمجرّد الانتباه الخاطف ليس أكثر، ربما انتباه الأنفاس المفتَقدة في حدّ ذاته. لكنّه - وبعد أن أعدّ بصرَه لتوخّي الدقّة في الرصد- كانت قد بدأت الابتسامة تزول من تلقاء نفسها ثانية، وما لم يكن مخطئًا؛ بدت الجدرانُ صمّاءَ جامدة منتهى الجمود، إنّها تلاعبه حتمًا. لم يكن قد جُنّ تمامًا إذًا، الجدران بلا ريب كانت تبتسم هازئة به، كأنّها تمتحن قدرته على معايشة العقاب.

في ليلةٍ موحشة كهذه، حاجتُه للبكاء كانت تلحّ في تصاعد عشوائي، وكلّما هَمّ به، شيء ما في داخله ظلّ يحبس الدموعَ، كوجع مكين، أو كطاقة مِن سخط، كأنّ ثقلًا جثم على موطن خلْق المشاعر، لم يعد يفهم معايير أحاسيسه، ضاق بكلّ انفعال عاجز في داخله، فتضاربت توازنات عقله، فبدا متبلّدًا، تمامًا كحجرٍ أصمَّ بلا حياة، وبدا العقاب طرحًا ثانويًا لألم لا يعرف موطنَه داخل أحشائه.

ينهضُ، ثم يتكوّم ثانية، يدفن جمجمتَه بين وركيه، ويستشرف شكل العقاب الآتي، يتوقّع أن يُفتَح البابُ في لحظة ما ويدخل عليه أبوه، يصيح فيه، ثم يشير له بعينيه أن يتبعه، آذِنًا بانتهاء مدّة العقاب، ومعلِنًا عن عفوه الثمين! أو حتى يُدير المفتاحَ الذي يسدّ ثقبَ الباب ليسمح له بالخروج، مِن دون أن يَظهر أو يتفوّه، أو حتى تمُنّ عليه الأرض فتنشق وتبلعه، لكنّ شيئًا مِن ذلك لم يحدث، ظلّ الباب موصدًا، والوقت في بطء يتبدّد، والصمت طال.

سار نحو الباب، تَنصّتَ قليلًا، ثم حاول أن يسحبه، إنّما لم يزل موصدًا، جزّ على أسنانه، الغيظ في أحشائه يتدرّج فيصبح ماردًا مِن مَقت، تلفّتَ حوله، ونَمّةَ ظلام كريه يحيط بعينيه، رغم ذلك أمكنه أن يرصد حركة الجدران، جدران كانت بوحشيةٍ، تبتسم ابتسامتَها الماكرة التي لا تكاد تبين في العتمة المستبدّة، تبتسم ثانية، فينهرها بخبل المجاز، وقد يصل به الروع - هذه اللحظة- حدّ النحيب الصامت، أو يظل يلكمها بقبضتيه حتى تدمياء يُفرغ حنقَه في صلبها ثم يجلس ثانية، يلعق الشروخَ فوق عظام يديه

ويُطرق، يسند على راحتيه رأسَه مفكّرًا، هل بات ذلك العقاب شهوةً لدى أبيه؟ أيّ لذّةٍ في أن يرميه في غرفة مظلمة بين جدران قاسية لا تعرف الرفق؟ ومِن أجل أيّ جُرم؟ ويمر الوقت، وهو لا يكاد يرى تلك الجدرانَ إلّا مِن خلال بصيرةٍ فقدت الأمل. يدقق بعمق في التوائها وتعرّجها، وتثاقلها المفرط على صدره المكتظّ بالحنق، تتراقص ظلالها المهيبة وتحتويه داخلها، فيكافح كي لا تمتصه الجدران بجوفها، ويتهاوى الأمل أرضًا، فيرتجف أكثر، ويقرع قلبه قرع كلّ مرّة يسلّمه تكاسله لهذه الغرفة المظلمة، الوقت به يجري، وتجري به - مع الوقت- الذكريات، ويظلّ لسانه يردّد دون حيلة: (إذا السماء انشقت، وأذنت لربّها وحُقّت، وإذا الأرض مدّت، وألقت ما فيها و...) لكنَّ لسانَه يعجز عن التكملة، ولا يوبّخ نفسه قدْرَ ما يُفرط في البكاء، الذي تدفّقت به عيناه فجأة، لا حيلةَ له في حفظ أيّ شيء، ليس كسولًا، إنّ عقله فقط لا يمكنه تخزين أيّ شيء حفظه سلفًا، وهنا يأتيه العقاب.

تأكله غوامض الغرفة، بظلالها، بعتمتها المُقبِضة، يترنح ذهنه، ويخشى أكثر مِن احتمالات العقاب المستقبلية، كلّ دقيقة تمضي تحمل معها قطعةً مِن روحه، تمضي الدقائق حاملاتٍ حلمَه في الغفران، أو التفهّم، ينسى حلمَه، وشكله، ينسى كل عوالم الطفل البعيدة، فلا يبقى له في هذا المنفى الضيّق سوى جدران، تبتسم كلما أولاها ظهره، لكنّه يرصدها، ولو بخيال طفيف، وتظلّ تضيق على صدره، وتضيق، ويظلّ كلّ شيء عالقًا، المَشاهِد عالقة، والرحمة

المرجـوّة عالقـة، حـتى مشـاعره عالقـة، دونمـا معـنى.

في الخـارج، بـدا كلّ صـوت كأنّـه قـادم مِـن عمـق بـئر، مجـرّد صـدى، صـدى أجـوف، يـرنّ فقـط حولـه رنـينَ التذكـرة، يقهقـه أبـوه، أمـرٌ بديهـي، منـذ مـتى يكـترث أبـوه لحبسـه في غرفـة بـلا قلـب؟ يقهقـه، بـل ويُمعِـن في لا مبالاتـه لدرجـة نسـيانه حـتى، ربمـا يتعمّـد هـذا النسـيان، لعلّـه يشـاهد برنامجًـا مِـن برامجـه التافهـة، الغريـب أنّ العقـابَ لا يـوازي بـأيّ منطـق مـا اقترَفَـه، والأغـرب أنّـه بليـد حقـا، وكلّمـا ازداد بـلادة - بغـير قصـد- كان العقـاب أكـبر، لكنّـه لـم يعمـد قـط إلى نسـيان حـرفٍ ممّـا يحفّظـه لـه أبـوه، إنّ الحـروفَ تتـلاشى مِـن تلقـاء نفسـها، تتبعثر في غـور ذاكرتـه، لا يسـتطيع أن يقبـض عـلى هـذا التـلاشي، ولـو حـتى بالدعـاء، أو البـكاء، أو عـصر ذهنـه، تطـير الحـروف طـيرانَ الدخـان، فيغمِـض عينيـه ليتذكّـر، ولا يتذكّـر، فيصفعـه أبـوه، ولا يتذكّـر، يصفعـه ثانيـة، والأمـل في التذكّـر تقريبًـا معـدوم، لكنّـه دومًـا يلـوذ بالبـكاء، علّـه هـز مشـاعرَ أبيـه نحـوه، دون طائـل، فـلا أبـوه يداخلـه العطـف، ولا هـو يتذكّـر، أحمـق، أحمـق وتجـرّه حماقتـه لعقـاب حتمـي، يسـتهوي أبـاه مثل هوس مكـين، كمـا لـو أنّ غيّـة ممارسـة سـطوة الأبـوّة تسـتأثر بأبيـه حـدّ الوحشـية، فيشـدّه، والمقاومـة لا تُسـفِر عـن أيّ اعـتراض، مجـرّد مقاومـة خرقـاء، متدلّلـة، لكـن أيّ تدلّـل يرحمـه! يشـدّه أبـوه، فيحـاول بأعصابـه الواهنـة سـحْبَ يـده، إنّمـا يـد أبيـه أقـوى، وأعصابـه أشـدّ، وعينـاه تنشـعانِ شررًا مسـتحكمًا، يجـبره أن يستسـلم عـلى الفـور، ويمنـح إرادتّـه لأبيـه، الـذي يودِعـه في غرفـة حالكـة، ويُغلـق عليـه البـاب، يحرمـه مِـن الطعـام

والـشراب، سـاعةً، سـاعتين، أو ثلاثـا، لـم يعـد يهـم في حقيقـة الأمـر، كلّ مـا بـات يهمّـه بعـد ذلـك الفـرار مِـن قتامـة الجـدران، ومِـن شرّ ابتسـامتها.

بعـد قليـل، صـوت حشرجـة المـزلاج تجعلـه يشـبّ برأسـه، ويمسـح دموعَـه خشـية أن يلمحهـا أبـوه، تكّـة، فائتـان، ثـم يتسـلّل بصيـص الضـوء مِـن خلـف بـابٍ مـوارب، ويتضخّـم، والبـاب في انفراجتـه يُحـدِثُ صريـرًا متقطّعًـا، وبـرأس منكّسـة يَخـرج، أمّـا أبـوه؛ فجالـسٌ يحتـسي -كعادتـه- كوبًـا مِـن الشـاي.

يبـدو عليـه عصـف القهـر، وهـو يدنـو مِـن أبيـه، الـذي لا يريـد حتّى أن يستدير لـه بعينيـه، اكتفَى بـأنّ ظلّ يتابـع أحـد البرامـج التافهـة، ممّـا يـروق لـه، فقـط مـدّ لـه يـدَه، فانحـنى مرتعشًـا، وكاد دخـان كـوب الشـاي يغـشي عينيـه، وهـو يهبِـط بشـفتيه، ليلثّـم ظهْـرَ يـدِ أبيـه، يهـزّ أبـوه رأسـه فيمـا يشـبه الرضـا، ويقـول:

- على الله تكون عقلت يا "عبد النبي"

لا يـردّ، يتقوقـع في الكـرسي جـوارَ أبيـه، ولـم تـزل خيـوط العَـرَق تتسـحّب مِـن مسـامه، نحـو رقبتـه، يتنـاول أبـوه "الريمـوت"، ويبـدأ في تقليـب القنـوات، حـتى ترسـو بـه الحـال عـلى قنـاة تافهـة، أخـرى.

- قم وابحث عن شيء لتأكله.

في الحقيقـة جسـده يرفـض تمامًـا لفظـة "الأكل" هـذه السـاعة، إنّمـا، وفي قلّـة حيلـة، يصغـر خوفًـا مِـن توبيـخ جديـد،

ويتّجه نحو المطبخ، يتناول شيئًا كيفما اتّفق، ثم يجلس بعيدًا عن جلسة أبيه، وفي بطء، في سأم، وفي شرود، يمضغ لقمةً في فمه، بعد أن يلوكها بأسنانه بتثاقل.

- عارف يا "عبد النبي"...

مِن دون أن ينظر إليه.

- أنا نفسي تكون أحسن واحد في الدنيا.

كاذب، كلامٌ مُرسَل، سَمِعه كثيرًا، كلام على الماشي، لا يقدّم في سير العلاقة بينهما، إنْ لم يكن يؤخّر كثيرًا، أنت فقط تريد أن أصبح أحسن ذليلٍ في الدنيا. بجنب عينه يحدجه "عبد النبي"، والأب لم يزل منهمكًا في متابعة برامجه، يقهقه قليلًا، ويفغر فاه كثيرًا، وقد يتجهّم، أو يتأفّف، كأنّه طفل يستكشف عالمًا أسطوريًا، يتساءل "عبد النبي": مَن مِنّا أولى بتجربة إحساس الطفولة! أليس مِن ألم في صدرك لِما تنزله بي مِن عقاب؟ يجزم بإلّا شعور في داخل أبيه تجاهه مِن الأساس، كأنّه نبتةٌ غير مستساغة، نبتةٌ مرفوضة، كأنّه لقيط شاءت مصادفة ما أن يحمله هذا الرجل ليأويه، شفقةً منه، ربما هذه هي الحقيقة الأصيلة رغم كلّ شيء، يجوز أنّ أُمّه أيضًا - والتي يفترض أنّها ماتت وهي تضعه- مجرّد أُمٍ وهمية، مختَلقة، لعلّها تتسكّع الآن في طرقات الحياة، لعلّها رمته جوارَ جدارٍ لتنتشله يدُ أيّ عابر، فأولاد الحلال في هذا الزمن كثيرون، أو لعلّها ماتت بالفعل، مَن يدري حقا؟ كلّ تلك التفاصيل غيبية، وفي النهاية تاريخه هو نفسه مجرّد أقوالٍ مُرسَلة تَخرج مِن فم

أبيه، مَن يضمن صحّتها؟ يتململ أبوه حين يسمع آذانَ العشاء، فينهض، يتجشأ، ثم يهمهِم بأدعيةٍ غير مفهومة، ويدخل ليتوضّأ، أثناء ذلك، ينفرد جسد "عبد النبي" فوق الكرسي، ويبدأ في تقمّص شخصية المتحرّر مِن القيد، فيقلّب في قنواته الخاصّة، يعلم أنّ أباه قد يستغرق أكثرَ مِن عشرِ دقائقَ في وضوئه! لذا، أول قناة يستهدفها كانت قناة أغانٍ، كَم يستهويه أن يدندن مع النغم ولو حتّى دون الغوص في معنى كلماته، إنّما سرعان ما يسند "الريموت" بجواره، عندما يشعر بحركة قدمَيْ أبيه وهو خارج عقب وضوئه.

- (سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين).

يا لخشوعك! أنت أكبرُ سكّيرٍ عرفته "الجوّالة"، يدخل أبوه غرفتَه، ثم بعد قليل، يطلع وقد ارتدى العباءةَ فوق جسده، وكان فمُه يهمهِم، ربما يبسمِل.

- أصلّي العشاء وأرجع تكون حفظت السورة.. وإلّا....

وبسبّابته يُنذِره..

- خلاص يا "عبد النبي"...

أيّ خلاصٍ طالما أنت موجود في هذه الحياة! اخرجْ، واتركْني قليلًا ربما تمكّنتُ مِن حفظ كلمة ممّا ينبغي حفظُه. انكفأ الولد يقرأ الأسطر، ويجاهِد تخزينَها في ذاكرته، بلا جدوى، أخذ الوقت يمضي، وهو لا يألو جهدًا في شحذ عقله كي يحفظ، سورةً واحدة شاقّة، عسيرة، غير مستَوعَبة، ثمّةَ شيء يعيق ذاكرتَه، ويكبّل لسانَه، شيء ما لم يعُد

يفهمه، يحسّ بأنّ الحروفَ تعتريها لعنة لا يقدر أن يفكّها.

اقرأ...

ثمّةَ أفكارٌ بلا جدوى، تمامًا كفكرة التوسّل الآن، هي فكرةٌ ثبت إخفاقُها، وليس مِن مبرّر مقنع لتكاسله.

- لم تحفظ شيئًا.. هه!

لو يعرف أبوه أنّه أعاد القراءةَ وأعاد، إنّما لا يستطيع أن يحفظ شيئًا، يا لها مِن حقيقة مأساوية! ونتائجها محسومة! لم يؤت فضيلة الاستجابة بعد، ثمّةَ أناسٌ يؤتون ميزة التسلّط، وأناسٌ لا يؤتون إلّا لعنات القدر.

بعد قليل، بدا أنّ الوقتَ قد استغرقه، درجة أن يصكّ سمعه صوت الباب وأبوه يدخل، مهما ادّخَر مِن جهد فهو غير ذي نفع، ذلك ما سطره عليه قدَره، الآن عليه أن ينتظر نوبة أخرى من العقاب، انفتح الباب، وارتمى ظلّ أبيه عليه، وظلّ هو متسمّرًا جالسًا فوق المقعد بلا حراك، بدا أنّ أباه اشتمّ تكاسلَه، فتجهّمَ حين وقعت عليه عيناه، وزام قليلًا، كان ضوء السلّم ينبعث مِن خلف قامته التي تسدّ باب الشقّة، فلهث الولد، خوفًا، ربما كما لم يفعل مِن قبل، دفَع أبوه البابَ دون أن يلتفت للوراء، فانغلق بصوت عال، وعينا الأب تلازمان وجهَ الابن، اقترب منه أبوه، سأله متوقّعًا الإجابة:

- هه!

لم يرد، اكتفى بأن لاذ بالصمت، فهم أبوه نظراتِ

التخاذل التي تطلّ مِن عينيه، خلع عباءتَه ورماها فوق المقعد، ثم انسلّ خارج حذائه ولم يزل يحدج ابنَه بنظرات وعيد، تقرفص الولد داخل المقعد أكثر، ثم اقترب منه أبوه، شدّه مِن ياقة قميصه، فانفزع، تراجع مسندًا ظهره على الحائط، وشهق شهقة طويلة مذعورة، بدا له أبوه ماردًا لا يُحتمَل، حاول الصراخ، لكن صوته انحبس مرغمًا، اقترب منه أبوه ثانية، معنّفًا، صفعه فارتجّت رأسه، وكان يصيح:

- القرآن يا ابن الكلب..

إنّ أباه لم يزل لا يستوعب مدى الإخفاق الذي ناله دون عمد، لا يد له ولا ذنب، انفجرت مِن عينيه الدموع، فهذا ما كان يخشاه، قضاء ليلة أخرى في حبس الغرفة، ومع الجدران الصمّاء التي كلّما انفردت به، شمتت فيه، قال أبوه وهو يعبث بشاربه:

- متى ستتعلّم إلّا تكون غبيًّا؟

فبكى أكثر، صاح أبوه:

لا جدوى مِن البكاء يا فالح، وراءك حتّى تصبح رجلًا.

رفع رأسَه نحو أبيه، لم يعد يُبصره بوضوح، مارد ذبلت ملامحه وانطمست خلف قسوة الوجه.

لقد دلّلتك كثيرًا...

ووسط البكاء، كاد يضحك، أيّ تدليل يا أبي! أمسكَ أبوه كتفه، وضغط عليه، سحبه نحو الغرفة، لكنَّ قدميه

استماتتا والأرض، أحسّ أبوه بذلك الإصرار، فركبه العند أكثر، وضغط على كتفه أكثر، وجزّ على أسنانه، تمنّى الولد لو أنّ أباه يدع له فرصة أكبر للبكاء، كيما يهدّئ مِن حرقة قلبه الملّحة، تلاحقت دموعه، وتلاحقت أنفاسه، عاود أبوه صفعه مجدّدًا، لم يعد ثمّة مكانٌ للاحتماء، ربما لم يَبق سوى الغرفة اللعينة، استحوذت عليه الفكرة، فلم يتمادَ في الاستماتة، وترك قدميه تقودانه نحو الغرفة، كان يشمّر شياطَ أنفاسِ أبيه، ويدُه تهوي أكثر فأكثر على صدغه، مثرثِرًا بعبارات لا مجال للتدقيق فيها، وطعم الدّم تسلّل مِن فمه إلى أحشائه، أبوه جذبه دفعة واحدة، وألقاه داخل الغرفة، بحث بعينيه عن شيء، وفي لحظة، كان الحبل في يده، ها هو العقاب يتدرّج، مرحلة قهرية أخرى، بلا أيّ رد فعل، استجاب الولد، قيّدَه أبوه في الكرسي، ورمقه بنظرة غاضبة، ثم أغلق الباب، وطلع.

ليس مِن إحساس قد يبدو أعظمَ مرارة، الظلمة نافذة داخل روحه، وروحه في عُلبة، والعُلبة غرفة رطبة، والرطوبة تكتسح بدنه، أغلق عليه أبوه الباب، وخرج، سمع صوت غلق باب الشقة، أدرك أنّه بات وحيدًا في الشقة بأكملها، فارتعد، هل يمكن أن يشعر به أحد؟ هل ثمّة أحد يتلظّى بالنار مثله؟ لا توجد صفقةٌ ملائمة للعفو، لا يوجد عفو أصلًا، لا يوجد إلّا الخوف الطليق في عقله، وفي روحه، أغلق عينيه، فتحهما بدون أن يكون أثرٌ لضوء، ظلمة عاتية، نافذة داخل روحه، وروحه في علبة، والعلبة غرفة... والجدران... هسيس خافت، وفحيح الثعابين، أكان لابدّ أن

يربّي أبوه الثعابين في المنزل؟ يرتعد أكثر، كتّفه أبوه عنوةً في المقعد، ولم يكن ثمّة مفرٌ مِن أن ينتظر مرور الوقت، وهو يوقن أنّ الوقت ها هنا أبدي، لا حيلة في جملة الأمر.

أصوات تَخرج من الجدران، واضحة حدّ الخبل، أصوات متباينة، الجدران أسفرت عن شماتتها علنًا، لكنّه كالَبَ أن يصطبر، دون جدوى، كان جسده يرتعش، ارتعاشاتٍ خاطفة متوالية، لا تتوقّف، ومِن فضاء الطرقات بالخارج تسلّل الخوف كاملًا، بدا وجيبُ مياهِ الترعة المشقوقة في الأرض أمام البيت بالخارج كلطمات تكتسح أذنَه، فيرتعش أكثر، وثمّة ظلال تنسلّ مِن بين فتحات النافذة، تحيط به في الظلمة، وتكتّفه، ولا حيلة له، الصخب - متشكّلًا في هيئة فزع عظيم يختلج أمام عينيه، تفح مياه الترعة وتفح، ويرتعش جسده أكثر، فأكثر، ومع رعشات جسده، أخذ خيط دافئ دفء الفجيعة ينسال مِن بين وركيه، أدرك أنّه ارتدّ لسنوات اللا إرادة، فبكى بكاءً لم يعهده مِن ذي قبل، وهو يتبوّل دونما سيطرة على أعصابه، والعَرق يغمر وجهَه، فرقبته، فصدره، لا شيء قد يأخذ فِكره بعيدًا عن المأساة، لا توجد فكرةٌ مِن الأساس، لا يوجد مشهد محدّد، تلاطمت أفكاره، وغاب في فرضية مأساته، عتمة الجدران تتربص برؤيته، غير أنّه تعوّد، مِن العقاب المتكرّر، وانتباهه المتجدّد إثْرَ الخوف، أن يكون بصره رغم المشقّة والتدقيق- حادًّا. فقط المساحة الشحيحة مِن ضوء عينيه هي التي تعينه بعض الشيء، لكنّها لا تكشف إلّا مسافةً قريبة شبه ثابتة، ويظلّ المجهول رابضًا كلّما التهم شيئًا

بعينيه مِن بدن الجدران، يظلّ المجهول في كلّ ظلّ يبدو له طيفًا، في كلّ شبر يقطعه بعينيه، ويظلّ هو رغم ذلك راميًا عينيه بإمعان خشيةَ هذا المجهول، ورأسه تغلي من الاحتمالات، الأصوات تتوارد، والترعة تفح، كمئات الثعابين، ينكمش أكثر، وصوت أبيه يتردّد مثل جملة قدرية:

- أنت مسكون بالشياطين.

فيكاد يصرخ فيه:

- إنّها الملائكة لو تَعرف يا أبي.

اللحظة الفالتة مِن مجرى الزمن دومًا ممتدّة، عنيدة، ولا تود المضي، إنّما سرعان ما تستعيده الجدران. تساؤلات مزمنة، وأفكار عقيمة، مِن أين تصدر الأصوات؟ لا يود أن يعرف، يكفيه إحساسه، حاول أن يوقِد ضوءَ عينيه أكثر ليتمكّن مِن تحديد ماهية الأصوات التي تخروِّش حوله في المكان، إنّما أخفق، الظلمة أكبر مِن الدعاء، أغلق عينيه وفتحهما، عاجزًا عن الفصل بين حدَّي الوهم واليقين، لكنّه حدّق في الظلمة مستغيثًا كي تمنحه عيناه شيئًا مِن بصيص، ثم أحسّ بملمس الأجنحة، فلمّا رأى، رأى صديقًا نورانيًا يطوف حوله.

أهو أنت أيّها الأمير؟

فعجز عن الإجابة.

- قَد افتقدناك منذ زمن.

حاول أن يرد، لكنّه أحسّ بالدوار، أحسّ بجسده كلّه

يتداعى، حاول أن يستكشف شكل صديقِه أكثر، إنّما كانت حرقة قلبِه أقوى، غير أنّ الجناحيْن ظلاّ يلطّفان كتمة الجو، وهُما يرفرفان حوله في تؤدة، عصر ذهنَه ليتذكّر ملامح صديقه، كلّ ما يذكره أنّ له ابتسامةً لم تكن كابتسامات البشر، لا تنقضي، ولا تزول، لا تتعكّر، أو تختفي، إنّما هي ابتسامةٌ حيّة كالأبد.

هزّ رأسَه، ثمّةَ خفوت في دقّات قلبه، وثمّةَ اضطراب، مستحيل أن ينقذه صديقُه، كان أولى أن يفعلها منذ زمن، تتراخي رأسه ببطء، وتعدو نحو المنطقة الرمادية في الوعي، وجواره أصوات حادّة تتصاعد، لم تكن بالضبط حادّة، ربما تشبه الطنين، لكنّها تسري داخل عقله كاحتكاكات نصلٍ ثلم بسطح معدني، تصاعدت الأصوات لتسترده من المنطقة الرمادية، فرفع رأسه قليلًا، كان صديقه قَد مضى، ربما لغير رجعة، لا أهمية هنا في مجمل الأمر، كانت الأصوات التي تعلو تحفّزه أن يتناسى صديقه، وينتبه لها، حتّى الوهم يمكن إدراك كُنه صوته داخل الرأس، غير أنّ هذه أبعد ما تكون عن الوهم، إنّها عنيفة، ذات نفوذ داخل عظام جسده، وترفُل في غموض مهيب، وفي ذعرٍ كان جسده في اللحظة التالية يقشعرّ وجرذانٌ تقرض لحمَ جسده، بدأ يتأوه، بلا طائل، الجرذان تصعد نحو وجهه، وهو مقيّد لا يملك غير الصراخ، فصرخ، حيث لا يسمعه أحد، صرخ وتداعى العالم أمام بصره، صرخ وجرذ أخذ يقتات داخل عينه، أحسّ بالدماء، إنّما لم يحسّ بالألم، عينه الأولى راحت، وليس مِن ألم، استسلَمَ للقرض، واستلذّه، ثم

ضحـك في هسـتيريا، وجـرذ آخـر يعبـث بمقتنياتـه السـفلى، اقـرضْ، لـم يعـد يهـم، الجـرذ ينسّـل مـا بـين فخذيـه، وليـس مِـن ألـم، كلّ مـا هنالـك أنّـه وحـين فقَـد مـا فقَـد- كان يـرى أبـاه "عثمـان الجـوّال" أمـام بـصره، كطاقـةٍ مِـن جحيـم، كلّ مـا هنالـك أنّ أبـاه - ولـو حـتّى أفجعـه مشـهد الدمـاء- بـدا مجـرّد غبـار سـوف ينفخـه فيطـير.

كلّ مـا هنالـك أنّـه، وبغـير أن يفكّـر، تخلّـص مِـن قيـوده، في هـدوء، وانتظـر أبـاه، فقـط ليُعلِمـه أنّـه قـادر عـلى التخلّـص مِـن كلّ قيـد، وأنّـه راحـل، ربمـا بـلا عـودة.

مسعود الأكبر

(12)

"لعلّكَ يا شيخي "إدريس" تريد أن تعرف لماذا أتحوّل في كلّ مساءٍ جديد لدهشةٍ غيرِ مسبوقة؟ لماذا يطيح بي الموجُ مِن مجاز لمجاز؟ لماذا يبقيني القدَر معلّقًا ما بين بين، فلا أنا شبح يُدرك شبحيتَه، ولا أنا إنسي نال آدميته، في النهاية لعلّ بعضَنا لا يسلَم مِن شطحة القدر! هنا صدّقني تفوق المعاني والألغاز تصوّرَ كلّ عقل، هنا على هذا الشطّ أراني بعد مئة عام، أرى أولادي وأحفادي يتساقطون واحدًا بعد الآخر، أدفنُهم بيدي، رغم ذلك لا أنتهي، واللهِ يا شيخي "إدريس" الغريب أنّني أذهب بعقلي في شتّى مناحي التفكير، لكنّي -قسرًا- أستعيد ذكرى ما كان، وليس باستطاعتي تقديرُ حجم مأساتي، هنا على هذا الشطّ أتوه ما بين حلم وآخر، إنّما الأحلام تَظلّ في النهاية سُحُبًا قد يراها العقل وسرعان ما تبارح السماء، فتنكشف الحقيقة ثانية.. إنّي لن أغادر هذا العالم الموازي إلّا عندما تنقضي الأرض، وتكون قيامةٌ جديدة. لو أنّ بوسعي ضمّ الحقيقة في صدري لفعلتُ، لقتلت اليأسَ ورشفتُ دمَه لا أبالي، لكتبتُ كتابًا يقدّسه الخالدون، ويذكره التاريخ سندًا لمشروعية الجنون، ليس في الأجواء غير حزنٍ بليد، وملامحُ مِن غدٍ قبيح ينتظر كلّ سلالتي، وماضٍ دامٍ يذكّرني بوقاحة القدر. أنا نطفة مِن غيب يبدو أسودَ، نعم يا شيخي، الغيبُ أسودٌ قاتم، ويبدو أنّ الألوانَ لا تغادر قوس قُزَح الذي يتجلّى لي في السماء، تستمسك بالأعالي خشيةَ أن تقتنصها أعين الفانين، يبدو كذلك أنّ اللونَ الأسود هو لون البشرية، دون تحيّز،

أو شعور باليأس، هكذا يجبلني القدَر أن أرفع رأسي لأترقب قوسَ قُزَح وأرى الألوان، كحلمٍ منالُه مستحيل، إنّما - ورغم كلّ مستحيل- أرى أنّ قوس قُزَح يدنو قريبًا، دون تحيّز أيضًا، ها هو يعانق طبقاتِ السماء واحدةً فأخرى انحدارًا كي يدنو فيتدلّى لي، فأستكشِف، فيعاين نسلي الألوان. إنّما لعلّها حقيقة ليس أكثر، أنّ الألوانَ - مع ذلك- مآلُها للأسود؛ لون البشرية كلّها مِن بعدي. قلتَ لي يا شيخي: مَن كان بلا وطن فحسبه كون الله، إنّ الفضاءَ وطن.. والسماء وطن.. والخيال وطن عظيم. أنا أعيش الآن يا شيخي في وطن الخيال، وأشتهي عودتي، عودة الزمن لحياتي، قلتَ لي يا شيخي: لكنّ القبر ظَلّ -وسيظلّ- أرحمَ الأوطان. هنا على هذا الشطّ- مكتوبٌ عليّ إلّا أعيش في وطن القبر، إنّ الخلودَ فكرةٌ عبقرية، لكنّها عبقرية الأسى، أعيش في وطن بات فيه الفناء فضيلة مرجوة.

أراني -جليًّا- بلغتُ مأربي، أراك يا "مسعود" عمرتَ القرية، كانت قرية ليست آهلةً إلّا بالعتمة، فزعتَ عندما خرج لك ثعبان الماء مِن الترعة، ووثب فوق كتفك، كان يستقبلك، ويبشّرك بنسل سيصاحبه امتدادًا مِن جيل لجيل، وثبَ فوق كتفك، وتمرّغ في بركتك، فطنتَ يا "مسعود" أنّ الثعبان يألفك، فرافقتَه، وبات صاحبك، لم تجد في القرية الصامتة واحدًا، كانت القرية مهجورة، يسكنها الجّن الذي أفزع سكّان الناحية، فهجروها، لكنّ الناسَ بدأت تنتبه إلى أنّ رجلًا جاء، فأقام بيتًا، وسكنه، ثم رأوا الملائكة وهي تفضفض بأجنحة مِن نور فوق بيتك، كانت الملائكة كلّ ليل لا يحلو

لهـا إلّا أن تُنصِـت لتلاوتـك، ففقـدتْ شـفافيتها، وتمثّلـت للنـاس، تناقَـل النـاس نبـأً حضـورِ شـيخٍ للقريـة، فوافـوك، ثـم اسـتمعوا لـك، فأيقنـوا بـك، وصـارت لـكَ حـضرةٌ كحـضرة جَدّك النّـبي عليـه الصـلاة والسـلام، فاسـتطابوا لحضرتـك، وأيقنـوا أنّ كلامَـك مسـتقًى مِـن عِلـمٍ وافـر، وإيمـانٍ صـافٍ، وأدركـوا أنّـك إذا تزوجـتَ منهـم شـملتهم البَرَكـة، فزوَّجـوك واحـدةً فاثنتـين، فثلاثـا فأربعـا.

أراك والحزن يملأ عينيك لموت صاحبك الثعبان.

لقـد صُمـتَ عـن الطعـام والـشراب خمـسَ سـنين يـا "مسـعود"

خمس سنين كاملة لم تنقصْ ولم تَزِد!"

الفصل
الثاني

(جابر)

(يتنقل البشر بين الخطايا، في استسهالٍ تنقّلَ فراشاتٍ بين الورود، الخطيئة لو تعرفون أقربُ اللذّات إلى النفس، ذلك إنْ لم تكن الخطيئة لديهم عُرفًا محمودًا)

جابر

(1)

وكنّا إذا ارتحلنا لأجلٍ غيرِ معلوم، نجهّز أنفسَنا كأنّنا سنرتحل للأبد، وتودّعنا أُمّي كما لو أنّنا لن نعود. رحلة الشتاء دومًا تخيف أمّي، فحيث الشتاء، حيث كلّ خطر لا يُحتسب، تُدرِك أُمّي أنّ أبي أهلكته رحلاتُه لأجل الرزق، بدا في الآونة الأخيرة يسعل حدّ أن يحمَرّ وجهه، ويكاد يلفظ أنفاسَه، قالت له كثيرًا اتركْ "جابر" ينوب عنك فقدْ اشتدّ عودُه. لكنّه كان يبتسم ويؤكّد أنّني - ومهما اشتدّ عودي- سأظلّ في حاجة إليه.

شتاءُ الصحراء، والريح الغادرة، والبرْد الذي يطقطِق العظام، هي رحلة الشتاء، وانعدام الأمان، والدواب التي تُكمِل سيرَها بمشقة. حطّ ركبنا في وادٍ بعيدٍ عن قريتنا، يضرب داخل الصحراء بعمق. كان النهار ينسحب بسرعة، وكان بحثُنا عن جحور الثعابين لم يُسفِر عن جدوى، وكان أبي يضع فوق جسده ضعفَ ما يكفي شابا مثلي، وكنتُ أراقبه وهو يتأمّل الصحراءَ كأنّه يسلّمها روحَه، كأنّه يوشك على السفر حيث لا يعود أحد، والسامر يبدأ ليلتَه مبكّرًا، لكنّه سرعان ما ينفضّ، وأظلّ ساهرًا، كان فؤادي وقتذاك ينبِئني بحدثٍ ما، مجهول، لم أفطِن له.

سـطت الشـمسُ عـلى أعيننـا في الصبـاح التـالي، وكان أحـد صحبتنـا يهـرول صائحًـا:

- جُحر يا شيخ "مسعود".

تجهّزنـا، أمسـكَ أبي الفـأسَ، وعدونـا نحـو موضـع الجُحـر. أخـذ أبي يـدور حـول الجُحـر، يتخـيّر مكانًـا لضربـة الفـأس، في يـده الفـأس، وفي قلبـه العـزم، ثـم برفـقٍ؛ وفـوقَ نتـوءاتِ الصخـرِ غـيرِ المستويةِ الـتي تحـوّط الجُحـر الغائر داخـل بطـنِ التـل يسـقُط بهـا، فيفتـت رويـدًا عـبءَ الأحجـارِ الملتحمـةِ ببعضِهـا البعـض أسـفلَ التـل منـذ سـنواتٍ لا يُعـرُف عددُهـا.

بحـذرٍ وتمـرّسٍ ظَـلّ يهـوي بالفـأسِ عـلى جوانـبِ الصخـر والشـمسُ هـذا الوقـت تعتـلي بخُيَـلاء جسـدَ السـماء.

ظللنـا واقفـين في المـكانِ نباعِـد الصخـرَ عـن مدخـل الهـوّة السـوداء العميـق، فيمـا تتكشّـف لنـا - كلّمـا تسـاقطت شـظايا الحَجـر والحـصى- بواطـنَ الجُحـر.

ثـم سـمعنا الحشرجـة، حشرجـة خافتـة، كانـت وبـطء شـديد - مـع كلّ تفتّـت ينسـلخ كالأشـلاء مـن الصخـرة- تتحـوّل إلى فحيـح مدافـع، إلى أن لاحـت لنـا العينـان، ترمقاننـا بتحفـزّ. مـدّ أبي بيـده عصـاه الرفيعـة، فانقضّـت عليهـا الحيّـة، ثـم تراجعـت في مَكـر، كانـت متشـنجةً متوثبـة، منهـا يبـدو اسـتعداد تلقـائي للمعركـة، أحـس أنّهـا غاضبـةٌ فـراح يتلـو:

_(اللّهـمَ اطمـسْ بطلسـمِ بسـمِ اللـه الرحمـن الرحيـم سرّ سـويداءِ قلـوبِ أعدائِنـا وأعدائِـك، ودق أعنـاقَ الظلمـةِ بسـيوفِ

قهـر سـطوتِك، واحجبنـا بحجبِـك الكثيفـةِ عـن لحظـاتِ أبصارِهـم الضعيفـة).

بعدَهـا ناوشَـها بطـرفِ العصـا ولـم يسـتغرق، اسـتجابتْ بسرعـة وهـدأت، فاقـترب منهـا، واقتربـتْ منـه. كانـت تزحـف خـارج الجُحـر بتوجّـس لحظي، أدرك أنّهـا أنثى سامة مِـن نـوع "الكوبـرا"، حيـث جعلـتْ تدنـو منـه وهـي تلـف شـمالًا ويمينًـا، تاركـةً تعرّجـاتٍ فـوق الـتراب، لكنّـه كان يداعبهـا بالعصـا ويتحسّـس الحلقـة السـوداء حـول رقبتهـا، وبهـدوء شـديد، وحيطـةٍ أشـد -إذ كان يعـي أنّ هـذا النـوعَ غـادر- أمسـكَ بهـا، رفعهـا أمـام وجهـه فأخرجـتْ نابَهـا وهـي تصـك مِـن وسـط رأسـها، وجهـه بعيـد عـن وجههـا والسـم الـذي تبخّـه مِـن بـين نابيهـا لـم يطلـه، في سرعـة أخـرَجَ مِـن جيـب جلبابـه إبـرة رفيعـة يتـدلّى منهـا وبَـرٌ ناعـم وأخـذ يخيّـط الجـزء الأمامي مِـن فمهـا، بحـذر، وبعزيمـة خاصـة تسـمى "الكفكفيـة"، طقـوس لا تـدرَك إلّا مِـن رجـلٍ تنقّـلَ بـين اختبـارات طائفـة "الجوّالـة" ومراحلهـا، مِـن محـبٍ إلى عـارفٍ إلى مريـد، ولُقّـن العهـدَ مِـن أبيـه شـيخ الطريقـة يـدًا بيـد، وتـلا لـه الإجـازةَ سرًّا، مرحلـة بلغهـا لمّـا قـرّر جَـدّي "نعمـان" أن يَنقـل لـه العهـد.

الأفعـى كانـت سـاكنةً سـكونًا عجيبًـا بـين يديـه، دفسـها داخل سـلّة الخـوص المسـماة "المرقومـة"، غـيرَ أنّهـا، بعـد أن اطمـأن لاسـتكانتها داخـل "المرقومـة"، وبسرعـة لا تُسـتدرَك ولـم يكـن يتوقعهـا، قفـز الغطـاء الـذي أوشـك أن يُحكِـم قوّهـةَ السـلّة، وطـارت الحيّـة في الهـواء لتسـتقر فـوق كتفـه الأيمـن، تسـمّرنا قليـلًا وعيوننـا متعلّقـة لأعـلى بعينيهـا اللتـين راحتـا تتطلّعـان

إلى أبي بظفر، وتومضان، مرّت برهةٌ وجيزة، احتوته خلالها داخل فضاء عينيها الموحش، فعجَز عن التحرّك، كانت نظرتُها كفيلة ببث ولو نغزة مِن رعب في عمق إحساسه، شعر بها تبتسم في ظفر، ضاعت خبرةُ السنوات في لحظة التربّص التي أرغمته الأفعى على الشعور بها، ثم نشبتْ أنيابًا تسيل منها قطراتٌ مِن دماء، بعد أن مزّقت مقدمة فمها المخيّطة، ولم تتركه إلّا وهو يفترش الأرضَ وجسده يرتعش ارتعاشة أخيرة.

انكفأنا فوق أبي، مدّ يدَه نحوي وبادرني بابتسامة، لكنّي كنتُ جزِعًا، قال أبي:

- قَدرنا يا "جابر

قلتُ في حرقة:

- لم يكن قدرنا أن تصرعنا حيّة.

ابتسم أكثر:

- قدر "الجوّالة".

لم أعرف كيف أصرخ، ولم أعرف كيف أستعيده، لكنّ الذي فعلتُه كان السكوت، وتابعتُ الحيّةَ الهاربة، كانت قد ودّعت الجسدَ المسجّى فوق الرمل بنظرة متشفّية، ثم مضت تغوص باطمئنان في بحر الرمال الهادئ مِن دون أن تلتفت للوراء، إذًا هذا أوانُ أن يملأني الأسى كما لم أعرف مِن قبل، لا يا أبي، إنّ الحيّاتِ صاحباتُك فلا تذهبِ الآن، سوف يُحبط الكون مِن فكرة أن تغادره، فلا تفعلْ، باللهِ يا أبي

انتظـرْ، لا تنظـر بعيـدًا، ابـقَ معـي.

كان أبي قـد مـضى، وكانـت الحيّـاتُ قـد تجمّعـتْ حولنـا متوثبـة، نهضـتُ وبقدمَـيّ رحـت أضربهـا فراحـت تتطايـر حولنا، وددتُ لـو أسـحق حيّـاتِ العالـم تحـت حـذائي، كنـت أضربهـا وأنـا أصرخ، وكان النهـار يمـضي، ببـطء في هـذه اللحظـة.

ولـم أدفـن أبي، اتّهمـني "الجوّالـة" بالكُفـر بعدَهـا، فليكـن، حملتُـه وصعـدت بـه إلى حيـث اسـتقر جَـدّي "طلحـة"، حيـث سّـن الجبـل، وقـرّرتُ أنّي سـأحنّطه، ليبقـى أمامـي صامـدًا ضـدّ تعـرّي الزمـن، ثمّـةَ أيّـامٌ طويلـة أخـذتْ تمـضي وأنـا في معـترك الحـيْرة لـم أزل، كيـف أحنّطـه؟ اعـتراني صمـتٌ بديهـي، وتسـاؤلاتٌ مجـرّدة مِـن انتظـار إجابـة، وكنـت قـد بلغـتُ ذروةَ الجنـون.

كان الجبـل يخـترق الأفـق بسـنّه الـذي لـم يكـن يبـين، ولـه سـطوةُ تسـاؤلٍ قديـم، هـل أنـت الجبـل الـذي عـاش فيـك قديمًـا جَـدّي "طلحـة"؟ وفي غضـون لحظـات سـماوية، حـطّ طـيرٌ عـلى سّـن الجبـل، وكان يحـدّق نحـوي، ثـم فجـأة زعـق، فاهـتزّتْ رأسي، كأنّ زعيقَـه يـأتي مِـن أرجـاء بعيـدة لكنّـه مـدوٍّ، أفزعـني، لكـنّي لـم أكـترث، ثـم كان أن تركـني وطـار بعيـدًا، بعدَهـا رحـت أنتحـب مثـل قـدرٍ مأسـاوي.

بقـرتُ بطـنَ أبي، ثـم أفرغـتُ جوفهـا، كانـت دموعـي تتسـاقط داخـل فـراغ بطنـه، إنّمـا رحـت أعمـل عـلى تنظيفهـا وبجعبـتي كلّ المـواد الـتي -اعتقـدتُ- أنّهـا كافيـةٌ لتحنيطـه.

رغـم ذلـك، بـدأت تفـوح رائحـةُ أبي بعـد أيّـام، لـم أدرِ لماذا

يجبرني القدر على دفن أبي؟ أنا أريد أن أراه في كلّ لحظة. ومع تهالك جثّته، خضعتُ مستسلمًا للقدر، ونزلتُ القرية أدفنه.

لم تستقِم الأمور مع "الجوّالة"، ظنًّا منهم أنّي حتمًا جُننت، لم يقيموا عزاءً حيث لم تُدفن جثّته بعد، فلمّا قرّرتُ دفنها، تيّقنوا أنّي عدتُ لرشدي، ولم يفهموا أنّي أخفقتُ في مسعاي، وكان عزاءُ أبي الذي لم أحضره.

اليوم، باتت مهنةُ أبي إرثًا لابدّ أن أحملَه وأطوف به بين البيوت، استوقدتُ في داخلي الهمّةَ لتسديد الضربة النافذة نحو قدَر "الجوّالة"، لن أموت بلدغة لئيمة أبدًا، فإذا مِتّ، فإنّما يكون ذلك على يد قدرٍ آخر غير قدر "الجوّالة"، هكذا كانت تمضي بي السنون.

تنقّلتُ مِن بيتٍ لبيت، ومِن قريةٍ لقرية، صادفتُ كلّ شرّ، ولم أصادف الخيرَ إلّا قليلًا، ثم كانت التي بها استكملتُ حياتي.

"خديجة" ابنة "عبد الحارس".

أخرجتُ مِن جسدها السّم، ومِن وقتها وسّمها الحلو يسري في جسدي ولا يريد أن يَخرج، حدّثتُ أمّي عنها فقالت:

- هؤلاءِ يا ولدي أهلُ عزّ ومقام، لن يقبلوك زوجًا لابنتهم.

ونحن يا أمّي أهلُ مقام.

- لا يا "جابر"، مقامنا مقام الأفاعي، ينظر لنا الناس كأنّنا

أدنى الخلـق، فـلا تعشـم في بنـت "عبـد الحـارس"، وسـأزوجك خـيرًا منهـا.

- لن أتزوج غيرَها.

صمّمـتُ أن تكـون لي، سـواءٌ أطوعًـا أم رغمًـا، إنّهـا تختلـج بداخـلي منـذ رأيتهـا، والمقـام الـذي تتحـدّث عنـه أمّي لا يعدو كونـه أكـثر مِـن هبـة اجتماعيـة، إنّ "الجوّالـة" أعـزّ نفـرًا وأرفـع شـأنًا مِـن كلّ عائـلات الـبر.

بعدَهـا، كان الجّـنُ الـذي أحـرق قريـة "خديجـة"، والـذي - بعـون اللـه- أخرجتُـه مِـن جسـدها.

وكان شَرطي أن أتزوجَها عقب ذلك.

عبد الحارس

(2)

قِيلَ له إنّ ردْمَ الترعةِ سوف يجلب نكباتٍ لم تشهدها القريةُ مِن ذي قبل، ثمّةَ سكّانٌ للترعة أيضًا، ربما لا يرونهم، إذا استفاقوا على القرية بدّدوا راحتَها، بدأت أعمال ردْم الترعة وبدأت معها الويلات، هكذا فكّر "عبد الحارس" وهو ينبش في هيش الضفّة باحثًا عن العمل المكتوب بخطّ جن مريد ليقلقوا راحةَ ابنته "خديجة" البائسة، إنّه لم يعد يدري حتّى كيف أو لماذا يسحرون ابنتَه! كان ينبش بعصاه في الضفة التي لم تطلها أعمال الردم بعد، كاتمًا أنفاسَه مِن عفن رائحة منبعثة، والشمسُ في ظهره، والنهارُ موطن السعي، ليس ثمّةَ مِن بَشرٌ حوله، والقريةُ ككلّ تلك القُرَى المختبئة في متْن البلاد، تسير بين ساقيها ترعةٌ محفوفة بالضجر، تلتئم على جرحٍ نافذٍ قهري، يمضي دون هوادة ليبشّر الشمالَ بزهوه، تمضي معه مياه الترعة متجانسةً، مستأنسة، فتكتسب الكثيرَ مِن عفن الجُرح، ويستوطنها سوادٌ غير متبدّل، لا ليلًا، ولا نهارًا. وفي الترعة هذه، دامَ حدوث ما يناسب تمامًا تعكّر صفو ساكني القرية؛ ذلك إنْ بدا تعكّر صفوِهم شيئًا يسيرًا أو وشيكَ الحلول، إنّما على أيّة حال، يختلّ مزاجُهم كثيرًا جرّاء احتواءِ الترعة مرّة على حشائشَ تظلّ تتراكم وتتراكم حتى تصير عائقًا يحول دون عبور المياه في مجرى سلس فيختبئ بين تلك الحشائش خبثُ كلّ ما هو آتٍ مِن الجنوب؛ قمامة البشر.. زهق الأمكنة التي تأخذ في إطلاق سائر أثقالها نحو الشمال.. كذلك ربما غضب غير محسوس، يأتي منفوثًا بين خدود

الماء، ليتكوّم سادًّا كلّ منافذ الترويح عن القرية، يراه الناسُ في أكثر مِن هيئة؛ بهائم نافقة تعبئ روائحُ جيّفها صدرَ السموات غِلًا، فيضطرّون -ا ضطرارًا قسريًا- للنزول في عبّ المياه وزحزحة أكوام الحشائش بالعصيّ وأوتاد الخشب كي يجد الماءُ مسلكَه التلقائي إلى الشمال، هُم يرّحبون تمامًا بفكرة أنّ الماءَ موطنُه الشمال، بل يرّحبون أكثر بفكرة أن يأتي يوم يَذهب فيه الماء ولا يرجع، ببساطة هكذا، كما لو يؤمنون بهذه الفكرة إيمانَ الفقهاءِ بالمقدّسات. وربما في نوبات استثنائية يجيء - مع عبء الجنوب- ما هو أدهى، كرائحة غريبة النفوذ؛ قَد تجوب محيطَ البيوت أيّاما ثلاثة وربما أكثر، لذلك تقدّم بعضهم بشكوى فاضطرت الحكومةُ لردم الترعة؛ والتي يَرى الناس أنّها بلا جدوى، فهُم يسقون أراضيَهم عن طريق الترعة الشرقية الكبيرة، الموازية لهذه الترعة.

ظَلّ "عبد الحارس" يذلّل عصاه نافذًا أكثر داخل بطن الحَلفاء والهيش، قالوا له إنّ العملَ مختبئ هناك، سِحرًا لابنته وتشتيتِ عقلها، ولابدّ أن يَعثر عليه، وإلّا بقيّت ابنتُه مربوطة لا تُعرَف لها رأسٌ مِن قَدم. بعد قليل سمع خروَشة، قادمةً مِن جهة السفح، بداية الأمر، لم يستشعر ما قد ينجم، إيعازًا ساذجًا بأنّ الأمر لن يعدو كونَه جيفةً وسيحرّكها ثم يستكمل بحثَه، هبط لجوف الترعة، بسرواله الفضفاض المحزّم بأستك رحْب، وعلى النصف العلوي، مشدود صديري، شمّر ساعدَه، وأخذ يمدّ عصاه مستشعرًا، ظَلّ ينبش بها فترةً بحرص، خشيةَ مداهمةِ ثعبان، وثعابين

الترعة هنا - للعلم- فتّاكة لا ترحم، سُمّها يُشعل الجسدَ في لحظة، فلا يُسعِف الملسوعَ ولا "جوّالة" الجحيم كلّهم.

كانت عصاه قد مضت في الولوج الحَذِر داخل عُباب الحشائش العَطِنة، تتحسّس لها مَنفذًا يمكّنها مِن بلوغ الجيفة، فتشدّها للخارج لتطردها مع المياه إلى الشمال، ومِن ثَمّ؛ وثَبَ ورلٌ مقزّز الهيئة، تراجع "عبد الحارس" خائفًا، دار بعينيه حوله ولم يكن رَجل أعلى الضفة، لكنّه استدار نحو الورل ثانية، كان ورلًا مستأسدًا، استند برِجلٍ على حافّة السفح الواصل بين الضفّة والماء، وبأرجلِه الثلاث الباقية أخفى جسدَه عن تلصّصه، كاد ينقضّ، لكنّه تلفّتَ فأيقن مِن استحالة بلوغه جسدَ "عبد الحارس" مِن تلك المسافة البعيدة، وراح بعينيه المليئتين تساؤلًا ينهش الإجاباتِ في حيْطة، كأنّه يوبّخه على دخوله عالمه بذلك الشكل الفجائي، ويستحثّه إنهاءَ ما وفِدَ لإنهائه، في سرعة، وحذرٍ أيضا، وإلّا رجّحَ طبيعتَه واستمسك بساعده. كان "عبد الحارس" يدرك أنّ الأورالَ في منطقتهم لا تَخرج إلّا بجزء كبير ممّا تلحقه من لحم الضحايا، فإنْ قفز ورل على ساق، وقتئذٍ لابد وأن يبترَها، أو يدميها باستحالة الشفاء، وإنْ طال يدا، فهالِكٌ صاحبُها لا محالة، ومصابٌ بعاهة مستديمة. يحدج الورل، وبدوره يحدجه، يستأذنه أن يدعَه يُنهي مهمّتَه، ويستجديه الانصرافَ كي يختلي في عزلته بين الحشائش. لم يحرّك ساكنًا، عيناه فقط كانتا تدوران في هلع حوله، وبداخلهما ريضَ سخطٌ عظيم، والتحفّز بدأ يبدو بتقلّصات أرجِله عقب ذلك، حين أخذ يتململ، ثم

يـزوم، ثـم في حركـةٍ مباغتـة نـطّ في الميـاه، غاطسًـا لعمقهـا، غائصًـا باتّجـاه الجنـوب، يدعـوه في لفتـة كريمـة أن يسـتكمل لحظـة البحـث، بـشرط أن يمـضي بعدَهـا.

تجـوب العصـا بـدنَ الحشـائش ثانيـة، في بحـثٍ بـدا لـن ينهكـه طـول وقـت، والشـمسُ أفرغـت نفسَـها لقرع غشـاء رأسـه الصلعـاء، أو الحليقـة لأدنى درجـة، والعصـا تنسـلّ، ببـطء تأخـذ في الاختفـاء داخـل جـوف الحشـائش، وببـطءٍ يمـضي في التحـرّك معهـا، بخطـواتٍ وئيـدة خافتـة شـديدة الخفـوت، لعلّـه يخـشى عـدول الـورل عـن قـراره، وبدنـو جسـدُه لمرحلـة انتصـاف خـطّ الميـاه عليـه، كانـت الرائحـة أزمـةً حقيقيـة، لا يحتملهـا لا إنـسٌ ولا جـن، رائحـة يتخالـط فيهـا العفـن الأصيـل بالنشـادر بالكحـول، وبعنـصر غريـب، لـم يشـمّه أحـد هنـا قبْـلًا، ناهيـك عـن أن يكـون ضرطـة إبليـس في حـدّ ذاتـه.

تتبعـثر دماغـه نحـو مجهـولٍ أوشـك فضّـه، والتسلسـل الرتيـب يقبـض أنفاسَـه رغـم ذلـك، موجـات واهنـة تـدور تتدافـع في أنـاةٍ اتّـساعًا باتّجـاه الضفتـين، مـع كلّ حركـة يتّخذهـا قُربًـا مِـن مكمـن العفـن اللئيـم، ثـم بـدا استشـعار الخطـر، حيـث أخـذت الكتلـة الصمّـاء -والـتي حتمًـا ببروزهـا هكـذا تـمّ اسـتبعاد كونهـا جيفـة- تسـتدير نحـو وجهـه، تسـتدير في بـطء وفي غرابـة، تسـتلب رويـدًا كامـلَ انتباهِـه، ومـع اسـتدارتها، تنحـدر العصـا للعمـق في لا إرادة، وتنحـدر عينـاه تسـتوثقان، وتحيـط الاسـتدارة بنظـرات هـي ذروة الانفعـال الجليّـة، وتدنـو.. تدنـو بهـول مـضى يجتـاح الأنفـاس.

- جثّة...!

كاد يستعدلها بعصاه لتنطلق، وهو يسدّ أنفَه بأصابعه، لكنّه يُدرك أنّ هذه الجثّة سوف تركن عند نهاية خطّ الردم، ليس مِن معبرٍ لها وقد سدّ مجرى المياه، إنّما في روْعٍ أخذَ يتأمّلها، كان شيخًا طاعنًا، عضّت الأسماكُ وجهَه فبدا في معظمه مليئًا بالشقوق، وكان يتأمّله كذلك بنظرة حجريةٍ بحتة، بدا أنّ عينيه ما زالتا تحملانِ أواصرَ الحياة، غير أنّ ذلك - بصراحة تامّة- لم يُخفِ حُسنَهما، ولم يُخفِ شامةً داكنة كانت تكلّل خدّه الأيمن.

استعاذ بالله، وسَحَب الجثّة، ثم ساقها بعصاه فجَرتْ مع الماء نحو شمال الترعة، وقال في بالِه يكفيه همومه، إنّ الحكومة أولى بتدبير شئون الجثث النافقة، واستقصاءِ طبيعة موتها.

كانت الشمس تعود للوراء، وهو لم يزل ينبش في منطقة الحَلفاء بعصاه، ويمسح بظهر كفّه العَرَق، وتساءل: أكان لابدّ مِن ردم الترعة؟ بعيدًا عن الأوبئة المفترضة وبعيدًا عن تبدّل معالم القرية، فإنّ لعنة إقلاق سكّان الترعة قد نالت ابنتَه، ومسّت بيته، بل مسّت القريةَ بأكملها.

يومَ شرعوا في ردم الترعة، يوم حلّ الحدثُ العظيم، لكنّهم لم يفكّروا، واستكملوا ردمَ الترعة بعدَها.

ذلك حيث فجأة حلّت اللعنة...

ذلك عندما هدرت المياه وزامت، وبدأت في التصاعد

لأعلى فيما يشبه معجزةً قد لا تحتويها الأذهانُ في القرية.

كان الرجال واقفين، على شطّ الترعة، وبعضهم من الغاطسين في عبّ المياه ارتاع، ثم لم يُبدِوا ردّ فعل، ثم خرجوا مهرولين، أو كادوا يخرجون، لولا أن سبحت بهم المياه واستقامت نحو الأعالي، واستعصى عليهم الفكاك، المياهُ التي انفجرت إلى أعلى ضربت النخل، النخل العالي الواقف عاجزًا عن الرؤية، والذي كانت تستظلّ بسباطه منذ بعيدٍ الترعة سوداء المياه -المندفعة داخل خطّين مِن نبات الحَلف الحاد- والذي انحنى مستفسرًا، وأسقط مِن عليه ثمار التمر القليلة المتناثرة - عفوًا- والجافّة.. دموعًا.

وأولاد القرية بعضُهم عرايا إلّا مِن لباس متهالك أو "جوز شباشب" يخلعونه - اعتياديًا- على ضفّة الترعة ويلعبون "السيجة والحجلة"، الأولاد آخر هذا النهار البائس، والمشهد اكتماله في كارثيّته، والتراب أسفل أقدامهم جمرٌ اعتادوا على لسعه، جرّوا بعيدًا عن الترعة واختبئوا وراء بيت "أبي الهول" وتركوا "شباشبهم" على الترعة - مع بقيّة الرجال- خوفًا.

أمّا "جهلان" السكران ليلَ نهار، المتطوّح، المُراقب حلول المأساة -في بدايتها- بعينٍ لا مبالية، اعتقدَ أولَ الأمر أنّ الخمرَ قَد سيطرت على رأسه حين وثبتْ في حِجره قراميط الترعة.

"جهلان" السكران بعد وقت أفاق، دَعَكَ عينيه ورمى كلّ القراميط التي تلعب في حِجره وركض، خلع هو الآخر "الشبشب" مِن رِجليه وجرى، لأول مرّة في حياته يفيق بمثل

هـذه القسـوة والعجـب، جـرى داخـل الـدرب نحـو الحريـم الواقفـات بشـعورِهن تحمـل ملامحـه ذعـرَ الدنيـا كلّـه وهـو يـصرخ في لوثـة:

- أخرِجوا الأولاد مِن الترعة.

إنّما الحريـمُ عيونهـن معلّقـةٌ بالسماء، عيـون ملتاعـة تهبـط مِـن داخلهـا شـلالّاتٌ مِـن مِلـح، رجالهـنّ وأولادهـنّ الذيـن كانـوا يعبثـون في الترعـة منـذ قليـل الآنَ يسـبحون في الهـواء، بشـكل هسـتيري، وعامـود مِـن مـاء الترعـة يجـري صاعـدًا لأعـلى حامـلًا رجالَهـنّ وأولادِهـنّ يـدور بهـم بشـكل حلـزوني. الأسـماك والقراميـط مِـن داخـل كيـان هـذا العامـود المندفـع إلى أعـلى قفـزوا عـلى القريـة مِـن فـوق، البيـوت فزعـت، والحَلْـف الحـاد المنتصـب تقـوّس، الأولاد المختبئـون خلـف بيـت "أبي الهـول" الوحيـد المبـني مِـن طـوبٍ أحمـرَ خائفـون، ملتصقـون ببعضهم البعـض.

قامـت الميـاه وصبّـت نفسـها عكسـيًا عـلى صـدر السـماء، كَـمْ أنّ لـكلّ عبـثٍ ردّا قديريـا! لـم يقـدّر أحـد أنّ ردم الترعـة سـيأتي بلعنـة كهـذه.

هي التباس شيطاني أكيد.

فأيّ غضبٍ إلهي؟ وأيّ شقاء؟

الرجـال والأولاد أياديهـم تـضرب الهـواءَ بغـير هـدى، وبقلّـة حيلـة، وأرجلُهـم تـركل هنـا وهنـاك في عجـز، والميـاه غاضبـة، نافـذة نحـو وجـه السـماء المتجهّـم، الـذي نبـض فيـه عِـرق مِـن لـون الـدم، هكـذا كان عليهـم أن يعرفـوا عـن أولى لعنـات

ردم الترعة.

- جِن ملعون.

- يعني كان لابدّ يردموا الترعة.. قلنا يا إخواننا لم يكن لزوم للشكوى!

- الجنّ غاضبون.

- تُرى هل سيكتفون بفعلتهم هذه؟

طبعًا لم يكتفِ الجنّ بمثل لهوٍ بسيط كهذا، في مساء تلك الواقعة، أضرموا النارَ في القرية شرقا وغربًا. قال "عبد الحارس" في نفسه وهو لم يزل يعبث بعصاه بحثًا عن العمل السحري المزعوم:

- آخرة وجزاء مَن لا يسمع كلام الحكماء...!

كأنّما يرى النار والدخان يتقاطعان نحو جوف السماء..

في ذلك المساء، لم تكن القرية قَد تأهّبت للعنة جديدة، وفوجئ الجميع بطقطقة خشب الأسطح، وفرارِ البهائم مِن الحظائر، وعويلِ النساء، البيوت تحترق، ويحترق معها عزمُهم، لا توجد مأساة أكثر علانية مِن هذه! في الصباح تطير المياه، وفي المساء تطير النيران، وبين هذا وذاك، يطير جنٌّ بأجنحةٍ مِن رماد، يطير حولهم عابثًا، ويضحك ضحكاتِه الجنونية، لم يَره كلّ أهل القرية، ولكنّ الذي رأى أصابَه الخبَل، والذي رأى أفصح، والذي أفصح كان يرتعد:

- شفت "الريحاني"* والله شفته يطير. هكذا تيقّن الجميع

* الريحاني: اسم يطلق على الجن الطيار نسبة إلى الريح.

مِن أنّ الجنّ "الريحاني" الذي يطير يقتصّ مِن القرية، وأنّه غاضب، وأنّ ويلَهم ويلٌ لم يشهده بشر.

آذانُ العصر، والعصا لم تجد بغيتَها بعد، السحر تلاشى في حشاش الحَلْفاء والهيش، هو واهِمٌ لو اعتقد أنّه سوف يجد العمل، في زمان غير هذا، كان يرى العفريتَ ويستهزأ به، كان يراه حينًا ممدّدًا مثل جذع نخلة عملاق بعرض الطريق، فيستأذنه العبورَ متهكّمًا، أو كان يراه ثعبانًا له عينانِ مستديرتان، فيصرفه بتلاوة بعض القرآن، الآن العفاريت ازدادت وعيًا وشراسة، وباتت تعرف كيف تستوطن أعمق منطقةٍ خائفة في أحشاء البشر، أصبح الجنّ يتمرّد على عهده مع سيدنا "سليمان"، ويَظهر دون رقيب، ويُفزِع الناس. انكفأ "عبد الحارس" يتفكّر، رفع رأسَه للسماء مناجيًا، التدابير لك يا رّب. بعد قليل كان يجرّ عصاه خلفَه مستسلمًا، عائدًا بخفيْ حُنين، إنّ ابنتَه استولى عليها الخرف، وجرّب كافّة المعطيات الممكنة، لفّ بها شرقًا وغربًا، دون جدوى، لم يترك قساوسة أو مشايخَ إلّا وعرض ابنتَه عليهم، كلّهم بدوا يصطنعون الدرايةَ والخبرة، لكنّ واحدًا لم يُسعفه، هذا بحديث، وذلك بآخر، حتى عافت نفسُه الطقوسَ التي كانت تُجرى على ابنته صَرفًا للجنّي الذي يركبها، وقرّر ألّا تذهب ابنتُه لدجّال آخر، هُم في النهاية يتكسّبون ولا ينفعون، لم يبلُغ أحدٌ موطنَ الأذى في جسد ابنته، كان عليه بعدَها أن يلجأ لـ"عديلة"، قالوا عندها الدواء.

"عديلة"، تلك التي تعيش فوق ربوة التّل، ولا تتكسّب مِن معالجة الأرواح الملبوسة والأجسام المصابة، تعتزل

النـاس، فيأتيهـا النـاس بشـكواهم وحاجتِهـم.

صعـد لهـا، وكانـت ابنتـه لا تتحـدّث إلّا لِمامًـا، ولا يروقهـا ملامسـة بَـشري، حـتى إخوتها وأمّها، رآهـا تجلـس وحولهـا نـار هادئـة، اطمأنـت لـه، فاشـتعلت النـارُ أكـثر، جلـس، ابتسـمت "عديلـة"، وكان فمهـا يخلـو مِـن أسـنان، طاعنـة في السّـن، لكـنّ عينيهـا تحمـلان بداخلهمـا عافيـةً ليسـت لإنـس، دنَـتْ بأناملهـا مِـن ابنتـه ثـم سرعـان مـا تراجعـت وعقـدت حاجبيهـا، قالـت لهـا:

- إنّ بلواكِ ليست في جسدك.

حـاول "عبـد الحـارس" أن يفطـن لمغـزى كلامهـا، إنّمـا آثَـرَ أن يتابـع دون أن يقاطـع، فأكملـت:

- والذي نفسي بيده تشعّبت دروب مصابكِ.

ثم استدارت إليه، وقالت:

- ائتني بديكٍ أبيضَ وجِلدِ ثعبان ودهن أرنب برّي.

في اليـومِ التـالي، أحـضر "عبـد الحـارس" كلّ مـا يلـزم "عديلـة"، ورأى ابنتَـه وهـي تتلـوّى، رأى كذلـك فقـدانَ الأمـل أمـام عينيـه، فـإذا كانـت "عديلـة" بـكلّ بَرَكاتهـا خافـت مِـن الجـنّي الـذي يربـض داخـل جسـد ابنتـه، لا أمـلَ إذًا. كانـت عـروق "عديلـة" قَـد نفـرت كلّهـا، وكان العَـرَق غمـر وجهَهـا، اسـتدارت نحـوه وقالـت في صـوت متهـدّج:

لا قـدرةَ لي عـلى هـذا يـا "عبـد الحـارس"، إنّـه سـلطان مجـوسي كافـر.

كاد "عبد الحارس" يطبق على رقبتها، لكنّه لملَم ابنتَه وانصرف.

الحل الوحيد عَرَضه عليه "جابر الجوّال"، باستطاعته أن يُخرِج المجوسي مِن جسد ابنته، بشرط أن يزوّجها له، اضطرّ أن يَقبَل، لا لشيء غير أنّه يعلم أنّ أولئك "الجوّالة" ألعنُ مِن الجّن أنفسهم.

خديجة

(3)

جبّانـةُ قريتِنـا تسـبَحُ بـين البيـوت في إكبـارٍ ورهبـة، تتوسّـط ألغـاز الغُـرف الموصـدة، وتتلصّـص عليهـا، تصنـع حائـلًا أبديًـا عـن منتهـى اللّهـو، فـلا اللّهـو يكتمـل بـين الجـدران الطينيّة، ولا البيـوت توُصـد بمطلـق الإغـلاق. امتصّـت البيـوتُ مِـن الجبّانـة رحيـق الوحشـة، ودامَ اللّيـل سـميرًا مقبـولًا للمـوتى المترصّديـن، يجـيء في ملكوتـه ليلـة بعـد ليلـة، ويبسـط أجنحتَـه المعتمـة المُقبضـة فـوق الجبّانـة وفـوق البيـوت، لتختـبئ التفاصيـلُ برمّتهـا في عباءتـه ذلـك الاختبـاء المفـروض قسـرًا.

جبّانـة قريتِنـا أبعـد مـا تكـون عـن العُزلـة، أرى الأمـواتَ حقًّـا، أراهـم ولا أخشـاهم كثـيرًا، في النهايـة يطوفـون هـذا الطـوافَ السريـع ويعـودون لمضاجعهـم في هـدوء.. وفي رصانـة، يتواءمـون مـع الانتهـاك الاعتيـادي تواؤمًـا جبريًـا، لا أظـنّ لهـم حيلـة إلّا التـواؤم، في النهايـة يدركـون أنّمـا هُـم أرواح لا مسـاس بشـفافيّتها، والأجسـاد بائـدة بائـدة، ولـو هُتكَـت ذلـك الهتـك الأليـم. أرى الأمـواتَ وأرى مـع الأمـوات- العوالـمَ الـتي حُجبـت عـن البـشر، رأيتهـا في ليلـة مِـن الليـالي الـتي ينكشـف فيهـا الغطـاء الفاصـل بـين السماء والأرض. كنـتُ نائمـة، ثـم بـدا صـوتٌ ينبّهـني أن أسـتيقظ، ثـم غابـت معالـم الصـوت الـذي أيقظـني مِـن نومـي غفلـة، غابـت كمـا حلّـت، خـلال الثـواني الفاصلـة بـين اليقظـة والوسَـن، لـم أكـن لأتحـرّك مِـن فِـراشي قيْـدَ أنملـة، في توقّـع لرجـوع الصـوت الـذي أيقظـني

ثانية، لأن يتكرّر أو يحدث ما قد يبيّن لي طبيعتَه. جلستُ في مكاني فوق الفِراش مصغيةً بكلّ حواسي وبانتباهٍ بليغ، ولكن مع كلّ لحظة أخذتْ تمضي كانت معالم الصوت تروح وسكون الليل النسبي يشتتها، وظلّت حشرات الليل البعيدة والتي يترامى صوتها الرتيب مِن وراء ضفّة الترعة تصرّ في خفوت وانتظام ممّل.

جعلتُ أفيق فيما قليل، الأنفاسُ مِن حولي ثقيلةٌ مغرقة في عوالم النوم، الأجساد الغافية تتململ في راحة واطمئنان، وشخير أبي -كالعادة- يحتوي فراغَ البيت، دسستُ قدميّ في القبقاب وسرتُ بهدوء وحذَر نحو النافذة الواطئة، خشيتُ أن يستيقظ أحد على صوتي فينقطع تربّصي بالصوت في الخارج هناك، أزحتُ بأناملي خصاص النافذة الخيش وولجتُ برأسي إلى الهواء، كان صقيع الهواء لاسعًا، لكنّني استطعتُ مع ذلك القبضَ على حدود جسده وهو مُقْعٍ ينظر لمياه الترعة عن كَثَب، ويهمهِم، كأنّ به يناجي المياهَ أو يخاطبها في شأنٍ لم أكن لأدركه ولم أكن لأهتم، لم أحاول أن أفهم مِن أين جاء الذي يناجي المياه الآن! كانت أواخر الليل عند أن تكون القرية عن بكرة أبيها مندّسةً في البيوت وتحت الأسقف وداخل الألحفة الخيش، تساءلتُ كيف يحتمل البردَ ولماذا؟ مشهده مِن بعيد وهو منكفئ يوشوش الماءَ دَفَعني عبثًا لأن أفكّر بأنّني لم أزل في دائرة الحُلم، فمستحيل أن يكون هذا بَشرًا. تساءلتُ مرّة أخرى وأنا أتطلّع إلى جسده كيف أوحى لي بهذه القدسية؟

ببطءٍ بدأ يستدير بعنقه نحوي، وقاماتُ أشجارِ الغابة

البعيدة تبدو مِن خلفه كأعمدة فقارية لهذا الليل الداجن، ثم امتقع وجهه دفعة واحدة، وشبّ بجسده وانفرد جناحاه فأصبح متشكّلًا تمامًا كشبح سامق أمام حدود البصر، نَعم كان له جناحان، واخترقتْ نظرتُه -التي تخيلتها مجرّد تخيّل حيث لم أتمكّن مِن القبض عليها مباشرة- أعماقَ عينَيّ، بعدَها ارتكز على قدميه قبالتَي في تحدٍ، ورفع يده مشيرًا نحوي دون أن يفتح فمَه.

حدّقَ فيّ بعينين مشتعلتيْن، عدتُ للوراء مفزوعة، أغلقتُ النافذة وآويتُ إلى فِراشي ولم يكن أحد في البيت قَد انتبَه، أخذتُ في الارتعاش وقَد بدا أنّ البردَ قد تحكّم في أطرافي أكثر، بعدها ضاع صوته تمامًا، واستبدّ بي النوم مثل مُجبَرة مأخوذة لغياهبه دون إرادة، والرعشة تستولي على روحي نفسها.

في قريتنا ساحةٌ لا تذهب إليها قَدم، قدّ فيها حَجر مَهيب توارثنا أنّه صنم يسكن قريتَنا، يجلس على عرشٍ يماثل أطولنا طولًا، تمثال جاءني في الحلم يومًا متجسّدًا، وشعرتُ بأنّي قد استهلكني هذا العالم، حيث عبَرت - دون إرادة- إلى عالم الحلم.

حلم "خديجة"

كان ضبابٌ شفيف في سماء، أذكُر مِن حُلمي أنّنا كلّنا بوغتنا إذ تَفجّر في جو القرية بخورٌ وبدا لنا أشبه بطيورٍ محلّقة تتجمّع تشكّل قلبًا كبيرًا فوقنا على مشارف السماء، كان ما حدث داخل حلمي قَد فاق وهميةَ كلّ حلم، كانت غواية أم كانت مكيدة أم كان فعلًا لا يجوز البوح بهوية فاعِله؟ هذا الفعل الذي دفع سائر نساء القرية للتوّجه مغيّباتٍ نحو ساحتنا المهجورة عند آخر حدود القرية والركوع متزيّناتٍ أسفل قدمَي تمثالها الحجري المهيب. رأيتُ بعينَيّ - وغمامة سحرية تسطو على وعيي الافتراضي داخل الحلم - أمّي وكلّهن، راكعاتٍ في أبهى حللهن يطلبن مِن التمثال القبولَ، قبول توبتهن عن آبائنا العاصين، رأيتُ بعينَيّ خُطَاهن المسرعةَ إلى الساحة، أقدامهن التي تتناقل الغبار صانعاتٍ سحابةً كثيفة، ونواح.. كأنّ الأزل تمازج في مجيئه، ظلّ يترامى مِن بعيد خافتًا مقلقًا، والأطفال؛ كلّ الأطفال، خرجوا مِن البيوت في أعقاب بعضهم البعض، الجميع تدفّقوا إلى الساحة القابعة آخر البلدة في أذيال الأمهات، والآباء يتبعون والجزع يذلّ سيرَهم ويشلّ تفكيرهم، كانت دعوة مشمولة بنفاذ السيطرة الإلهية هي التي دفعت الجميعَ نحو الساحة، دعوة لم تكن معلَنة، ولم يتّفق عليها، كأنّما الأقدام سيقت مرغمة وعن دون تحكّم أو إرادة، الأقدام التي أخذت في الهرولة نحو مصير مبهم، داخل الدروب وبين شقوق القرية تزاحمت، وداست فوق بعضها البعض، والرؤوس كأنّما حَطّ فوقها فرمان مِن محو لكلّ الانفعالات وكلّ

الحـواس، عـدا حاسـة الانصيـاع، والانسـياق بغـير عزيمـة وبغـير وجهـة يعرفونهـا، فقـط تتدافـع الأقـدام، نحـو الطـرق ونحـو المكتـوب، ونحـو مـا سُـطر مِـن شـهوة إذلال. وقفنـا بعيـدًا، والتمثـال الحجـري المهيـب الضخـم الرابض في منتصف السـاحة ابتسَـم، تجمّـع النسـاء جـوارَه وكأنّـه مغناطيـس يشـدهم، كلّ امـرأةٍ منهـنّ كانـت تتأهـب واضعـةً تبرّجهـا الخـاص منذ اشـتمّت البخـورَ الغريـب، كلّ امـرأةٍ أجلسـتْ إرادتَهـا جوارهـا ورفعـت عينيهـا لأعـلى في آليـة وفي استسـلام، السـاحةُ امتـلأت دهشـةً لـم تتبلـوّر لـرد فعـل، والقريـة خاليـة هـذه اللحظـة إلّا مِـن عقـولٍ التَهَمهـا دود الحـيرة الجائـع، وكبّـل العزائـم بأكملهـا، البلـدة المرتديـة دهـورًا ودهـورًا ثـوبَ الخضـوع كأنّهـا ترقـص، التمثـال العمـلاق جلـس عـلى عرشـه المذهّـب وأشـعل عـودًا مِـن البخـور السـاحر في تبـاهٍ، سَـحَب أنفاسًـا وزفَرَهـا فحملتهـا الريـحُ تنشرهـا بـكلّ الأجـواء، الدخـان رائحتـه تنفـذ إلى أنوفهـن فينتشـين، ونتـوه، ينفـذ إلى أنوفنـا فـتزداد الغرابـة.. وتبدأ مراسـم الهلوسـة. وكان التمثـال يجـوس فينـا بعينـين تشـلاّن أيّ حـسّ، ويـضرب بقدميـه الأرضَ فتتـوارى عـن أعيننـا أجسـامُ النسـاء، وراء غيـوم الـتراب الـتي يدفعهـا مِـن تحـت بطنيّ قدميـه، وكنّـا قَـد احتُجزنـا فيمـا خلـف سـور السـاحة الحجـري الواطئ، نحـن الأطفـال، بمجـرّد هـذا الأمـر الصـادر مِـن عينيـه لعقولنـا، فلـم نجـسر عـلى التحـرّك خطـوة للأمـام، والنسـاء يقبعـن أسـفله بالداخـل مغيّبـاتٍ تمامًـا، يخلعـن الأثـوابَ ويصبحـن عاريـاتٍ عريًـا مستفزًّا، وبعـض أجـزاء مِـن أجسـادهن قَـد ضُبّبـت بفعـل الـتراب، فيـشرع التمثـال في مضاجعتهـن واحـدةً بعـد أخـرى بـلا

حياء، بكلّ بطء واستلذاذ.

الضباب.. والميوعة الروحية.. والاستسلام عن غير إرادة، وفي ترتيبٍ تلقائي عجيب، وكأنّ كلّ واحدةٍ تعرف دورَها داخل تلك المنظومة المشبوهة، كانت كلّ امرأةٍ منهن تصطف وراء الأخرى ثم تقدّم نفسها للتمثال قربانًا، فيعتليها ويبدأ في التلاقي مع جسدها بقوة إله، وبغلّ المغضوب عليه، يُطِلّ مِن عينيه شرٌّ مستطير، يزوم، يربد، يقذف مجونَه بداخلها ليفرُغ لغيرها، يُجبلها على التأوه كما لو أنّها تتألّم دون متعة، وعيناه صوب البعيد منصرفتان، بصرف الطرف عن الآلة التي تعمل في الأسفل بأجسام النساء مثلها مثل فعلٍ مقدّر سلفًا، تضرب وتعود لتضرب في منطق له دلالة مغايرة لدلالة الممارسة في حدّ ذاتها، فكِدنا نمتثل له كما امتثلن، هذا لأنّه في لحظة- بدا يمتلك حقيقة غضب الآلهة وخطورتها، وكان لا يوشك أن يرى - في فورة حماسية وانحيازه لنشوة متسلّطة- رجلًا قبالتَه، جسده يتخشب على تخشبّه، ولسانه يزبد كما لو أنّ بنيانَه الحجري تدب فيه دماء حياة، يفرغ من النساء واحدة بعد واحدة، وبسرعة، البخور أغواهن وغيّب عقولهنّ، الأقواه فاغرة، الأعين مصمتة، الرؤوس فرّ منها التفكير وصرنا نرى ما يحدث رؤية مجرّدة مِن رد الفعل. الغريب أنّ التمثالَ في حلمي بعد أن فرغ من النساء طار إلى السماء، بعد أن أودع الجميعَ نظرةَ التشفّي، في مشهد خزعبلي تمّر بسرعة غريبة، كأنّها لحظة خاطفة.

* * *

بَعدَ أن شاهدتُ الكائنَ ذا الجناحين، ومع ارتعاش قدمَيّ، واضطرابِ أنفاسي، سرتُ بلا إرادة أبغي تلك الساحةَ في الليل التالي. كنت أُدرك بحاسّة ما أنّ روحي هي التي تسري، وهي التي تقودني بغير عزيمة أو تحكّم، لم يكن الليل الفعلي قد لثّم سماءَ القرية، وكانت أثارةٌ مِن ضوء شحيح تتنزّه في الأفق، سمعتُ بأذنيّ قرعَ الطبل، تمامًا كطبل يأتي كأنّه من حلم، وراعني أول ما شاهدتُ تَراقُصَ الحجر المصمت مع الكائن الذي رأيته، ربما مع خيال مريض يجتاحني الآن، ربما مع سلالة لا نَعرف عن ماهيتها شيئًا، لكنّني رأيته وفي ذهني تخاريفُ غير اعتيادية، الكائن يراقص التمثال على قرع سماوي، ليس مِن أحد سواهما، والقرع الخافت يعلو حينًا ثم يستعيد خفوتَه وأنا فاغرة فاهي، لمَحَني الكائن ذو العينين الناريتين فتوقف القرع الذي كان يجيء مِن لا مكان، وسرعان ما هرع التمثال لقاعدة عرشه وتمثّل حجرًا ثانية دون انفعالات، وبغتة كذلك شقّ جسدُ الكائنِ بدنَ الظلمة ونفذ للسماء؛ تمامًا كحلم مروّع.

بعد وقتٍ قصير عاد الكائن، كنت أراه وحدي في أوقات التسلّل اللاإرادية للساحة يأخذ ظهر التمثال ركوبةً له، وأراه مِن حين لحين -كأنّني اختُصِصتُ متفرّدةً بالسرّ ولا يراه غيري، يتّخذ الساحة المهجورة مثوى له، لكنّي - كنت واعيةً أم كنت مسحورة- كنت أذهب إليه عند آخر قريتنا في قلب ساحة لم نعرفها غير "خرابة" ومحل رهبة ممهورة باللعنة، أتسلّل في وقت يكون الآباء غافلين عنّي، نائمة أو منهمكة في أشغالها الاعتيادية؛ أشغال الحقول، بنداء غير ملموس،

إنّما أشعر به هذا الشعور الذي تملّك كلّ جوارحي، ولعلّه الفضول الذي دفعني أن أروح بإرادةٍ أشْبهَ بالمغيّبة في محاولة منّي لمعرفة الإجابة عن كلّ التساؤلات التي دارت بعقلي: هل أنا الآن بين عالمين؟ لماذا ظهر لي دون أهل القرية؟

في ليلةٍ، استرقتُ السمعَ مِن وراء السور الواطئ الحجري للخرابة وكان الكائن يتهامس مع التمثال، كانت الدنيا مِن حولي قد أجفلت فجأة فعَمّ سكونٌ جعل ساقيّ تتزلزلان، حين أطلّ برأسه، فشهقتُ وعدوت بعيدًا فالتهَمَني الظلام لكنّني سمعت ضحكاتِه وهي تجلجل ورائي.

لم أنَم.. أحسست أنّي ولابد جُنِنت لكي أهتك حُرمةَ العوالم هكذا! كيف جسرتُ؟ غير أنّ شيئًا ظلّ يلاحق حكمتي ورويّة تفكيري، شيئًا دفعني لتكرار المحاولة في ليالٍ تالية.

في ليل قريتنا، تهجع الكائنات كلها، كما تهجع الرغبات، ويهجع الآباء في البيوت، وأنا بكل خبلٍ أتسلّل كقِطّة دون أن يَسمع حفيفَ قدمَيّ أحدٌ، وأنساق بلا إرادة نحو "الخرابة"، أنبش عن موطئ لقدمي المتوترة المرتجفة، وكأنّ كلّ الأرض مِن تحتي صارت لينة تمتص قدميّ، وصرير يأتي مِن بين ثنيات الظلمة يدوّخ عقلي، شعرت أنّ هناك مَن يترقّبني.. مِن وراءي.. أو جِواري.. وربما مِن أعلى، كان شيئًا يترصّد رحلتي نحو "الخرابة" وينتصب له شَعر رأسي، ربما لا شيء هناك سوى وجَلي الشديد، وبطء الأنفاس يدوّي

بداخلي كأنّه بوقٌ خافت رتيب، وبين لحظة وأخرى.. بلا إدراك لوقت ولا لليل.. بلا سيطرة على حواس أو فؤاد.. وجدتني أمامَه، وكأنّما كان منتظِرًا مجيئي، كان واقفًا هناك على مدخل "الخرابة" وكانت ابتسامتُه تدعوني للاقتراب: لا تخافي.. تعالي.. هنا مأربك وهنا مستقرك.

نظْرتُه التي تقتل، تطمئنني، وتسحبني إليه كسكيرة، والخطوات المتبقية فيما بين جسدينا تفنى، وكلّ شيء حولنا ساكن.. تمامًا كسكون خلجاتي.

لم أكن مضطربة، ولم أكن أشعر بفطرة الغرابة، كان الهدوء والسكينة يتسلّلانِ إلى أعماق وجداني، فتنتظم ضربات قلبي ثانية، وتستكين الأنفاس، وأمدّ له يدي لمصافحة غير متوقعة.

لم يمُدّ لي يدًا، لكنّه ربت بكفّه فوق كتفي واستدار عنّي والِجًا للداخل فتبعتُه صاغرة.

آخر الساحة غرفة، قوامُها بوص، كان يمشي إلى هناك وكأنّه يطير، وفي قلب الساحة، وعلى امتداد البصر لأعلى، فلا تُرى تفاصيل وجهه، كان التمثال كامنًا فوق عرشه وبدا عليه أنّه جالس هكذا منذ الأبد، أو قبْل الأبد، ولا كأنّ الساحة قَد شهدت جدلًا في حلم- جُرحًا لكبرياء الرجال وعزتهم، كنتُ أتأمّله بكثيرٍ مِن دهشةٍ وألم: أيّ أسطورة تلك التي صنعتها بعقلي؟ مَن أنت؟

في صمتٍ دَلَف، فدلفتُ وراءَه، كان كوبانِ مِن الشاي قد جُهزّا والدخان يطلع مِن فمهما فتطلّعتُ له متوجسة.. هل

أعـدّ لي هـذا الشـاي أم للتمثـال؟ وكيـف أدرَك أنّي آتيـة؟

- اجلسي..

افترشـتُ أرضَ الغرفـة وأنـا كلّي رهبـة، كان ودودًا معـي، جلـس أمامي مبتسـمًا وعينـاه الناريتـان تتأمّـلاني، وأردف بتعقّـل شـديد:

- مَن أنتِ؟

ازدردتُ لعـابي غـيرَ قـادرةٍ عـلى النطـق فأضـاف وهـو يبتسـم ابتسـامة أوسـعَ ملوّحًـا بيـده:

- أعـرف.. أعـرف.. أنـتِ الوحيـدة في هـذه البلـد الـتي تبحـث عـن الـسرّ..

ثـم شـبّ مـرّة واحـدة، وأخـذ في الـدوران حـولي وهـو يحـك ذقنَـه مفكّـرًا:

- لكنّكِ طفلة..

وانحنى تناول كوبَ الشاي ومدّ لي به يدَه وأكمَل:

- اشربي أولًا شايك.. فإنّه مِن صنع الآلهة.

ومـضى يضحـك في تهكّـمٍ ملحـوظ، بارتبـاكٍ وتوتـرٍ أمسـكتُ كـوبَ الشـاي ثـم وضعتـه عـلى شـفتَيّ وارتشـفت، كان التوّجـس توّجسـا لحظيـا، بـدا مـنّي مـع أول رشـفة، إنّمـا سرعـان مـا زال وقَـد وجـدتُ لطعـم الشـاي مذاقًـا يوحـي حقيقـة أنّـه مِـن صنع الآلهـة، مـذاقٌ لاذع صحيح، لكنّـه يشـبه الخمـر، ويشـبه العسـل، وليس يشـبه شـيئًا جرعتـه مِـن قبـل.

- صدّقتني الآن...

نظرتُ له مبتسمة بامتنان فقال:

- ما اسمكِ؟

هممت بالإجابة لكنّه استوقفني بيده مقاطعًا:

أعرف.. أعرف.. أنتِ الباحثة عن الحقيقة..

دلقت الشاي عفوًا وقد باغتني، فقال:

لا تخافي.. قد رأيتُ حلمك.

في تأمّلٍ باتّساع عينين مضيت حاطّة بصري عليه، أيّ حلم رأيته! وكيف يأتيه ما لا يستوعبه عقلُ بشريةٍ مثلي؟ هل الحلم حلم أم أنّ الحلم في أصله واقعٌ مسكوت عنه؟

أجبته بصوت خافت وأنا لا أكاد أصدّق:

أنا "خديجة"

فزام، وبدا يتطاول لحدّ السماء، وصاح بصوت كالدّوي:

وأنا السلطان.

مِن فزعي، هرولتُ عنه، كان صوته العالي نذيرًا لي بالإفاقة، راحت ساقاي تلتهمانِ طريق الرجعة برَوْعٍ بالغ، وصوته يتردّد داخل أذنيّ: أنا السلطان.

غمَرني العَرق وأنا أجاهد النوم، لم أنَم، لليلة أخرى لم أنَم، كان مشهده وهو يتواثب أمامي ويرتفع لأعلى ويتضخم لا يفارق خيالي.

صحوتُ، وجدتني في منتصف ليلنا، استدرتُ حولي، كان الجميع نائمًا، تسلّلتُ مشبّعة بفطرة الفضول، إلى الساحة.

لكنّني أذعنت لخوفي، وعدت لم أكمِل طريقي.

ثم أعدت الكَرّة مرّة بعد أخرى، مع الوقت، زالت رهبتي قليلًا، وبسرعة تصاحبتُ والسلطان، بِتنا نتلاقى مِن حين لحين في الساحة، كرّرتُ المحاولةَ مرّاتٍ لمعرفة السرّ، كنت أحمل له طعامًا لم يمسّه يومًا، لكنّي لم آبَه، وبقيت كلّما أروح له، أحمل ما تمكّنتْ منه يداي، تصاحبنا، وتبادلنا الأسرارَ بعد عناء وإلحاح، كان يحكي لي متوجّسًا حين أتساءل، دومًا كان يتلفّت حوله بقلق ويقول لي: الآلهةُ لها جواسيس.

* * *

بدأ يقول:

- هناك بأمر الآلهة -في كيان الجبل البعيد، خُصّص كهف، أو اثنان...

على نحو محدّد لم يتوثق أو لم أركّز، وهو يقصّ لي عن عدد الكهوف التي أُعدّتْ لتنفيذ ما يشاءه الآلهة، قال: يبقرون بطونَ كبارِ السن مِن رجال القرية ونسائها، يفرغون ما بها ويجوّفونها، ثم يحشونها مِن الأسرار ما لن ندركه نحن البشرَ بشكل مؤكّد. كان يقول إنّها خطاياهم.

حكى لي عن الكهوف، وملائكةٍ منقوم عليها من الآلهة.. قبيحة الوجه.. تعبث بأجسام أجدادنا ممّن طعن سنُهم وباتت اللعنة مقرّرة عليهم، لعنة أن يساقوا كلّ موسم

مِن كلّ عام نحو الجبل البعيد، تنظف الملائكة أحشاءَهم وتملأ أجسامَهم بالخطايا الإلهية.

أنتِ لا تعرفين.. لا أحد يمكنه أن يعرف.. قريتكم مجرّد مزبلة يلقون فيها قمامتَهم..

قلت له يومًا:

-كيف عرفتَ عن خطايا الآلهة؟

تلفّت حوله، تيقنَ مِن خلو الجوار مِن ملاكٍ متلصص، رغم ذلك مال على أذني يهمس مرتعدًا:

- كنتُ هناك.

- أين؟

- فوق، عند الآلهة، وسمعتُهم جميعًا وهُم يقرّرون دفنَ خطاياهم في أجسام شيوخكم.

- أنت!

بالطبع وقتَها ابتسمتُ وأشحت بوجهي.

* * *

وها هو الموسم الذي رأيته وأنا حبيسة عالم الكائن الذي لم يره غيري، موسم حدث في عقلي، وفي ثنايا روحي.

سحابةٌ مِن غبار تصطحب أقدامَ الخيول المسرعة منحدرة مِن عند قمّة الأفق مِن ناحية الجبل، وعلى صهوتها تتراقص مِن بعيد أشباحُ رجالِ الآلهة، لا أعرف لمَ صمّمتُ أن أعرف أيّ رجالٍ هُم؟ هل حقًا يشبهوننا لأنّهم مِنّا أم

أنّهم خلْق آخر مِن خلْق الآلهة العشوائي؟

السحابةُ تقترب، والتحفّز بداخلي ينمو وينمو، الشيوخ منّا يصطّفون مطأطئي الرؤوس يدركون بلا مجال لتراجع أو عشم أنّ المصير قَد سُطر.

عذرًا أيها الآباء...

دعوهم ينقبون ويُنهكون، لا أعرف كيف نفصل الهرم منكم؟ هل هي أول شعرةٍ بيضاءَ تغزو الفود؟ أهكذا يفتّشون عن الشيوخ؟ أهكذا يسير لهو الآلهة؟ ماذا إذا تسلّلتْ لي شَعرة بيضاءُ مِن شدّة الحزن مثلًا؟ هل سيقع عليّ العقاب؟

كانت كثيفة هذه الكُرَة القادمة تتدحرج نحو القرية، تحجز فيما خلفها مشهدَ الأفق المعتم ومِن وراءه صورة باهتة مختلقة في أذهاننا لمشهد الجبل، الذي لا يدع لنا فرصة للهروب مِن هذه القرية لنرى بقيّة العوالم، ربما كان هو أيضًا عقابًا أو إلهًا، لا أستبعد، كلّ شيء بعدما سمعت مِن السلطان محتمل التصديق، يا للسماء! كيف أيّها السلطان زعزعتَ إيماني بالآلهة هكذا؟ لعلّي في الأساس لا أؤمن بها أو أنّي أعتنق ما فُطرنا عليه مِن الآباء، لكن ألن نصير في يوم آباءً؟ ففيم نفطر أبناءنا، وعلى أيّ إيمان؟

توقفوا بكلّ لا مبالاة يتخلّلون ببصرهم أرجاءَ القرية مِن وراء سِحَنٍ جامدةٍ لم نشهد نقيضَها، ترجّل كبيرُهم مِن على جوّاده، حَمحم الحصان لا أدري أكان مشفِقًا على حالنا أَم مؤيّدًا للسحل الآتي؟ كانت الصناديق ينزِّلها رجال مِن فوق

عربات خشبية تجرّها الأحصنة، يحوّلون أبصارَهم فيما بيننا ربّما بتوّجس، والشيوخ بلا شفاعة فهذا حُكم الآلهة -يتقدّمون الهوينى، تتقدّمهم فزعة المصير، تجاه الصناديق يتوقفون قليلًا، تلسعهم الأصفاد القادمة مِن مصنع الآلهة ثم يدلفون داخل الصناديق فلا نجزع، كيف نجزع؟ كنّا نلقي بكلّ حواسنا أرضًا ونجسّد الحقيقةَ المفروضة، المثول، أيّ خيارٍ لنا نحن؟ خلقنا لنتبع أهواء الآلهة، هيا إذًا أيّها الآلهة صفقوا لبعضكم بعضًا، لقد نجحتم فيما أنزلتم علينا مِن عقاب، وجاءت النتيجة مجزية للغاية، نحن مخلوقات لا تعرف التذمّرَ، لكن، أود لو أعلم مَن منكم صمّم ومَن نَحَت ومَن بثَّ الروح؟ قَد لا تتساوى فيكم المقدرات على الفعل، أَم أنّكم تتشاركون الصنع سواسية؟ إنّها لخارقة إلّا على العاصين أمثالي، ما كنتُ كفرت لو ما عرفت السرّ؟ يا لها مِن متعةٍ هذه التي تقودني إلى الإلحاد! يا لها، ويا لي مِن محظوظة! ليتني ما صدّقت السلطان.

وجهي يتقلّب شطْرَ السماء لا أهاب أن تتبرّم الآلهة أو أن ينالني عقابُها، لا أدرى أيّ عقاب أشق مِن الانصياع؟ أيّ ديكتاتور فيكم يا آلهة الأجداد انتوى اللعنة؟ أَم كلّكم تتطابقون ولو في أدقّ الخصال؟ أخصّكم أجمعين باتّهامي هذا، وأنا مستعدة- لا أعرف أموهومةٌ أَم فقدتُ صوابي؟- لأيّ فعلٍ من شأنه ردع عقلي عن التفكير.

وجهي يتقلّب فيهم هؤلاء الرجال، تحتقن الدماء في عروق رقبتي.

نظراتُ الجدودِ تودّعنا بحسرة، ليتهم ينالون العفوَ أو ليتنا نزيح اللعنة، تساءلتُ عن مغزى تغريم الآلهةُ كلّ عام قريتنا بضعةَ نفوس! لو أنّ اللعنة أن نَدفن شيوخَنا ناجمةٌ عن إرادة ذاتية لفعلنا، إنّما مِن خطّط؟ الآلهة..! مَن قرّر؟ ومِن أراد؟ الآلهة..! كنتُ كذلك أعلم أنّها ليست بعيدةً عن الرؤية، يقينٌ ما عزّزه كثيرًا تصادقي مع السلطان، أَوْقَرَ عندي إحساسًا بأنّي سوف أرى الآلهة يومًا، وقد يُسنَح لي الاستفسار عن ماهية ما يأتينا مِن عقاب، مَن مِنا آثم؟ كهولنا الذين يدركون مصيرهم المفروض؟ أَم آباؤنا الصامتون؟ أَم نحن؟ لعلّنا نحن، لعلّ اللغزَ لن يسبره سوانا نحن الأجيال اليافعة، لننازع مع الآلهة، يكفي أنّ مصيرنا ولو طال الزمان محتّمٌ مثل الجدود والآباء مِن بعدهم.

قلت للسلطان:

كيف ننجو مِن العقاب؟

ابتسَم ابتسامة واسعة، صمَتَ لوقت ثم استدار نحوي وقال:

حين يعفو عنكم هذا التمثال الإله.

وأشار نحو التمثال ثم أكمل:

فلتذهبي، أريد أن أنام.

لم أستغرب موقفه منّي، تعوّدت أن يتقلّب مزاجه، مضيتُ وأنا أجوّل عينيّ في التمثال الساقطة رأسُه على صدره، كَم هو مخيف! هل آباؤنا يعرفون سرّ وجودِ تمثالٍ

لأول آلهـة السـماء في قريتنـا؟

لـم أعـد أعـرف كيـف أتخلّـص مِـن لعنـة ذلـك العالـم الـذي سيق إليـه عقـلي عـن غـير إرادة! فقـط كنـتُ لا أرى مِـن واقعـي ملمحًـا، وكان السـلطان يأتيـني في اليـوم مـرّاتٍ ومـرّات، دون حـتى أن أزور الساحة، كنـت أراه جالسًـا جـوارَ أبي، فأفـزع، لكنّه يهمـس لي إلّا أخـاف، لـن يـراه أحـد غـيري، وبـدا يلازمـني بعـد ذلـك، وكلّمـا تحرّكـت تحـرّك معـي، ثـم فجـأة حـدث الـصراع.

وجدتـه يتصـارع مـع رَجـلٍ لـه قامـة عمـلاق وفي وجهـه نـور، كان الرجـل يُشـبه الشـيخ "جابـر" الـذي أخـرجَ السـمّ مِـن جسـدي، كان آنيًـا مِـن وسـط سـحابة غابـرة دخانيـة اللـون وتمـتزج داخلهـا ألسـنة مِـن نـار، كان يقـترب، فيتّضح لي وجهـه أكـثر، وكان يصيـح:

- باسـم الواحـد الأحـد القهـار، الـذي بيـده بَعـثٌ وبيـده قضـاء، الـذي يعـرف مـا تـسر ومـا تعلـن، الـذي أنتمّـك وهذّبـك وشـكّلك، كُـن كمـا يريـدك هـو، لا كمـا يريـدك البائـد، واخـرجْ، جِـد لـك منفـذًا واخـرجْ، وإلّا أحرقتـك.

احتَـدَم نزاعهُمـا، كان الشـيخ "جابـر" يرفعـه لأعـلى، ويـنزل به سـاقطًا، وأكاد أسـمع تحطّـم جسـده، وكان السـلطان يتضـاءل، ويتفتـت لنـدفٍ رماديـة صغـيرة.. صغـيرة، حـتى تـلاشى، كأنّـه لـم يكـن يومًـا.

الفصل
الثالث

(طلحة)

(الرمـادُ.. بقايـا كلّ شيء.. أيّ شيء، الرمـادُ بقايانـا.. وبقايـا الآلهـةِ وبقايـا الإيمـان)

طلحة

(1)

- هذا نبعٌ لا يَضِل مَن سُقيّ ماءَه.

- هـذا الجبـلُ عجيـب، أمامَـه رمـلٌ وصخـر، وخلفَـه مـاءٌ عـذب.

- الجنّـةُ طالمـا كانـت أمـام أعينِنـا إنّمـا لا نراهـا، وجنّـتي وارفـةٌ في قلـبي، لـذا لا أخـشى قَـدَرًا.

- ألا تخشى أن تحيد عن جنّتك تلك!

ضحـك "طلحـة"، رَمَـق بطنَهـا الـتي بـدأت تنتفـخ، اسـتدار يحـدّق في البسـتان الـذي يمتـدّ مورِقًـا أخـضرَ، ثـم قـال:

- إنّي لا أؤمِن بالوسوسة.

- إذًا لا تؤمِن بإبليس!

ضحك أكثر، والتفتَ لها:

- لعـلّ إبليـسَ في حـدّ ذاتِه فكـرة، مجـرّد فكـرةٍ قمعيـة، أصلُها رقـابي بحـت، ذلـك أنّ اللـهَ خلَـقَ الإنسـانَ وهـو يَعـرف تمامًـا طبيعتَـه، نحـن -البـشر يسـتهوينا كثـيرًا أن نعلّـق كلّ أخطائنـا

عـلى شمّاعة إبليـس.

ثم أضاف:

لقـد ذُكِـر في جميـع النصـوص المقدّسـة أليـس كذلـك؟ ومالـه! مِـن بـاب الترهيـب ربمـا، قَـد يكـون شـخصيةً حقيقيـة، ولكـنَّ دورَه في حيـاة البـشر دورٌ مجـازي، قائـم عـلى طبيعتنـا نحـن ليـس أكـثر، إبليـس أضعـفُ مِنّـا كثـيرًا، هـذه حقيقـة، نحـن أشـدّ نزعًـا للخطيئـة مِـن إبليـسَ نفسِـه، وهـذه أيضًـا فكـرة، مجـرّد فكـرة.

- هـذه فكـرة غريبـة نوعًـا مـا.. ربمـا كانـت خطيئـة كـبرى.. لا يغفرهـا اللـه قَـط.

ضحك "طلحة" ضحكة طويلة، واستدار لها قائلًا:

لا بـأس، إنّ الخطايـا في أغلبهـا بحـثٌ عـن الـذات، وإنّ مـولاي؛ معضلـة العقـل السـقيم، حـاضرٌ في نياطـي بُعُـرف الجلالـة، حـاضر يمـزّق، ويخلـق آهًـا محمـودة، فللقلـب آهٌ، وللصـوت آهٌ، وللـروح آهـات. مَـن ذا يقـرأ غيبَـه؟

ثمّ ابتلّت أهدابه وهو يرنو بعينيه نحو السماء:

- مَـن ذا آمَـن بـه إلّا معجـون ببَرَكـة حضـوره؟ فـلا عـاصٍ رأى، ولا باتـع سرٍ، غـير الـذي إنْ فَـرَد شـوقَه مـلأ كفيّـه بـه، وأغـرق أخاديـدَ فردوسـه، وتمـرّغ عـلى بسـاط الوجـد حمـدًا، إنّي أراه دونَهـم، إنّي صاحَبتـه في دنيـاي، وعـلى الصاحـب عشـم الخطيئـة، فـإذا كانـت خطيئـتي إدبـارا لسـعيٍ دونَـه، فسـيعفني مِـن ذاك الفـؤاد البليـد، وإذا كانـت خطيئـتي هوسـا

أصلُه هيام، فلن يولّي وجهَه عنّي، هو صاحبي، ضمّني بين ذراعيه كثيرًا، أنا المتيّم مُغرقًا في طوافي، بين الأذكار، وبين المنتفضين مِن رعشة الوصول، إنّي قَبْلَهم وصلتُ لو يعرفون، إنّي لديه هناك أطبّب بضعةَ ملائكةٍ وأداوي برحمته ضالًا أفاء، إنّي أمسّد بأناملي بريقَ عرشِه، وألمّع تفاصيله في ولَهٍ حميم، وسوف يتركني فوق الدهر دهرًا أبادله الرضا بغرام، سوف يُفسِح لي جوارَه موضعًا ولو ضمّة كفّ، أنا القارئ غيبي لن أضلّ، ولا يضلّ أبدًا قارئ -بكشفه- غيبه، فاطمئني، لا خطيئة لي إنْ بات العشق خطيئة، ذاك يقيني.

أَدْهَشَها ما يقول، لم تكن تعرف أنّ الوصلَ هكذا، أنّ الذي اكتفى به كفاه، وأنّ العشقَ له أشكال وأشكال.

رأى داخل مقلتيها الاندهاشَ، فأدرَك أنّه قد بدأ يهذب وجدَها كيفما يريد، دَنَا منها، وأمسك معصمها، ثم ضغط بخفة وغاص في عمق عينيها قائلًا:

اكنزي لمولاكِ الشوقَ ولن يُشبعك براح، فصوص العقيق الخضراء في قلبكِ سوف تشيّد لكِ مِن وحيه روحا نورانية، والأنبياءُ نورٌ مِن صفاء خليقة، والحُسن طلّة لوجهه مولاي، سوف ينقيكِ.. ينجّيكِ.. سوف يَهَبُكِ -إذا تواءمتِ وملكوته- رخصةً أبديةَ الغزل، دعي دموعَكِ تخضب خصر ملاك، أو دَعي دموعَه تهذب نزعة الجدل فيكِ، أطلقي آهاً فآهاً، فالآهات تحت عرشه صدى استغفار، سيكون للبدء دليلك، وللمنتهى العبثي، وسوف تصبحين عصيانَ المغفور له سلفًا، لستِ اسمًا مجرّدًا، نزعة وجْدٍ أنتِ، بينك وبينه.

ثم رفع للسماء عينيه مبتهلًا:

- بحـقِّ كافِ الكتـاب، ونـونِ النـبي، نجِّهـا، ونقّهـا، ثـم ابعثهـا مـلاكًا لـو تشـاء.

فاسـتراحت، ملّكتـه روحَهـا دون تخـوّف، وأحسّـت باسـتقامة حواسـها نحـو أفـق الإيمـان النابـع مِـن حشـايا النفـس، وكانـت إذا تأمّلتـه، كأنّهـا طلّـت عـلى نـبيّ في زمـن ليـس فيـه نـبيّ، وكان "طلحـة" إذا تأمّلهـا، اصطحـب عينيهـا لـترى مـا لا عـين رأت وتسـمع مـا لا إذن سـمعت.

عبد النبي

(2)

حتى إذا أهلكَكَ البحثُ يا "عثمان الجوّال" فإنّي باقٍ في غيابي كي أعزّز نفسي لردّ المعروف، وأيّ معروف! بك فقدتُ عينًا وفقدتُ رجولة لا يستعيدها مَن فَقَدها، إلّا في حلم يأسف على حال صاحبه.

بالأمس، كان كلّ شيء يُنذِر بموجةٍ كهذه مِن برد، كانت السماء ملبّدةً بالغيم، وريحٌ أخذت تراود الشرفاتِ وأسطحَ البيوت. الأمس لم يمضِ تمامًا، ثمّة بقايا منه لم تزل تجوب الشوارعَ مِن دون هدى، كلابٌ ائتلفت مع الشوارع لا نباحَ لها، وقطط مشرّدة لا تموء، مِن شدّة البرد ربما، وربما لأسباب قَد لا يعرفها الأناسُ المنعَمون بدفء الألحفة وهجعةِ الدور التي تحتضنهم. ثمّةَ بقايا مِن الأمس متناثرةٌ لن يتسنّى للأعين الغافية أن تراها. (أيّها الأمس.. كنتَ ثقيلًا مررتَ بكلّ بطء) "عبد النبي" كان يعاتبه، فمُه يتمتِم في وهن، وسيارة مركونة بالجوار قطع أزيزُ إنذارِها وخمَ الصمت. في الشوارع، ترنّ "عبد النبي"، وصار رجلًا، كما بقايا مِن الأمس.. يبدو كذلك مثل بقايا مِن رَجلٍ كان، في أحد الزوايا كان جالسًا، متقوقعًا، يتململ ووجهه مغطّى بياقة قميص متهرّئ ملأته الثقوب، يختبئ بداخله مِن البرد، تكاد الرعدة التي تُرعش أطرافَه تُصدر قرقعة مِن حدّتها، يتستر بجدار مِن ظلام، وكأنّه رَقعةٌ مِن ثوب الظلام عينه. ما بين برهة ومثلها، يَظهر أنفُه مِن أسفل ياقة القميص محمرًّا، بعدَها

تتحرّك أهدابُه معلِنة النظرَ إلى أعلى، نحو رؤوس البيوت التي تتراص في غير انتظام لتصنع خريطة عشوائية لشوارعَ تَحتضن بقايا المساء المنصرم في عشوائية أيضًا، ويستعيد وجوه قاطنيها الذين يمدّون أياديَهم له في النهار بالزاد فيأبى، ثم يضمّ على وجهه الياقةَ مرّة أخرى ليستدفئ قليلًا.. وهكذا، بدا لا يملّ النظرَ نحو الأعلى هناك، وأناملُه بلا إرادة -على الأرجح- تتحسّس بطنا جوفاءَ لم يزرها طعام لأيام، والليل يُخفي في طيّاته كلّ التفاصيل.

فيما قليل.. يستعدّ جسدُه لنهوضٍ يشوبه خمول، يبدأ في التحرّك بنفس العشوائية التي تتحرّك بها الكائنات البقايا من الأمس، وساقاه تفترضان الاستقرارَ عند أول مكمَن لأيّ وقود للمعدة الخائرة، يتلفّت حوله بدون هدف، يبحث بعينيه لدى نواصي الطرقات والأزقة، تحدوه خروَشة أوراق وأكياس فارغة مبعثرة تتراقص فوق الإسفلت، يحاول أن يتبع حفيفَها القادمَ مِن شارعٍ جانبي، آمِلًا وجودَ بغيتِه مِن نذر يسير داخل إحداها، يطوي الإسفلتَ بقدميْن حافيتين ويظلّ ينصت للحفيف الآتي، فتلمع عيناه لمعة فرِحة، ذلك عند أن يفاجئه تلٌّ من قمامة طازجة، لم يَنل منه جفاف الصقيع الذي يعم كلّ المفردات، دنا في سرعة، أثناء هرولته حطّ بقدمه اليمنى على شظية مِن زجاج متكسّر، أحسّ بعض الشيء بألمٍ طفيف حين تسلّل عامود بارد داخل لحم ساقه، غير أنّه لم يكترث، لم يتعوّد أن يكترث لمثل تلك المصادفات البسيطة قط، أكمَلَ في سرعة اقترابَه مِن التلّ العامر بالأمل، ومِن ورائه تتقاطر نقاط مِن دَمٍ

أُختلِط فيه اللون الأحمر باللون الأصفر فبدا شاحبًا، لم يكن يعرف إنْ كانت الشظية قَد استقرت بداخل قدمه أَم أُنتثرتْ بعيدًا من حركة الساق المهرولة فوق الإسفلت! مع ذلك لم يعد يستولي عليه إلّا ذلك الإحساس بأنّه أخيرًا سوف يذود عن جوفه ولو بكسرات مِن خبز حتّى وإنْ سَكَنه عشب، لم تكن المسافة بتلك الدرجة مِن البعد، لكنها في الواقع بعيدة، التلّ القابع في زاوية من الشارع والآتية رائحته شهيّة لا يود أن يخلص ويدنو، ماله يعاندني! بل مالي لا أقوى على الإسراع أكثر قبْل أن يظفر به ضالّ غيري! كان يُحدّث نفسَه، وكانت أوداجه قد راحت تنتفخ أكثر فأكثر كلّما كبُر في عينيه التلّ أكثر وازداد اقترابًا، ثم وجد نفسه أخيرًا وجهًا لوجه أمام التلّ وقلبُه متهدّج، تلاشى الشعور بالبرد وتلاشى الشعور بكلّ شيء محيط في لحظة أنْ جعل يتأمّل كوم القمامة والأفكار السعيدة تملك عليه أنفاسَه، انحنى ومضى بحذر طبيعي ينبش داخل متن القمامة عن غذاءٍ ويدُه ترتجف مِن فرط التوتر وعدم التصديق، هنا لابد أنّه واجدٌ ما قَد يقيم أودَه لأيام أُخرياتٍ قادمات، إنّما لابد كذلك أن يتخلّى عن العصبية واللهفة وأن ينبش في رويةٍ وفي اتّزان. راحت يده تتداخل في عمق التلّ، خَدَشه حدّ صفيحةٍ عوجاءَ، ولم يحفِل، ظلّت يده بنفس مرونتها ونفس الحافز، وهي تقلّب بطن القمامة علّها تستقر على كيس منتفخ أو علبة لم تُلتَهم لآخرها. يده تقلّب، وعيناه تجوسان في تركيز شديد كلّ ما تتحصّل عليه يداه، ولم يكن اليأس قَد انسل داخل أعماقه للمرتبة المحبطة بشكل تام،

غير أنّ يديه أصابهما بعض التراخي في البحث، كانت الأشياء التي وقعت عليها يداه مجرّدَ أطباقٍ بلاستيكية فارغة وأكياس بداخلها أكياس بداخلها أكياس لا تنتهي ولو لقليل مِن خبز، زَفَر في مرارة وكان يخشى من الفكرة التي جالت بذهنه؛ أنّ بحثَه لن يفضي إلّا للمكوث خالي الجوف من الزاد، فاشتدّت أصابعه في ولوجها داخل الكوم، فكرةُ أن يؤول بحثه إلى فشل أوقدت لهفتَه أكثر، فأخذ لاهثًا ومِن غير كلل يسعى بأصابعه محتملًا أيّ غذاء، وكانت لفحةٌ باردة مِن هواء قَد راحت تعبث بياقة القميص المتهرئ.. ولم يعبأ بها أيضًا.

تتشابه المعالم تحت جنح الظلام، لم ينتبه للجرو الهزيل الذي يلوح مِن خلف التلّ وكأنّه بقعة أشد حلكة مِن سواد عتمة تُخفي بداخلها كلّ التفاصيل، جرو كان يبحث عن غذائه في جهة مختلفة من التلّ، بدا عليه اليأس وهو يجرّ قدميه مِن ورائه ويستدير ليُكمل بحثه عن طعام في هذا الجانب، توقّف قليلًا وهو يلمح شريكَه في المأدبة، انتَصَب ذيلُه، كاد ينبح لولا أن الهزالَ لم يسعفه، فاكتفى بأن كشّر عن أنيابٍ يجري اللعاب مِن بينها في خيطٍ واهٍ، وتسمّر على مقربة متحفّزًا.

"إلامَ تنظر؟ هذه ليست قمامة.. إنّها وجبة عشائي....

"ووجبة عشائي أيضًا" أوشك الجرو أن ينطقها، بانت في محيط عينيه اللتين ازدادتا تحفّزًا وعِندًا، وبدا أكثر أنّه يتأمّل عين "عبد النبي" المفقودة، وكان ذيلُه يهتزّ متأهّبًا لأيّ ردّ فعل.

همس له "عبد النبي":

لا تنظرْ إلى عيني، ثمّة مفقودات أخرى لا تراها عين.

وبادله النظر قليلًا، ثم مضى يُكمل البحثَ غيرَ آبهٍ به، بقي الجرو متحجّرًا في تأهّبه كما لو أنّه على يقين بأنّ ليلةَ الغذاء ليلتُه مِن دون ريب، سامحًا للآخر أن يقوم نيابة عنه بجهد البحث.

كان الكوم قد بدأ في التبعثر مِن متنه على مسطّح الإسفلت، واليدان بلا ملل تفحصان ما بالداخل، والعبوس راح يستولي على وجهيهما، وقَد جعلت فكرة الفشل تستوطن نفسيهما معًا أكثر فأكثر، والبرد يُحتمَل.. إنّما ليس لكلّ هذا الوقت.

فجأة توقفت اليد، انفرجت أسارير "عبد النبي" شيئًا ما، شَعرَ الجرو فتقدّم خطوة للأمام، خرجت اليد برغيف خبزٍ كامل لم يُمَس، بدا ناشفًا ورغم ذلك بدا شهيًا كذلك، وكأنّما خارج لتوه من قلب فرن، التفت "عبد النبي" للجرو قائلًا:

- لا بأس أن نتقاسَمه معا....

لكن الجرو في سرعة وثب، تعرّى مِن هزاله ومِن ضعفه وقبض بين أسنانه على نصف الرغيف، غير أنّ يد "عبد النبي" لم تكن لتنهزم عقب كلّ ذلك التعب، قبضت هي الأخرى على النصف الآخر في إلحاح وصلابة، تهشم الرغيف وتساقط متناثرًا على الأرض فمضيا يلملمانه في حذر وكلًا

منهما يحاول أن ينال ما استطاع مِن كسراته.

بعد كسرة وثانية، رفع "عبد النبي" رأسَه للسماء، ابتسم ابتسامة حمدٍ طفيفة في تهكّم، وبدا يستمع لتأوهات الأبدان وشخير الأجساد النائمة في الحجرات التي تتوّج بطن الشارع، له حجرةٌ فوق سطح، لكنها حجرة دائمًا باردة ورطبة، وشرفتُها الموصولة بالسطح، والمطلّة على العالم مِن أعلى، شرفة قاتمة، بائسة. نَظَر للجرو الذي أتى على كلّ القطع المبعثرة على الأرض من الرغيف، ووقف مستجديًا قطعة تمسكها يدُه، ناوَلَها له وربت على رأسه، تدثر بياقة القميص مِن البرد مرّة أخرى وافترش جانبًا من الطريق بجوار تلّ القمامة، اندسّ الجرو في دفئه فابتلعهما لون ظلام الليل، وأخذا يشاركانِ الحجراتِ الدافئةَ بالأعلى نفس الشخير المطمئن، والذي يوحي في مجمل الأمر بالشبع.

مسعود الأكبر

(3)

"قدرُ اللهِ يا "مسعود" إلّا أنجوَ مِن فخ العدم الذي رُميتُ إليه عن غير احتساب، إنّما قَدرُك أن تنجو أنت، وتستكمل، وتدور بك الدوائر ولا تسأم، لا تفزع قَط من هجمات المصائر، وذلك ممّا يريح نفسي قليلًا، ويجعلني أعيش الخلودَ كأنّه سينتهي غدًا، أراك ضاحكًا عليّ يا "مسعود"، أعرف أنّه لا يوجد غدٌ في مصيري هذا، إنّما دعني أتصوّر، ودعني أحتمل انتفاء الاستحالة، بدلًا مِن مكوثي العقيم بلا أول ولا آخر.

لم تنفتح بؤرة البحر ثانية، ولكن ثعباني انتقل خلالها مع جثّتك، نعم إن توقّعت هذا، هو الثعبان الذي استقبلك، والذي صاحَبَك نيابة عنّي، إنّما الغريب يا "مسعود" أنّ جثّتك تنتقل مِن عالم إلى عالم بلا رقيب، فكما دفنتُك بيدي هنا، تركْتَني وانتقلت خلال بؤرة البحر، لبؤرة أخرى، ترعة أخذ ماؤها يصعد لأعلى كمعجزة لا تَحدث في عالمك البعيد كثيرًا، الأغربُ هو الانعكاس الذي حدث، كأنّي أنظرك في مِرآة، جئتني منعكسًا، وانتقلت لهناك ثانية منعكسًا، يا لها مِن عوالمَ تلك التي نحوّم فيها بأرواحنا! مَن يصدّق حكاية الرجل الذي انقسم! ثم مات وانتقل، ثم انتقل فمات، يا لها مِن أعجوبة!

اطرحْ لي فكرةً غير تلك وقَد أصدّقها، أن نتجاوب ما بين العالمين فتكتب عنّي ما ليس أكتبه، وأرى عنك ما

لا يمكنـك أن تـراه، تكتـب غيبـتي، وأرى غيبـك وغيـبَ أولادك وأولادهـم مِـن بعـدِك، أخبرتُـك بـكلّ تلـك التطـوّرات قبْـل أن تحـدث، بيْـدَ أنّـك لـم تُـرِد أن تصدّقـني، لا بـأس يـا "مسـعود"، هـي الخرافـات هكـذا لـو أنّ حكايتَنـا خرافـة، خرافـة مِـن هـذه الـتي بإمكانهـا التحـوّل لـتراثٍ مِـن حـكي عظيـم، إنّ الأسـاطيرَ في أصلهـا حكايـات خرافيـة، إنّمـا حدثـت، ذلـك الـذي لا يُدركـه خلـف الحكايـات، لكـن دعـني أسـألك: لمـاذا أضرمـتَ النـارَ في حكايـتي وصليّـتَ عليهـا؟ هـل صليّـتَ عـليّ أم عليـك أم عـلى غـدِ أولادك؟

هـذا الزمـنُ غريـب، يسـير البـشر معـه في خـطّ مسـتقيم، وهُـم لا يـدرون أنّ الزمـنَ في حـدّ ذاتـه مغـرم بالانحرافـات، وكلّ انحرافـةٍ لـه معجـزة، وصولـك آمِنًـا دوني لقريتنـا انحرافـة كـبرى، أن تعيـش حيـاتي انحرافـة أكـبر، وأنْ أَشـهَد هـذا انحرافـة ليـس بعدهـا انحرافـة. صدّقـني لا يواسـيني غـيرُك هـا هنـا، أمامـي البحـر أسـود المـاء، وأمامـك مسـتقبل ليـس بيـدك تبديلـه، في كلّ الأحـوال قصّتنـا تبـدأ مِـن حيـث تنتهـي، والعكـس، فقـدْ تنتهـي مِـن حيـث بـدأت، الطلاسـم لهـا حـلّ يـا "مسـعود"، عليـك أن تؤمـن بطلسـمية الزمـن نفسـه، كي تُـدرك الحـلّ، اللغـز في نهايتـه أضحوكـة، والأضحوكـة في أولهـا دهشـة، والدهشـة لا تليـق بمؤمـن يـا "مسـعود"

لكنّـك اكتسـبتَ بعـضَ طلاسـمي، والـتي مارسـتها في غـير اتّـزان، سـامحني يـا "مسـعود" فلـم يكـن لـك أن تقـرأ ذنـوبَ خليقتِـه، مَـن أنـت في نهايـة المقـام؟ مجـرّد رحّـالٍ مـا بـين العوالـم والأزمنـة، حـتّى ولـو فرضنـا جـدلًا أنّ نـزق التجربـةِ

في حدّ ذاته أخّاذ، ويعميك عن رؤية الحقيقة، إنّما ذنوب البشر خاصةٌ بخالقهم، هو وحدَه - ولا شريك له- كاشفٌ لأسرارهم، وقارئ لذنوبهم، وحاكِم عليها، أنت فقط استعذبتَ سطوة الكشف، فكشفت، كان الرجل يجيئك، متوضئًا مِن ماضيه، يستعيد بك ذنوبَه، عندما تضع راحتك فوق رأسه، كَم مِن الرجال خرجوا مِن عندك متضرّعين المغفرة! أنت بَشر مثلك مثلهم يا "مسعود"، ونساؤك اللواتي تتجدّد عذريتُهنّ، ألَمْ يَشعرن ببعض الارتياب؟ ربما كان إبليس نفسه يضاجعهنّ، ما أدراهنّ بذلك؟ والخمس سنوات التي صُمتَها، ألم تعلّمك شيئًا؟

بدا أنّك يا "مسعود" استطبتَ الشطط، فذهبتَ إلى ما لم يذهب له نبيّ مِن قبلك.

الجَدّ مسعود

(4)

ظهرت القرية جليّةً رغم الظلمة، ليس مِن صوت إلّا وشيش هامس، بدا كلّ شيء عاجزًا عن التحرّك، خائرًا مهجورًا، نظرتُ خلفي، وكانت تمتدّ الأرض الخضراء مِن بَعد فاصل مِن رمل لونه أصفر باهت، بسملتُ، ودلفتُ، أخذت في تفقّد معالم القرية، تبدأ بترعة ماؤها ساكن، رائحته نفاذة خانقة، أدركت أنّ ماء الترعة هجرته الأسماك أيضًا، وكدت أستدير مكملًا بحثي لولا أنّ ثعبانًا ضخمًا وثَبَ نحوي، تراجعتُ في هلع، وكادت مِخلتي تسقط، غير أنّه الثعبان- راح يمسّد بملمسه الناعم ذراعي، فهمتُ انتواءَه صحبتي، فابتسمت، وسار جواري أرضًا يحتذي بخطوي بعدّها مضى يتقدّمني زاحفًا، كما لو أنّه يمهّد لي طريقًا وسط الأحراش الغائرة في العتمة، ومِن قلب هذه العتمة، بدا ضوءٌ خافت يتبدّى، دنوت، مسرعًا خطواتي، ألفيتُ بيتًا يئزّ بمدخله مصباحٌ غازي مليء بالسناج، وقفت أمام البيت أتفرّس، كان سقفه مِن جذوع نخل، وبدنه مِن طين وجير، تقشّر الجير جرّاء الزمن، التفتّ لصاحبي قائلًا:

- هذا هو بيتنا بإذن الله.

رمَقَني بعينيه تأكيدًا، دخلت البيت، سكن بابه ... صوت وسكنته وحشةُ الهجران وقوضّه الإهمال، وو... مشيت بتؤدة، وكان ثعباني دليلي، فإذا تسمّر... أنّ الموطئ يعيقه جماد، ثم لمّا أخذتْ عيناي تألف... والظلمة، استطعتُ تبيّنَ تفاصيل البيت، وانتويت ...

دخولي بلا استئذان- شراءَه مِن صاحبه إنْ وجِد، وأوعزت الأمر أنّه بيت مهجور مشاع للزواحف والكائنات، فطمأنت ضميري. صَرّ باب الغرفة وأنا أدفعه، وكانت الغرفة تحتوي على سرير نحاسي مغبّر بالأتربة، وكنبة في ركن تهرّأت نتيجة الترك. تنهّدتُ، شعرت ببعض الاختناق، وثعباني طلع يجاورني فوق الكنبة، ثم بعد قليل، سمعت صوت ارتطام، نهضتُ، خشيت أن يكون البيت مسكونًا واستبحت دخوله، في فزع هرولت للخارج، اصطدمت ببعض الأشياء، انفتحت ضلفة الباب الكبير عن جسد ضخم، بسملتُ، إنّما قلبي لم يخشه، قدْرَ ما اندهشت، ثعباني تقدّم ناويًا القفزَ عليه، غير أنّي تقدّمت عليه، فتراجع، بدت أنفاسه عالية، اقتربَ منّي، قبض على كتفي بيده الخشنة، ثم طاقة مِن رؤية انفجرت قبالتَي، فأدركت يا "مسعود"، واستطعت ملامسة المعاناة التي ألقاك إليها البحر، ورأيت صديقي "طلحة" واقفًا وعيناه دامعتان، غاص "طلحة" في لحم كتفي أكثر، فاستبصرتُ أكثر، وأحسست بالغثيان، لست أتساءل عن المدى الذي بلغته يا "مسعود" مِن تيه، على قدْر ما أشفقتُ على عزلتك في هذا العالم البعيد، رأيتك يا "مسعود"، رأيت نفسي، وانفصالي عن ذاتي، ولم أعرف إنْ كنت قد مِتّ أم تلك معجزة لم يعرفها زمن البشر! قال لي شيخي أرى وجهيك. لم أفهم ساعتها، وقال لي "طلحة" إنّي خالدٌ أعيش أبدًا. لكن ليس هكذا أعيش، بل هكذا أتحسّر عليك وأنت معزول عن زمني يا "مسعود"، هل هي مأساة كافية كي أكفُر برسالتي؟ أم هو ترتيب قدري وجب أن أعاينه كي يُعاد استطلاع بعض الأولويات؟

عبّود

(5)

الغُـرَفُ امتـلأت بالأنـين، والنشـوة سـادت البيـت، والنسـاء يتبرجـنّ بـلا راحـة أو تمهّـل، بـات عوزهـنّ سريـع التوالـد، وبـات جسـدي لا يحتمـل، بـل لا يكتفـي، فكمـا اندهشـنّ مِـن فحولتي، اندهشـتُ مِـن تأجّـج غريزتهـنّ، ثلاثـة نسـاء ورَجُـل، ثلاثـة أولاد وأمانـة، وحـزنٌ كاد يُنسى لـولا صـورة الأولاد الـتي لـم تفـارق غرفـتي، النسـاء لا يتأسـين عـلى أزواجهـنّ قَـدْر مـا يتناحـرن عـلى أبيهـم، والأب أدرك خطـورة الأمانـة فصانهـا كمـا ينبغـي الصـون.

كلّ واحـدةٍ لهـا ليلـة مِـن وراء ليلـة، واليـوم السـابع أهـدأ كمـا هـدأ اللـه حـين قَـدّ الأرض، كنـتُ ألمحـني في المِـرآة أسـترجع شـبابي، وتسـترجع نسـاء البيـت أوجاعَهـنّ ليلـةً وراء أخـرى، أوجاعهـنّ الـتي أحملهـا لهـنّ بطاقـتي وشـغفي، تنتهـي الليلـة فأنظـر للسـماء مترحّمًـا عـلى أولادي اللذيـن إنْ عـادوا مـا صدّقـوا أنّ نسـاءَهم جرعـن إكسـيرًا لـولاه مـا بقـين لحظـة واحـدة، هـي حكمـة متدرّجـة العقلانيـة، فحسـب مـا يشـاء القـدر، أكـون، إنّ اللـه نفسَـه إذا قـال للـشيء كُـن كان، فمـا حيلـتي أنـا العبـد الـذي أمَـرَني ربّي فامتثلـت، وأهملـتُ القليـل مِـن أعمـالي مـع ذلـك، رغـم التجـارة الرابحـة، إنّمـا أنـا فقـط مَّـن يمكنـه تقديـر حجـم الإهمـال، هـذا لـو أنّ لغـزارة الريـح تقديـرا، كانـت الأمـور تجـري في بيـتي كمـا تجـري أسـماكٌ في عمـق نهـر، لا يمكـن لأحـد إلّا أن يَصيـد ليكشـف.

وقَد صادَ "جابر" بعض أسراري.

عثمان

(6)

- كأنّكم لا تَعرفون -وأنتم أصحابي- حجمَ خسارتي في ولدي! أحمل إليكم حكاياتِ "الجوّالة" وأنا أعلم أنّه لن يحملها مِن بعدي ولد، تلك مفارَقةٌ يا سادة، تلك المأساة في أعمق معانيها، لكن هل بيدي حيلة؟ الولد هَجٌ مِن تلقاء نفسه، إنّها الحقيقة، دخلتُ عليه ووجدته غارقًا في دمّه، ففزعتُ، حاولت أن ألمّه في حضني عساه يغفر لي إهمالي، فما تركني أفعل، طوَّحَني ثم بَصَق عليّ، تخيّلوا! ابنٌ يبصق على أبيه، والأدهى قال لي جهرًا: أنت سكّير كافر.

واستدار "عثمان" حوله يلمَح تأثيرَ حكايته على أصحابه، وجَدَهم شاردين بغفلة الخمر، لكنّه أكمل:

أأنا كافر؟ سكّير ماشي، صَدَق، لكنّي لست بكافر، حاولت تعليمَه القرآن فاتّهمني بالكُفر.

قال أحدهم بصوت متهدّج بطيء:

- كنت علّمت نفسك أولى يا "عثمان"

- ماذا تقصد يا زنديق؟

اتلُ لنا سورة الفاتحة.

فانفجروا ضحكًا، هذه المرّة لم يَنهرهم "عثمان"، بل ائتَنَس بضحكهم وفي قلبه تكملة الحكاية، التي بدا أنّها لن تكتمل أبدًا.

جابر

(7)

إنّها المرّة الثانية التي أدخُلُ فيها بيتَك يا "عبد الحارس"، المرّة الثانية التي أراكِ فيها يا "خديجة"، إنّما ليتَها لا تصبح الأخيرة، ليتَ رّبي يمكنني مِن التغلّب على مَن يسكنك، إنّ العزيمةَ التي أحملها بداخلي لا يقدر عليها جنّ العالم يا "خديجة"

الغرفةُ على الشارع، وأهلُ البيت يُطِلّون بأعينهم في شغف، وعدم تصديق، إنّي إنْ أخرجتُ مَن بداخل ابنتهم خرجتُ بها مِن بينهم، عروس تزف لابن "الجوّالة"، هل يصدّق أحد؟ في الحياة بضعة منحنيات قدرية تبعث على الحيْرة، غير أنّ حبي لكِ يا "خديجة" ليس فيه ما يحيّر، اللهم إلّا إصراري عليك حدّ تطاولي على الجّن نفسِه.

جلستْ أمامي، وجلس أبوها يحدّق في ذهول، كانت "خديجة" تنظر لي في حنق، وعيناها تشعّان غضبًا ليس بشريًا، بشكلٍ لا إرادي، كانت تحملق وتجوس بعينيها ممسوسة لا ريب، قلتُ لها:

- صافحيني يا "خديجة"

فمدتْ لي يدًا مرتعدة، قبضتُ عليها، حاولتْ سَحبَ يدِها، باستماتة جنّي، إنّما ظللتُ قابضًا وأنا أحدِّجها في صرامة، جذبتني نحوَها وصرختْ، فصحتُ:

- اخرجْ.

اشتعلت في لحظة، اشتعلت غضبًا، زامت وبدت سوف تحرق البيتَ بمن فيه، لويتُ ذراعها خلف ظهرها وهمهمتُ:

"وحِفظًا مِن كلّ شيطانٍ مارد"

كان إناءٌ مِن الماء وفيه مِلح تحت قدميها، وفي يدي قدحٌ مِن زيت صنعتُه خصّيصًا مِن شجر كافور وعسل نحل صاف، طوحتْ بقدمها الإناءَ، فاصطدم بالجدار، استدرتُ نحو أبيها فهرع يأتيني بإناء آخر، وضعتُه تحت قدميها المتخشّبتين، ورحتُ أتلو:

"فأوجَسَ في نفسه خيفةً موسى قلنا لا تَخف إنّك أنت الأعلى"

مضتْ تتلوّى، تحاول التملّصَ مِن قبضتي يَمنة ويَسرة، وأنا لم أزل أتلو:

يا دائمًا لا فناء ولا زوال لملكه، تَداركني بلطفك فإنّي ضعيفٌ وأنت القوي، إنّي اللائذُ بك، إنّي الفقير وأنت الغنّي، إنّي العاجز وأنت القادر، وإنّي مغلوبٌ وأنت النصير، وإنّك على كلّ شيء بصير.

دفعتني فتمالكتُ نفسي وهبطتُ فوق جسدها وشددتها مِن شَعرها الهائش متحكّمًا، وسقطتُ فوق أُذُنِها بتلاوتي، فأخذتْ تنهج.

مَن أنت؟

ردّت:

- سلطان.

- دينك؟

فزامت، صفعتها، احمّر وجهُها، وبرّقت بعينيها، جزّت على أسنانها وأبتْ أن تُجيب، لطمتُها على ظهرها ولكنّ أحدًا لم يتدخّل، وقَد أوصيتهم أنّهم مهما رأوا فإنّ تدخلَهم في غير مصلحتها، رحت أسكب الزيتَ على شَعرها، فبدت تحترق، وجعلتْ تصيح صياحًا حّادًا، رششتُ الزيتَ على ظهرها ورحتُ أدعكه، طفقتْ تئِن، تتلوّى، وتستجديني بعينيها أن أنتهي ممّا أفعل، فما انتهيتُ، وازددتُ دعكًا بالزيت المُبارك، المتلو عليه، واحتددتُ صائحًا:

انطقْ.. ما دينك؟

عاندتني، كرّرت:

- مسلم؟ مسيحي؟ يهودي؟ كافر؟ مجوسي؟ اخلص.

تخشّب جسدُها كلّه، وبصقتْ في وجهي، وهي تقول:

لا شأن لك بنا.

لماذا "خديجة" دونًا عن نساء القرية؟

شاهدتني واطمأنتْ لي.

هل نِمتَ معها؟

كلاّ...

تَخشّبت "خديجة" أكثر، أخذتْ تجاهِد الفكاكَ وهي

تدفعني بقدميها، وقد تحوّل جسدُها للّون الأزرق تدريجيًا، أدركتُ أنّها تنازع، سألتها:

هل نِمت معها؟

- قلت لا.. هي صاحبتي فقط.. رأينا الإلهَ معًا.. ورأينا ماضي البشر.

- وما دخلك أنت بالبشر؟

- نزعوا عنّي قداستي وهتكوا رقدتي.

انطق ما دينك؟

وصفعتُها بشدّة، بدت ستنتحب، وبدا الروْع في أعين أهلها، لكنّهم التزموا نصيحتي وتركوني أستكمل طقوسي.

كان العنفُ باديًا على "خديجة"، وبدا أنّ لابِسَها يعافر ويأبى الخروج، كأنّه رفيقُها منذ زمن، هِجتُ فيها صائحًا:

- قل لي: ماذا شاهدتما معًا؟

قالت وهي تجزّ على أسنانها:

- شاهدنا بداية الخلق، شاهدنا بداية الكون كلّه.

استدعيتُ أباها، وبمعاونته تمكّنتُ مِن فتح فمِها، ودلقتُ بداخله الزيت، سقيّته لها عِنوة، وراحت تفح، كمسكونة بمَرَدة الجحيم أجمعين، أطبقتُ بيدي على فمِها خشية أن تكب منه ما سقيتُه لها، فجرعته مجبرة، وأعدتُ سؤالي:

- أخبرني ما دينك؟

قالت بصوت يزداد فحيحًا:

- مجوسي.

- آه يا كافر يا ابن الكلب.

ولطمتُها ثانية، ثم انكفأتُ أتلو عليها قِصارَ السور، داخل أُذُنِها، وكان الذي بداخلها يعاند، لولا أن تكالبتُ عليها، وسيطرتُ على حركة جسدها، ثم أجبرتُها أن تنحني، فأفرغتُ الزيتَ الذي بجوفها، بعد ذلك سقيتُها مِن إناء الماء المالح، فترغرغتْ والدموعُ تسحّ مِن عينيها، ثم دستُ على بطنها وصحت: ١

باسم الواحد الأحد القهار، الذي بيده بعب وبيده قضاء، الذي يعرف ما تُسِر وما تعلن، الذي أتمّك وهذّبك وشكّلك، كُن كما يريدك هو، لا كما يريدك البائد، واخرجْ، جِد لك منفذًا واخرجْ، وإلّا أحرقتك.

مدّت ساقيها، وتحطّبت، وأخذ جسدُها يرتعش بأكمله، ويصوت يئّن كانت تنازع الألم، وطلع مِن ظفر قدمها اليسرى الأكبر دُخان، اشتممتُ رائحتَه، فأدركتُ أنّ غايتي تمّت، أمّا هي، صمتتْ، كأنّها تحنّطت، فجزعتْ حولي العيون، ثم فجأة، أرختْ ذراعيها، وراحت تتطلّع فينا باستغراب، ضحكت، وتنفست الصعداء، ورحت أمسح العَرَقَ بكُمّ جلبابي.

أدركتُ أنّ "خديجة" قد عادت، غير أنّي لم أعرف أنّها قد ترحل ثانية.

طلحة

(8)

شرابُ "طلحـةَ" أولُـه ألـم، ثـم تقيـؤ، ثـم راحـة ترخـي عضـلات جسـدها، تـراه جالسًـا رافعًـا عينيـه للسـماء يبتهـل، ويتمتـم بمـا لا تفسّره أذناهـا، وهـي راقـدة تنتظـر الـذي يسـكن رحِمَهـا بـلا بـذرة، وتتألّـم كثـيرًا، وتفكّـر أكـثر، أهـل قريتهـا لعلّهـم الآن يعتقـدون في جنونهـا، أو ربمـا في فسـوقِها، بعضهم رجّـح هلاكَهـا، وبعضهـم لـم يـزل يبحـث وراءهـا، تلـك الأمـور ليـس يعنيهـا أن تفكّـر فيهـا قـدْرَ مـا يؤلمهـا احتمـالات الغـد، مـاذا لـو؟ أسـبلتْ جفنيهـا، وأسـلمتْ روحَهـا للاطمئنـان، إنّ اللـه إذا أراد معجـزة حدثـت، إنّمـا هـل يفهـم البـشر معـنى المعجـزات خاصـة في مثـل هـذا الزمـن؟ اعتزالهـا مـع "طلحـة" في هـذا المـكان مخاطـرةٌ كـبرى، لـم يكـن بـدّ منهـا، كان الوحيـد الـذي قَـد يسـتبصر لغـزَ أحشـائها، وفعـل. تلمّسـتْ يداهـا الـشرابَ القابـع جوارهـا وتناولتـه، رشـفتْ منـه ثانيـة، وأحسّـت بـدفء أكـثر، بعـد قليـل، رشـفت مـرّة أخـرى، وبـدأ خَـدَر لذيـذ يكتنـف أطرافَهـا، إنّهـا دائخـة وتبحـث عـن نهايـة لِمـا يعتمـل في داخلهـا، تبحـث في الغيـب، بـلا جـدوى، سـيقولون هـو ابـن حـرام، ولكـنَّ قتْـلَ النفـسِ فيـه حرمـة أكـبر، إنّمـا ليكـن كلّ الـذي لا تحتسـبه، ولا تريـد، أمْـرُ اللـهِ نافـذ في أعماقهـا. تـدور بهـا الغرفـة، لا تجـد مسـتقرًا إلّا في وجـه "طلحـة"، كان يتطلّـع إليهـا، مشـفِقًا، هادئًـا، يُـدرك مـدى مـا يسـتوطنها مـن ألـمٍ غائـر في حشـاياها، جهّـز طسـتًا، فيـه مـاء ينفـث البخـار، أدركـتْ أنّ السـاعة حانـت، لكـنّ شرابَـه سـاعدها عـلى الاسـترخاء، قـام،

وأعـدّ أقمشـة، وأحسّـت بجفـاف في حلقهـا، فحاولـتْ أن تقـول شـيئًا، دون جـدوى، لكـنّ "طلحـة" قـال:

- إنّ الله سيمنحنا الوديعةَ الآن.

كادت تسـتفيق لـولا خَـدَر أعصابِهـا، لـم تفعـل سـوى أنّهـا ابتسـمتْ بـشيء مِـن بلاهـة، ومـدّت لـه يدَهـا، فمسّـها بأناملـه، وسرتْ طمأنينـة.

قال "طلحة":

- نور آخر سيهبط على وجه الأرض.

إنّهـا حـتّى لا تسـتطيع فهـمَ هـذا السّر الـذي اختصّهـا بـه اللـه، لا شيء يضاهـي معجـزةً ضـنّ بمثلهـا هـذا الزمـن، كلّ التفاصيـل أمـام بصرهـا يمحوهـا بيـاض نـوراني، يشـدّ عينيهـا، فتمنحـه نفسـها، ويـأتي صـوت "طلحـة" مِـن آخـر حواجـز الإدراك لديهـا:

- سبحان الذي يكرّر مشيئته عظة.

تأوّهـتْ، تـدرّج ألمُهـا، فصرخـت، وكأنّ أيـاديَ تَعبـث في أحشـائها وتسـتخرج السّر، أيـادٍ خفيّـة، لا يراهـا أحـد، تعـصر جـدار بطنهـا، وتطبـق عـلى أنفاسـها، فتـكاد تختنـق، وتـكاد بـرودة عظيمـة تجمّـد أطرافهـا، وتسـترجع بقايا الذكريـات، وهي تهـرول خـارج القريـة، تسـترجع يـومَ حـادَ مصيرُهـا - بشـكل لا تسـتوعبه- عـن مصـير أولئـك الذيـن كانـوا، وهـي حـين تتذكّـر أولئـك هنـاء فهـي تتذكّرهـم جميعًـا، بوجـوهٍ أوشـك الغيـمُ أن يضبّبهـا كلّهـا، إلّا وجـهَ "طلحـة"، وإن تعـني إنّمـا هُلكـوا -

مجازًا- ولم يتبق أحدٌ إلّا هي على خريطة هذا الكون، هي بوضوح اللفظ ووجوب الدلالة، هُلكوا، حيث لم يَبقَ في ذاكرتها منهم إلّا وجوهٌ غائمة، ربما كان هذا مصيرها لحكمة لا تعرفها، ولا يبدو ستهتمّ أن تعرفها فيما بعد إنْ نجت، حيث أدركتْ إلّا جدوى مِن معرفة أيّ شيء غير التشبث بالنجاة، في هذه اللحظة، وليست تدري أجسدها هذا أم روح لم تزل تائهة أو ضُيعت في زمن غير الزمن!

الرماد هيئة أخيرة للأشياء، الرماد مصبوغ بالحمرة، ورأسها تجويف تختبئ فيها ذاكرةٌ عقيمة، والأيادي تسحب منها الحياة، وأبخرة.. أبخرة، مراسم التأهيل لفناء، أو بدء عهد أرضي جديد، لم تعُد في المسافة الآمنة وسط الشتات، لم تعُد تكترث، هي ذهبت حيث لم تذهب قبلًا، وتَخشى مِن عواقب صحوها، تشرذمت، ومشاهد قديمة تراود ذهنها، بضع مَشاهد، لا تدري! لعلّ حياةً كانت، لعلّ بعضا منها، لعلّ أفدحَ ما في السّر أنّه مختلَق، مَن يدري؟ أجسد خالص هي لزمن قادم؟ أم جسد أُبيدَ أثناء زمنٍ بعيد فاستهلكته يدُ القدرِ عِنوة؟ جسد لن يمكن للقدر أن يرمّمه، فقط استحدث فيه الأسرار والحيْرة. تذبذبات تجوّل داخل أحشائها، ليس يمكنّها تلمّس أنّها كانت، إنّها تجريد خلق جديد، مقدّم للوجود كبداية حتمية ربما لضياع لا نهائي، أسئلة، بلا إجابة.

تستعيد أكثرَ فأكثر، وبشيءٍ مِن غموض، يومَ هرعت تلوذ بالخلاء، يوم شعرتْ بما يداعب بطنَها، خشيت ما قَد يقع مِن هول، فقادَها ذلك لارتحال غير إرادي، خشيتْ

مِـن الـسّر، حيـث لـم يعـد يمكنهـا التكهّـن بـه، أو بملابسـاته، ولـو حـتّى بإعمـال الخيـال - ذلـك إنْ كان الخيـال مـيزة متاحـة، إنّمـا أدركـت أنّ الـسّر عـاتٍ، ولـن يمكنهـا بإدراكهـا الـذي فُطـرت عليـه استشـفافه. سـياط تلسـع جسـدها، عصـارات ملتهبـة تزبـد في فمهـا، حـواف التفاصيـل تختبئ في ثنايـا ظلمـةٍ حالكـة، تمـضي بإحساسـها الباطـن لنهايـة غـير مأمونـة، ثـم تُـدرك أنّ كونـا جديـدًا، تبـذره يـدٌ بعيـدة، يبـدأ في التولّـد، فتأخـذ في التـلاشي، ببـطء، ودونمـا درايـة.

لـم تكـن تُـدرك أنّ أولئـك - الذيـن كانـوا- ينبشـون الـوادي، بحثـا عـن ضالّـة، هجـرتْ قريتَهـا، وخلّفـتِ العـار.

عبد النبي

(9)

(أنا إبليس، في عمقك أهمِسُ أيّها الكائن، اتبعني تكُنْ مَصونًا من شرّ التأويل، وإلّا تفعل، تجلس حسيرًا ألازمك -رغم ذلك- عِنوة، فأنا الطليق أجتثّ اليقين، أنا اليقين لو أمعنتَ الميل، ثم أنا الميل في حدّ روعته لو آمنتَ بحكمتي.

كن صفقتي الأبدية، كن قطعتي الفنيّةَ التي راهنت عليها، قَد تعلّمت الأشياء، لكن لا بأس، بذات اللغة التي جُبِل عليها لسانك وعقلك وباطنك، سأتلو عليك كتابي، ردّد ورائي: "سوف أغزو الكونَ ببأسِ وسطوةِ نبيّ ليس اصطفاه غيري").

كلّما يَهذي "عبد النبي": مساء الجنون. تردّد الأصوات داخل رأسه: مساء الرحمة. وبدورها تنوح السماءً فوقَه، يراقبها بعينيه، ويسمعها، مؤكّدة أنّه -رغم كلّ الاحتمالات وتعدّدها بل في مطلق الأحوال- هو عاجز، ليس يهمّ إنْ كان العجز مسبّبًا، أو تلقائيًا، أو فجائيًا، في الحقيقة بات العجز في حدّ ذاته لذّةً غيرَ مسبوقة، تعايش معها، وكلّ مرّة تحمل نزقًا جديدًا، فأيّ أهمية!

بَعد أن يَفتح بابَ غرفتِه الكائنة فوق سطح بناية متهالكة -ويقف قليلًا يستقبل بارتعاشةٍ خفيفة صفعاتٍ مِن هواءِ شتاءٍ كانت في انتظاره وراء الباب- يلقي عليهم التحيةَ، ويبتسم هازئًا. يرمق عرائسه القماشية، ففي كلّ صباح، في كلّ

مساء، وفي كلّ خروج للسطح، يستقبلونه بأعينهم الزجاجية الخالية مِن الحياة، لكنّه يلقي عليهم التحية، ولو بشيء مِن فتور.

يجلس أرضًا جوارَهم مستندًا بظهره على جدار السور الداخلي، ثم فيما يتناول وبتأنٍ شديدٍ أطرافَ الخيوط المتعلقة برؤوسهم ويشبكها بأصابعه إصبعًا إصبعًا، يرفع عينيه صوبَ سماءٍ تلبدّها بقعٌ مِن غيوم داكنة، ويراقبه سوادَها حين ينفرج عن بؤر يتخلّلها شيء مِن ضوء القمر، وفيما تتشابك أناملُه كلّها مع أطراف الخيوط، ببطء يشرع في دندنةٍ غيرِ مفهومة، ثم يبدأ في تحريك الخيوط فتتحرك معها عرائسه المرتخية، وقَد يُغمِض عينيه كأنّه يستمع إلى تأوّهاتها وهي تتراقص تحت أصابعه، فكلّما أغمَض عينيه راودته أصواتُ التأوهات الملفّقة، تأوّهات تحمل مِن الأسى قَدْرَ ما تحمل مِن متعةٍ له، فتتملّكه نشوة، يزداد معها قبض لسانه على وتيرة الدندنة، ويتأرجح، بتؤدة.. بلا إرادة.. يتأرجح، فيجد نفسَه يردّد:

الأقدار صانعة الألم.

لكن الأصوات في داخله؛ والتي لا يَعرف لها مصدرًا ولا يتمكّن مِن السيطرة عليها، تتمتم:

الأقدار لا تصنع خطايانا.

فيتقلّص جسده دفعة واحدة مباغتة، يدور في رأسه التساؤل: أيّ خطايا!

يُمسك عن دندنته غير المفهومة، ويحدِّج العرائسَ الساكتة بين يديه بنظرة حانقة منذرًا:

- كفاكم ضجيجًا في عقلي.. عرائس أنتم ليس أكثر.

ويستقيم واقفًا، يقذفهم جميعًا مِن بين يديه فيتساقطون ويتبعثرون صامتين، يهب إلى داخل غرفته مشتاطًا مِن غيظه وغضبه. يلمحهم بطرف عينه وبدا له أنّهم يتحركون، فيزداد حنقًا، وفي محتويات غرفته المتسخة المبعثرة يقلّب، تتهاوى أشياءُ وتتحطم، فيشعر وكأنّ قلوبَهم كذلك تتهاوى وتكاد تتحطم، يشعر بهم يرتجفون، مِن خوفهم، ومِن البرد والقلق وانتظار ردّة فعله، فيضحك بصوت مجلجل، والصوت في رأسه يدوّي:

"أنا إبليس، إنا ابنُ اللهِ غير الشرعي"

يجلس لاهثًا مستندًا على الجدار ذاتَ الاستنادة، ويمسح بكُم البيجامة الرثّة قطراتٍ مِن عرق لا يجففها الصقيع، ثم يرفع يدَه المنتفضة، فيبدو لمعان حد الموس في يده كلمعان كلّ مخاوفه، وهو يلتقط عروسًا منهم، ساقطًا على رقبتها بالموس، يجزّها كما تُجز رقبة خروف، فتنفصل عن الجسد، وهو يضحك، ويضحك، ويحتوي سماءَ العالم كلّه بنظراته غير المستقرة، إنّما؛ يتحجّر مرّةً واحدة، حين تتدفق نافورة ضعيفة مِن دماء، نافورة مِن رقبة العروس، يتحجّر ولا يستوعب، لكنّه يخاف، نفس خوفه مِن "عثمان الجوّال"، خوفه القديم مِن الحياة، نفس الحياة التي دبّت في غفلة منه بأجساد العرائس الأخرى، التي راحت

بسرعة تتقافز إلى آخر جدران السطح وتتكوّم جوار بعضها منكمشة. يفرد ساقيه ويتنهد، وبإبهامه يحجب عن رقبة العروس منفذَ الدم، ويرمي إلى السماء بصرَه، كانت السماء - ككلّ ليلة- تناصِبه العداءَ، وتتهكّم برغباته وتقلّبات ذهنه، فتخرج منه الدموع، مِن عينه الوحيدة، منحدرةً إلى صدره، كما تنحدر إلى العروس الصامتة بين يديه فتبلّلها، فتبدو ارتجافة جسدِها مستجدية، لينحني ببصره آسِفًا نحوَها، ينتفض، يهب واقفًا بإحساس جديد، ويهرول إلى غرفته مرّة ثانية، وكلّ العرائس يتابعونه بأعينهم المغلوبة ونظراتهم المتوجّسة؛ أعينهم الضيقة ضيق الذاكرة، غير أنّه لا يستغرق وقتًا إلى أن يعود حاملًا بين أصابعه خيطًا وإبرة، يجلس مكانه، يتناول رأس العروس ويرتّقها بالجسد مرّة أخرى، وبعد قليل -بعد أن يكتمل تلاحمهما، وبعد أن يزفر أنفاسَه وتهدأ، ويزدرد لعابَه منتظرًا- تكون السعلة التي تطلع على استحياء هي بادرة قاطعة على رجوع الحياة ثانية إلى جسد العروس الممزق، التي ترمقه برهبة، وتنسل مِن بين يديه، منضمّةً إلى الإخوة والأخوات، يتحسّسون جميعهم تشوهاتٍ كلّ مساء فوق الوجوه، باضطراب، وحسرة، وهُم يحملقون فيه، في جلسته عند زاوية جدار السور، في تأمّله المعذّب لأفق السماء، فهُم يدركون أنّ ما تتركه عادتُه في ممارسة طقوسه فوق وجوههم ورقابهم وأجسامهم آثارًا قَد لا يمحوها زمنٌ ولا برد ولا مطر، رغم ذلك - ولأنّ سور السطح عالٍ جدًا فلا يستطيعون الفرار- هُم ينساقون وراء نشوته صاغرين، ولعلّ ق وطأةَ الألم، ويدفعهم

أحيانًا للبكاء مثلما يبكي، بل كثيرًا ما أشفقوا عليه، في الواقع -وتحت كافّة المقدّرات- هو رابطة مِن نوع شبه أبدي، كذلك ربما الإحساس بأنّه ضعيف ما يفوق ضعفهم وأكثر، ويخشى للغاية من الخروج إلى الحياة، ويخشى مِن صوت الرعد، الذي لطالما صاحَبَه صوت طرقات عنيفة على باب الذاكرة، فيظلّ أمامَهم يرتجف، دون حتّى أن يفكر في حماية وجهه مِن قطرات المطر القاسية الباردة، يترك نفْسَه لها، فيتركون له أنفسَهم، ويزحفون نحوه بحذر، ولمّا يطمئنون أنّه ما زال يهتز مِن صوت الرعد وصوت الأيادي على باب ذاكرته، يخمشون ساقيه بأظافرهم الضئيلة، ويصعدون ببطء على جسده/ إلى وجهه، يشكّلون سائرًا يحاصر الأمطار والبرد والرعب، حتّى تتلاشى شيئًا فشيئًا أصواتُ الطَّرَقات الصاخبة على باب ذاكرته، حين تتلاشى أصوات الرعد.

(السيل)

(ويبقى العقلُ دائمًا في علاءٍ مطلقٍ عن كلّ الحواس، وفي تنزيهٍ وتجريد، فهو الكاشف، المكشوف له، له الفردانية الكاملة، وله الأسبقية المشفوعة، المبرّأة عن الحلول والاحتواء، في الزمان والمكان)

-مُقتَبس-

مسعود الأكبر

(1)

"عُـذرًا للصـبر يـا شـيخي، يومًـا وراء يـوم أنـزع عـن كتفَـيّ رداءَ اليـأس وأفـترِشُ غياهـبَ المسـاء، لـم أعـد بَـشرًا كسـائر البـشر، ثمّـةَ حقائـقُ لا تُـدرَك إلّا بفضيلـة العـدم، حاولـتُ أن أكـون أعصـاب هـذا العـدم، روحَـه الناطقـة، عقلَـه المدبّـر، وعيَـه الباعـث، إنّمـا دون جـدوى، إنّ اليـأس يـا شـيخي مريـرٌ حقًـا، الأمَـرّ هـذا العمـر الـذي لا يتقـدّم، حاولـتُ أن أهَـبَ هـذا العـدمَ بعضـا ممّـا رُزقـتُ بـه في حلـم قديـم، وفي حيـاةٍ سـابقة، كي أشـهد مـا قـد ينجـم جـرّاء التماهـي، دون جـدوى أيضًـا، لسـتُ وحيـدًا للغايـة، قـدْرَ أنّي كنـتُ بعيـدًا عـن صحبـة الماديّـة، أراهـا بعيـنيّ خـلال ذاكـرة أوشـكتْ عـلى الترهّـل، كلّ مَـن أعرفهـم أراهـم، والذيـن لا أعرفهـم، لكنّهـم لا يرونـني، أحـاول صنـع رؤيـةٍ حيّـة، أحـاول رؤيـةَ قـوسٍ خـرافي، هـو قـوس قُـزَح الـذي كنّـت أعاينـه -قديمًـا- مـن الأرض، وأهـرول وراءه محـاولًا الإمسـاك بـه مـن دون جـدوى، إنّـه الآن يمـرح تحـت قدمَـيّ، يداعبهـا لتداعبـه، يدغدغهـا لتشـعر بـه، يستمسـك بخلاياهـا في ودّ، ويتضافـر مـع أحاسـيسي لنضـوّي مثلمـا يفعـل. سـوف أتـرك الحديـثَ عـن اللـون الأحمـر مؤقّتًـا، وأتحـدّث عـن الأزرق، أنـا أحبّـه، أو عـدت أحبّـه، لعلّـك تعـرف ذلـك

يا شيخي، لطالما سكنت في درجاته كدودة عشوائية، كنت أتنقّل صاعدًا مع اللون حتى أغمقه، ولم أكن أسمح للون آخر بمحاولة التفريق بيننا، كنتُ أسبَح بداخله، تمامًا كما أفعل مع البحر الآن، كان يشفطني بداخله مثل سحر أثير، وكنتُ أتلاشي لمجرّد قطرات مِن نسيج اللون، هو ذلك الإحساس، باللاشيء، وكلّ شيء، حتّى أنّي غضبتُ مرّة مِن قوسٍ قديم نَثَر ألوانَه على بحري لمّا طاله الهرم، مِن يومها تألّق البحر واحتضن كلّ الألوان، وأمسى القوس شفّافًا كلّ ما يملكه التحسّر على هويته التي أفناها طوعَ إرادته. أمّا اللون الأحمر فمِن حين لحين يتلقّف الذاكرة، عندما تتخالط أقواس قُزَح، أحاول ترجمةَ إحساسي بأنّها لم تعد جدلية، لم تعد سرابًا يصنعه بأس النهار، ولا ضير مِن المجازفة ومحاولة التحقّق ولو بأدنى الجهد. كُن حقيقيًا أيّها القوس لمرّة في عمرك الأزلي، وهَبْني ثانية ما فقدتُ أيامَ هرولتُ خلفك، أيامَ طارحت سائر أشكال التشظّي لأكون قريبًا منك، ورجاءً لا تحاول فِعل ما اعتدته، أن تسلبَ منّي دموعي كيما تبتكر لونًا جديدًا لا يعرفه عالم العدم، دعْ لي دموعي، وسوف أتركك لتمضي، أعِد لي لونَ وجهي ولونَ واقعي ولونَ ذاكرتي، أعِد لي هويتي التي ذابت في هويتك، فرغم العدم والدخان والأسى الذي يملأ عالمي، فأنا مرتبط به يا شيخي، رغم حجم ما قاسيتُ ورغم جنوني، ووفق حماقتي، أنا لهذا العالم وهو لي. أيّها القوس، اعتقْ كلّ هذه الوجوه التي أحبّتني وأحببتها، أطلِقْها لعالمي ثانية دون أنانية، فأنا - في واقع الأمر- أعيش دونَها وحيدًا.

في كلّ مـرّةٍ، ببـطء يـا شـيخي، أعـود لأرتـدي رداءَ اليـوم بطولـه، ومـع الذكـرى، ينتفـض جسـدي، ومـع الصحـو، ينتفـض أكـثر، ينتفـض لـلا نهايـة، درجـة أنّ اللـونَ الأبيـض رافَقَـني تلـك الفـترة الأخـيرة، صحـوتُ في يـوم يـا شـيخي، وكان اللـون الأبيـض سـيّدَ المشـهد، سـيّد البحـر والرمـل والمـدى، كان كلّ شيء أبيـضَ كلـون وحـدتي، ولـون العـراء الـذي أُلقيـت فيـه، نَعـم يـا شـيخي، العـراء يحـاصرني بـلا نهايـة، وجثـثُ الأولاد تتهـاوى مِـن عالمهـا سـاقطةً نحـوي، فأدفنهـا في الرمـل دون حيلـة، وأتحـسّر عـلى خلـودي، إنّ الخلـودَ لا معـنى لـه بـلا رقابـة، أنـا يـا شـيخي أعيـش هنـا بـلا رقابـة، كأنّي مهمَـل في زاويـةٍ لا تُـرى مـن خـطّ الزمـن، لـك أن تتصـوّر يـا شـيخي أنّي اختلقـت عروسًـا مِـن إحـدى الأشـجار النابتـة فـوق الرمـل، كي تسـامرني، رحـت أشـكّل لهـا الملامـح، ووهبتُهـا اسـمًا قَـد لا تذكـره رأسي الآن، كانـت شـجرة قصـيرة نابتـة جـوار صومعـتي، وقـتَ لمحتُهـا، تقدّمـتُ عليهـا، وأنفـاسي تتجمّـد مِـن بـرودة تكتنـف الأجـواء، وروحـي تـدوّي مـن ألـم الصقيـع، رغـم ذلـك، وقفـتُ أمعِـن في الشـجرة، أنيـسٌ كافٍ، هرولـتُ إلى الصومعـة، تخـيّرتُ قميصًـا، مزّقتـه، وأنفـاسي متهدّجـة، ثـم مُسرعًـا عـدت إلى الشـجرة المطأطئـة أرضًـا في تخـاذلٍ وفي إعيـاء، شـعرتُ أنّهـا بردانـة، مِثـلي، أحطتهـا بذراعـيّ أولًا، لأضمـن أنّهـا واقـع غـير متخيّـل، ثـم أخـذت بأنامـلي أشـذّبها قليـلًا، وأخـذت بعدَهـا أكسـوها بالأقمشـة، ثـم رويـدًا، راحـت الشـجرة تتحـوّل لكيـان ملائـم للصحبـة، أضحـى الكيـان أمامي امـرأة، صامتـة، لكنّهـا امـرأة.

إنّي أشتهي الصحبةَ، وذلك الرعبُ مِن العدم بدّد أعصابي، كانت الفرحة التي انتشى بها كياني بعد أن أتممتُ صنع العروس فاستقامت قبالتَي بهيئتها التي تبعث على الأمل الواهن، هي الفرحة التي رحت أخاطبها بها، بعد أن غرستها في الأرض أكثر فأكثر، ربما أخشى أن تقتلعها ريحٌ ماكرة، فبدت أمام عينيّ كيانًا له ملامح، هذا الكيان الذي أتسامر معه الآن، وأتحاور، الكيان الذي أشكو له حالي، مجرّد كيان لا روح فيه ولا لسان، إنّما كان كافيًا ليبدّد شيئًا مِن وحدتي، كافيًا بالفعل لقضاء الزمن معه. كنت أتطلّع بعينَيّ حولي، والظلام بدا يتسلّل في مكر، يحاوط قممَ العدم ليزيد مِن رعبي المتمكّن، قلت للعروس:

- أنتِ خائفة منّي؟

فلم تجبني.

- خائفة من العدم؟

كانت تراقبني بعينيْن مصمتتين، وتمكّنت من رصد حالة الخوف التي خلقتها داخلها.

أنت تخافين الغيبَ مثلي إذًا؟

مع الأيّام الجزافية، أدركتُ أنّي دلفت لمساحة مِن الخَبَل أيضًا، إنّما وفي كلّ الأحوال- كان السمَر مرجوًّا بعد أن فارقني ثعباني لعالم "مسعود" هناك يا شيخي، وبقيتُ وحيدًا ثانية، حتى الأمواج التي طارحتُها غرامي جدلًا، لم تعُد تأتيني، فقدْ سكن البحر، وغفت أمواجه، إلى حينٍ غير مقدّر

في عدمي، لا شيء هنا غيري، تخيّل يا شيخي أنّ ثمّةَ عالمًا لا يسكنه سواك، فأيّ حسرة!

لكنّي فوجئتُ - في يوم بشلالٌ يهبط نحوي مِن علية الأفق، كان شلالًا لونه أحمر، كلون الدّم المفتقد، أغرقني كلّي، وأغرَقَ العروس، وبدا لي يا شيخي أنّ رسّامًا قَد شَرع في تكملة لوحة العدم، التي تحتويني بداخلها".

جابر

(2)

في تلك الأثناء، عندما كان قلبي متأجّجًا لحظوته بـ"خديجة"، اقتحمتُ الصحراءَ كما لم يقتحمها "جوّال" قَبْلًا، باتت موطني الذي لا بُدّ وأن أعودَ له في كلّ مرّةٍ بعد مرّة، و"خديجة" هجعةُ النفسِ عند الراحة، أضرب في الصحراء، وأضرب في عوالمِ العشق مع زوجتي، راجت تجارتي، وراج قلبي أكثرَ فأكثر بدفء "خديجة"، أدركتُ معنى أن يملك فؤادَك شخصٌ آخر، ليس فيه مِن لحمِك ودمك، إنّما فيه رائحةٌ مِن جنّة الخُلد، كنتُ أشتَمُّ هذه الرائحةَ كلّما أغمضتُ عينَيّ ونزلت على "خديجة" بقُبلةٍ ولِهَة، كانت الأرضُ مِن حولي تستدير نحوَنا، وتراقب انفعالَنا وتلاحُمَ جسديْنا، كأنّها تتلصّص على عشقٍ لم يكن مِن ذي قَبل، لا عليها ولا على أرض الله كلّها في كونه، كان كلّ شيءٍ متحرّكٌ يَكُفُّ عن الحركة، كان العالم لا يدور، والزمن لا يسير، وكنتُ في منتصف طيراني بين الأرض والسماء البعيدة أرى جَدّي "مسعود" يطالِعُني، كأنّه لم يَعرف الشيبَ قط، بل كأنّه بذرةُ نورٍ متفرّدةٌ زَرَعها اللهُ في أفقٍ لم يبلغه بَشر، كان جَدّي "مسعود" في قلبي، له صورة تعاقبت عليها السنون وتجرّدت مِن طبائعِ الخليقة، فأمسيتُ لا أراه إلّا مَلاكًا له جناحان، صورة تطوّرت ونضجت شيئًا فشيئًا، ونزحت عن عقلي كافّة الأفكار التي حَمَلها قبلُ حين بعيد، كان أبي يقول إنّه جنسٌ لم تعرفه الأرض، كوّنَه الله مِن طينٍ ومِن نور، فبات أقربَ للملائكة عن البشر، وكان إذا مَدّ يدَه نحو الأمام

يتحوّل السراب إلى ماء عذب، ويتحوّل الغيم إلى شجر وارف، وكان إذا دخل على زوجة، جَدّدَ عذريتَها بهبة خصّه الله بها، جدّدَ عذريتَها في كلّ لقاء، وكان إذا مسّ الرملَ بإصبعه أضحى ذهَبًا، وقال لي أبي: "كنتُ الوحيدَ الذي يجالس الملائكةَ حين يهبطون ويأكلون مِن طعام جَدّك "مسعود" المُبارك، الوحيد الذين رآهم يبتغون بَرَكتَه، وكنتُ أراه يتلو على رؤوسهم، ويمازحونه كما أمازحك تمامًا، بل أسمعهم يشكون إليه، يهمسون بالشكوى سِرًّا، ربما الملائكة تعرف أنّ الحُجُبَ التي احتَجَزت البَشر عن السماء فضّها جَدّك "مسعود" بمنحة لم تكن لواحد مِن بني "آدم" قَبْلًا"

والصحراءُ تحمِل أنفاسَ جَدّي "مسعود"، كشفتْ لي مواطنَ لم تكشفها لواحد من "الجوّالة"، وعرفتُ مِن الأسرار ما لم يعرفه قَبْلي "جوّالٌ" آخر، هكذا كنتُ والصحراء نرتجل مِن أوزار هذي الدنيا ونتناجى كأصفى ما تكون المناجاة، أمنحُها روحي زفرةً زفرة، وتَمنحُني رملَها ذرةً بعد ذرة، تمنحني إيّاه صلابة للقلب، وصونًا للنفس، وبؤرة أُبصِر بها مكامن الغيب، وعندما أوشكتْ "خديجة" على الولادة، أيقنتُ أنّ خِلفتَها ذَكَر، فأسميتُه "عثمان"، أيقنتُ لمّا تمثّل لي سيّدي "عثمان" رضي الله عنه في قلب الصحراء ناجيًا مِن نحرٍ بقلب ثلم، كان يهرول نحوي، تدور حول جسده الرمال، ويدور حوله دَمٌ يطوف في الهواء، أخذ يشير لي فتقدّمتُ عليه، حملته بين يدَيّ، وابتسَم وهو يضع روحَه داخل كفّي ويقطّرها رحيقًا مِن الماضي، وقال لي:

- انظرْ يا حفيدي، إنّ الجنّةَ هناك، لا يبلغها إلّا حاملُ

نـور، وأنـت حامـل نـور، كُـن عـلى عهـد سـلفِك تَنـجُ.

انداحـتْ أنفاسُـه بـين يـدَيّ، ودِدتُ لـو أخـبّرني عـن أصـل هتكـه، لكنّـه فـرّ مِـن بـين يـديّ مثـل هـواءٍ منفـوخ، وتبـدّد في المـدى القريـب ندفًـا وامضـةً، وبَقـي دَمُـه عـلى راحـتي، واسـمُه عـلى لسـاني، وأسـميتُ ولـدي "عثمـانَ".

وكان "عثمـان" يكـبُر أمـام عيـنَيّ، فيـه دهـاءُ الحيّـاتِ الـتي تـلازِم قريتنـا، وحيلتُهـا، وفيه طهـارة الأجـداد، وكان ابنًـا وحيدًا، أخفقـتْ "خديجـة" أن تنجـب غـيرَه، ورضيـتُ بقـدري، وكانـت الصحـراء موطنًـا المسـتقرّ فيـه غايـتي، لـولا ابـني وزوجـتي.

الحيـاة تَجـري إذًا، ربمـا لـلا مسـتقر، لكنّهـا تجـري، ولـو أنّ أحداثًـا مِـن بـين حـين وآخـر- تـأتي فتكدّرهـا.

أحد هذه الأحداث، أنْ عاد السلطان ثانية.

طلحة

(3)

الليـلُ يُقبِـل في تريّـث، ويجثـم الظـلام عـلى تشـكيلات الجبـل، فتبـدو نتوءاتـه متحـرّكاتٍ طيفيـة. أسـفل الجبـل، في ذلـك الـوادي الممتـدّ حـتى عمـار القُـرى البعيـدة، تدنـو المشـاعل، تدنـو في غمـار الليـل، وتتّخـذ مِـن الظـلام سـاترًا، أو عنـصرًا للمفاجـأة، تدنـو هَرولـة، وتدنـو معهـا العيـون اللامعـة الغاضبـة، الـتي أدركـتْ أنّ الخطيئـةَ تسـكن هنـا، أعـلى هـذا الجبـل، في غرفـة مـع رجـلٍ، يدّعـى الزُهـد، رغـم أنّـه مِـن نسـلٍ معظمـه عطِـب بالخـرف.

في الغرفـة، الوليـدُ لا يـصرخ - كعـادة كل المولوديـن حديثًـا- ولا يفعـل إلّا أنّـه ينظـر حولـه متفقـدًا المعالـم، حـول رأسـه دائـرةُ مِـن نـور، وفي عينيـه بريـق النبـوّة، وأُمّـه تحـدّق فيـه ليسـت تصـدّق أنّـه قُـدّ مِـن رَحِمهـا، أمّـا "طلحـة" فقـال:

- هـذه حكمـة اللـه، أن يتكـرّر زمـن المعجـزة مِـن آنٍ لآن، مـاذا سنسـمّيه؟

قالت:

- إنّ حديثَك لا أفهمه، في الحقيقة يا مولانا لا يَعنيني..

وقبّلتْ رضيعَها:

- سمِّه كيفما شئتَ.

نظـرَ "طلحـة" بعيـدًا، كان الأفـق يتوهّـج بالبُـشرى، والسـماء

تخاطبه عن كَثَب، شَعَر بكلامها، وشعَر أنّ الحكمة البعيدةَ باتت تحت عينيه، تنهّدَ، استدار نحوَها وقال:

أسميتُه "نور الله"، أنتِ أُمّ "نور الله" الآن.

انتشتْ، وراحت تداعِبه، ويداعِبها، بعد قليل، استبان "طلحة" ذلك التيار المشتعل القادم من عُمق الوادي، الطالع لأعلى، فأدرك الخطر، ورتّب كيف يكون اللقاء؟ إنّه يترقّب هذا اللقاءَ مِنذ أن جاءت الساعية بسرّها، يترقبّه لأنّه يدري حتميتَه، ينتظر أن يأتي اليوم الذي يقضي الله فيه أمرًا كان مفعولًا، نَفَضَ عن نفسه الرعدةَ الطفيفة، واستقام ناهضًا، فَتحَ بابَه، هو أتّم ما يكون - هذه اللحظة- لهذا اللقاء، الوقتُ يمضي، والنيران تصعد كجمراتٍ متزاحمة، الوقت يمضي، والفَجر يبسط ذراعيه، رفع وجهه شطر السماء، وبدا يتلو، أو بدا يستدعي جيشًا من الملائكة، لكنّ جيشًا آخرَ كان متأهّبًا، جيشًا مِن ذئاب خانعة رهن إشارةٍ مِن يده، أقبلت تحوّم حولَه، وتنتظر معه، ومِن عينيها يطق شرر المعركة، تُدرك الذئابُ أن أوان الاحتياج إليها قَد هلّ، فتراصّت حول بيته، تجمّعت من كلّ أنحاء الوادي السحيق في عتمة الليل، وهي تشعر بالخطر الواقع عليه، كأنّه زعيمُها، وتجِب حمايته، انتظرت حوله، والمشاعل تقترب أكثر، والضجّة تعلو، والرؤوس تبدر مع طلوع الفجر، والملامح تستبين في طلّة ضوء الصباح، قليل، أُطفئت المشاعل، وظهر مع استدارة مطلع الجبل جمْعٌ من الرجال، كلّهم يحملون نظراتِ العداء، فلمّا شاهدوا الذئابَ المتحفّزة، هدأت نظرات العداء، وقال أحدُهم:

أخرِجْ عاهرةَ قريتِنا التي دنّسَتنا.

ردّ:

- لم تدنّسكم غيرُ عقولِكم.

عضّ أحدُهم على شفتيه، لكنّ الذئابَ صنعت الحاجز، فتراجع بعد أن توثّب، واختفى وسط الجمع. قفز واحدٌ يهلّل:

- أَخرِجْهَا وإلّا أَخرَجنَاها عِنوة.

خرجتْ وعلى كتفِها "نور الله"، فشهقت، إنّما "طلحة" حدَّجَها فصمتتْ ولاذت بركنٍ جوارَه، وأخذت تتطلّع إلى رجال قريتها وجسدُها يرتعش، أمّا الرجال، فلمّا شاهدوها امتُقعت وجوهُهم، وقال أحدهم:

- ابنُ مَن هذا يا عاهرة؟

لم تُجِبه، إنّها تعرف أنّهم لن يُدركوا شيئًا، وأنّ سرّها سرّ ربّاني، وليس كلّ ما يكشفه الله معلوما لدى البشر بالضرورة، ثمّةَ معانٍ تستعصي على البشر في عمومهم، لذلك لجأت لـ"طلحة"، وإلّا لبات أمرُها كأمر الزانيات بالنسبة لهؤلاء.

الصبحُ يشمل وجوهَ الغضب، وسّن الجبل يستريح فوق رأس "طلحة"، اقترب "طلحة" مِن الرجال، ورافقته الذئاب، فتقهقر الرجال قليلًا، إنّما "طلحة" طمأَنَهم بنظرته، فمكثوا يحملقون فيه، بوجل، وانعدامِ اتّزان، نادَى عليها، فاقتربت في خشية، لكنّه حمَلَ منها الرضيع، وكشفَ لهم عن وجهه، فراعهم هالة النور التي تحيط برأسه، وهذا الضياء الذي

يشع مِن عينيه، وحدّقوا في تناسق براءته، مع ملامحه، وهمس واحد.

- ليس السحر ببعيدٍ عن ساحر.

ردّ "طلحة" وهو يشير إلى صدره في مرارة:

ذلك لو أنّ الساحرَ الذي تقصدون بيدِه أن يخلق البشر.

فسكتوا، وأخذوا يُمعِنون في ملامح الرضيع، بدا ملاكًا لم يُكشف لبشر قبْلًا، بدا طاقةً مِن سلام، ودفقةً مِن ضياء، تنهّد "طلحة"، وضع راحته فوق جبهة الرضيع، وسأله:

- ابنُ مَن أنت يا "نور الله"؟

نظر بعضهم لبعض متهكّمًا، قال واحدٌ وهو يشير إلى سنّ الجبل:

- عجبي، لو أنّ هذا الجبلَ سينطق لنطق الطفل! إنّها مهزلة.

لكنّ "نور الله" نَطَق، قال في صوت مخملي كما لو أنّه ينبع مِن لُب بكارة خام:

لستُ إلّا معجزةً أرادها رّبي.

ارتدّوا للخلف في ذُعر، لبثوا يحملقون في "نور الله" بدهشةٍ وعجب، أدركوا أنّ السّر كشفه لسانٌ رضيع، حاولوا أن يستدركوا دهشتَهم، فلم يستطيعوا، حاولوا أن يعقّبوا، فخانَهم اتّزانهم، مَضوْا يجوسون أعين بعضهم البعض كمَا البُلَهاء، واحتُبست أنفاسُهم، تسمّروا كلّهم، واستفاض مِن

داخل مآقيهم العجز وقلّة الحيلة، فكّروا أنّ اللهَ قادر، وأنّ الذي يُحيي ويميت قادرٌ على منح الأسطورة ميزةَ التحقّق، تقدّمَ نحوَهم "طلحة"، صاح بصوت عالٍ رافعًا كفّه في وجوههم:

"نور الله" ابنكم جميعًا، "نور الله" سيطوي الأزمنة، سيعبُر الأجيال، وستكون نهايةُ الجدلِ على يده في يومٍ معلوم.

لم يفهموا، إنّما أيقنوا أنّ الرضيعَ شأنه شأن الملائكة، سِرّه عند خالقه، فإمّا أسلموا للسرّ، وإمّا أهلكَهم التأويل.

عثمان

(4)

- قبْلَ السيلِ بأيّام، حملتُ كفنَ أبي فوق كتفي، وكنتُ والرجال ندور على بيوت القُرى، كيما يستدل المثور له على بغيته، ويعرف الكفن صاحب الدّم، قضينا ليلةً أولى بلا جدوى، وكنت أعرف أنّ قاتل أبي قريب، كنت أعرف أنّي سوف أثأر ولن أهدأ، لم يكن ثمّةَ عزاء، كانت النار في قلبي وفي قلوب "الجوّالة"، وفي قلب أمّي، التي حلّت شَعرها ومرّغتْ رأسَها في التراب وقالت:

دَمُ أبيك في رقبتك يا "عثمان"، "جابر" لن يرتاح حتى يأخذ ولدُه ثأرَه.

وكنتُ أراها جالسةً في غير حيلة، شاخصةً ببصرها صوبَ أفقٍ بعيد، تستدرك مِن الماضي ما جعلها تبتسم دون أن تراني، على يدِ أبي خرجت مِن ثنايا الغيب سليمة، وخرج السلطانُ مِن جسدها واحترق.

وكنت أنظر إلى أبي، أنظر إلى كفنه الراقد أمامي، أعِدُه بأنّي واجدٌ قاتلَه لا ريب، وأطِلّ إلى السماء حتّى حلول الصباح، كلّما جاء الصباح على عيني جاء باهتًا، إنّما صباح اليوم الذي عرفتُ فيه قاتلَ أبي كان وسيمًا. طرق بابَ عيني واستأذنني في الدخول، دخل بيتَنا العامر بالحزن، ومسَحَ رأسَ أمّي، ما بدا مِن هذا الصباح بدا مبهَمًا، وهو يعبُر عتبةَ روحي، وينبئني أنّه ما جاء إلّا ليُنهِيَ عبثَ عقلي، وأنّ هذا اليوم سأستدلّ على قاتل أبي، فقط عليّ أن أنظر للداخل،

لا للخارج.

وثبت الفِكرةُ إلى عقلي، لماذا لا أدور بنعش أبي على بيوت "الجوّالة"؟

أخذتُ أنظر مَليًّا إلى نعش أبي، ساعةَ جئتَ أيّها الصباح لم أتكهّن أنّك سوف تعثر معي على مَن ضرب فأسًا في رقبة أبي، أنظرُ مَليًّا، وتسح دموعي، وأسمع صوت أبي مِن داخل نعشه: "أشكرك نعشي، كونك كنتَ مشفِقًا على جسدي المُتخن بالدهشة، ورأسي الممهورة بالألغاز، وأنت تمضي بي فوق الأيادي تحملك دعواتُ الأحبّة، الذين يعرفونني، والذين لا يهمهم في نهاية المقام إلّا أن يعرفوا عنّي الرحيل"

نهضتُ، رمقتُ نعشَ أبي أكثر، بدا يتحرّك، ويخاطبني، الرجال في الخارج ينتظرون الطواف، دأب الثأر، وأنا أَلِج إلى هذه الحالة من الانفصام، النعش يخاطبني، وأبي في داخله، لا يخشى رهبة الظلام، إنّما يخشى لغط الأصوات بالخارج، الأصوات الهادرة، أصوات البشر، وأصوات الخيولِ القريبة، الإسطبل قريب، وحمحمة الخيول تدفعني للإصغاء أكثر، ما أغربَها الخيول هذا المساء! تُحمحِم قريبًا مني، حمحمةً حزينة. لم أكن أنام، إلّا على أصواتها التي تؤانِسُني، الليلة، أصوات الخيول تأتيني كأنّها مِن حلم بعيد، نِمت على مجيئه وعِشتُه كثيرًا مِن قبل في خيالي، لعلّني أيضًا عشتُه بشيء من الغموض في واقعي، وشيءٍ مِن القسوة، أصواتها حلم، وأصواتهم حلم، الأصوات هذه كلّها، عندما تتداخل في بعضها البعض، عندما تلتقي كلّها داخل فجوتَي

أُذُنيّ، الأصوات القادمة، حين تشوشِر على صوت الخيول المحبب، ولا تعود لي قدرةٌ على تمييزها، فأُصَاب بالإحباط، وأدركُ، أنّ حمحمةَ الخيول، القريبة الواضحة، تبتعد الآن، وتروح، شيئًا فشيئًا تروح، أدرك أنّ حتمًا، أروح كما هي تمامًا تروح، وأنّ أبي يدعوني للإصغاء، حَسَنًا يا أبي، أخبِرْني.

"نعشي، أنا ممدّد في عمقك المجهول، أبتسِمُ للقدر، وفي رقبتي طعنة غادرة، جدرانك المعتمة تربّت على جسدي، وابني ينتظر لقاءَ قاتلي".

لا يا أبي، سأجده، سأجد قاتلك ولو بعد حين.

"الآن أنا أطل من السماء، وأنت يا نعشي تستريح على ذات المقام، مالك يا "عثمان"؟ أجدك رافعًا رأسك لأعلى بذات الوداع، واجمًا، حزينًا، لا أدري لماذا؟ كنت تلوّح لي بيدك، وتهزّ رأسك، كأنّما تقول:

- قريبًا نلتقي".

خرجتُ إلى الرجال، حاملًا نعشَ أبي فوق كتفي، وفي رأسي غليان، لم أستوعب كلامَ الرجال، لكنّي عزمتُ على لفّ بيوت "الجوّالة"، لم يثنِني أحد عن عزمي، كنّا نندفع ويندفع معنا كفن أبي مُبارِكًا، والليل يوغِل في سواده، لمجيء الفَجر، نلف بيوت "الجوّالة"، وبعض الرجال يوقن في خبلي، إنّما أنا ماثل لأمر أبي، قضيتُ اليومَ في انفصام إلى أن أدركتُ مبتغاه، أبي يعرف قاتله يا سادة، وسوف يدلّنا عليه بنفسه.

وأمام بيتٍ ممتدّ على مساحة هائلة مِن شجر، توقّف

كفـن أبي، تسـمّر، كان حصـانٌ يحمحـم مـن الداخـل، وكانـت مشـاعل الرجـال تضـوّي كأنّهـا لا تصـدّق، خـرَجَ لنـا عمّـي وفي عينيـه ذّعـر.

إذًا، أنت يا "عبّود" قاتل أبي.

عبد النبي

(5)

في هـدأةِ الليـل يَخلـعُ "عبـد النـبي" دنيـاه، يفـرج عـن حبـل الصاريـة فينفلِـتُ الـشراع. بـه تنطلـق "الفلوكـة" وبهـا يأنَـس. "فلوكـة" "عبـد النـبي" مختَلسـة، صادَفَهـا في ليلـةِ غيـابٍ وحلّهـا فـتَرَك لهـا نفسَـه وجابـا النهـرَ معًـا، كانـت تعـرف طريقَهـا داخل النهـر، حـتى في عتمـة الليـل، كلّ مـا يفعـل أنّـه يُفلِـت عنهـا اللجـام، ويتركهـا، لترقـص في أحضـان الميـاه، وعـلى الرغـم مـن بُعـد الجزيـرة وانقطـاعِ الإنـس عنهـا، إلا أنّ جزيـرة "التفـاح" هـي غايتـه عندمـا يحـلّ المسـاء. جزيـرةٌ لـم يعرفهـا إلّا بدلالـة الأصـوات الـتي تمـور بداخلـه، يقـف عنـد مقدمـة "الفلوكـة"، ويختـبئ مِـن الـبرد داخـل عبـاءة صوفيـة سـوداءَ، مختَلسـة أيضًـا، ترتّقـه بظـلام الليـل. يستنشـق الهـواءَ البـارد الـذي ترفـرف معـه أذيـالُ العبـاءة بانسـجام، ويفـرد أعصابَـه فتـذوب في صمـت النهـر. كان يعـرف أنّ الليـل في هـذه المدينـة مجـرّد وجـهٍ آخـرَ مِـن وجـوه اليـوم، فالنهـار لـم يَـرَ فيـه شمسًـا أبـدًا، فقـط ضـوء يتسـلّل عـلى اسـتحياء مِـن بـؤرة سـماوية ليعـين الخلْـق عـلى مسـارب الحيـاة، ويعـرف أنّ الـسرّ وراء رحيـل عقلـه ينتظـره هنـاك في جزيـرة "التفـاح"، فالعقـل لا بـدّ اختفى هنـاك، عـلى الجزيـرة، وأنّ مـاء النهـر الـذي يحـوّط الجزيـرةَ بـه الـسّر، مؤكـد بـه، لهـذا فـإنّ "عبـد النـبي" كلّ ليلـة ينـام في أحضـان الجزيـرة، فيقـينٌ مـا بداخلـه - ممـزوج بالشـغف- يخـبِره أنّ الـسرّ سـيخرج لـه في أيّـة لحظـة، متزيّنًـا، متأهّبًـا للفـضّ، وأنّ الأصـوات في رأسـه فضّاحـةٌ أكيـد، طالمـا همـس لـه صـوت:

- "أنا إبليس، أهمِس في عمقك أيّها الكائن"

يـا لهـا مِـن نشـوة! "إبليـس" بجلالـة نشـأتِه يخاطبـه بـلا حِجـاب.

وكان صوتٌ مغاير يعرك في رأسه:

"وخَلَقَ كلّ شيءٍ فقدّرَه تقديرًا"

يستلذّ بالمساحة بين النقيضين، أحيانًا، يحلو له العبثُ مع عقله، إنّ العقلَ في حدّ ذاته طاقةٌ مِن مجون، تسدّ كلّ عجز، إنّه عاجز عن أشياءَ وأشياء، إنّما عقله ليس يعجز أبدًا.

كانت حصيرة مِن عشب تتوسّط الجزيرةَ هي مَضجعه، يفرد جسدَه عليها، ويرمي عينيه إلى السماء، فتأتيه موسيقى غريبة، ناعمةٌ، تنطلق، فيهدأ العالم، عالمه، ويصبح المشهد عذبًا، متجرّدًا، تنحدر من السماء، فيرخي جفنيه، ويروح معها.

تررررااااااا.....

تتمدّد ساقاه أكثر، تقفل عيناه نفسيهما على أعماقه، ويهتز ببطء وراحة مع الأنغام، ويقول لنفسه:

لماذا لم يكُن لك كتابٌ يا "إبليس"؟ مَن أولى بكتاب مقدّس.. أنت أم نبيّ لا يفرق عن البشر في شيء؟

أمّا الأشياء، كلّ الأشياء، مجرّد بقايا عالمٍ غائم، تتأرجح في الهواء معه، وتصير غفوتُه مفتاحَ الوصول إلى السّر، كَمْ يود لو يذوب! كَمْ يود إلّا يفيق مِن هذه الغيبوبة المسكِرة!

أنغام تثير الخبال، وعزوف بلا مبرر عن هذه الجزيرة، أيخشاها الناس فقط لأنّ العقولَ تختفي هنا؟ أيخشاه الناس الآن لأنّه ساكنها؟

ليلة وراء ليلة على الجزيرة، يجتاحه أكثرَ فأكثر الإحساسُ بدنو المعرفة، إحساس بقرب سبْرِ اللغز. تفاصيل الجزيرة تتواءم معه ليلة وراء ليلة أيضًا، وجوه الأشجار التي دائمًا تحمل ابتسامةً له، تِباب الرمل التي دائمًا تنبسط حين يستند عليها، ثمرات "التفاح" التي تتقشّر وتناوِله نفسَها، صفير كائنات النهر الخفية التي تؤانس وجودَه هنا. في غفوةٍ عارضة، جاءه "إبليس"، وحكى له حكاية لا يعرفها إنسي:

"يا حامِلَ كتابي، ليس أجدر منك بحمل رسالتي إلى البشر، لابدّ أن يُقدّس كتابي، سيتعلّم منه بنو "آدمَ" الكثير، كأنّك يا حامل رسالتي لا تعرف أنّ بعضكم مِن نطفةٍ لي! لا تفكّر كثيرًا، "آدم" نفسُه حين فكّر طُرد من الجنّة، وأنا حين بُحتُّ بالسّر طُردتُ مثله، كان يريد أن أنحني له، أنا الذي وقعتْ امرأتُه في عشقي أنحني له!؟ إنّها لأكذوبة حكاية الشجرة! أنا الشجرة، أنا الذي شَجَرَ جسدُ "حواء" في جسدِه، واشتعلت النار، ووجّتْ، إنّ "آدمَ" عاجز أمام سطوتي، وإنّها لعصيّة الفهم إلّا على الواعين أمثالي، نَعم وعيتُ، وعيت أنّي متفرّد، فاستبقتُ "آدمَ" ونِلتُ مَن خُلِقتْ خصّيصًا لأجل راحته، فطُردنا معًا، إنّ اللهَ طَرَدنا معًا ليستريح مِن كلينا، فاكتبْ كتابي، واحمِلْ رسالتي، وكُن نَبيي المُصطَفَى"

لأنّ "عبد النبي" يؤمن بالسرّ، ويثق مِن دون ريب في إحساسه، فقدْ واتاه ما طمح له. في إحدى الليالي، رأى

الطريـقَ ممتـدًّا، طريـق مِـن نـار باهـرة يصعـد إلى السـماء، شـهق، أنفاسـه ظلّـت مخطوفـة وهـو يسـير ببـطء وخشـوع داخـل الطريـق متّسـع الأعـين، وحـتى بلـغ آخِـره، كان يفـضي إلى قبـةٍ معلّقـة في كبـد السـماء ربّمـا بـدت لـه نجمـة، إذ يشـع مِـن وراء شـقوق بابهـا الموصـد ضيـاءٌ غـشي عينيـه. برفق دَفَـع الباب بيـده، ودلـف، كان طريـقٌ آخـر داخـل المـكان تصطـف عـلى جانبيـه آلاف الملائكـة الغافيـة في سُـباتٍ ربّمـا منـذ أمـد، كأنّهـا ميّتـة، وتتناثـر بداخلـه بقايـا أوراقٍ محترقـة، ويسـبَح في الهـواء رمـادٌ جعلـه يغلـق عينيـه مـراتٍ عديـدة، ثـم يَظهـر كائـن، مِـن بـين أجنحـة الملائكـة، تتكشّـف ملامحـه شـيئًا فشـيئًا فيتجمّـد "عبـد النـبي"، كان "إبليـس" لـم يكـن هنـاك داعٍ مِـن الاسـتغراق في الدهشـة، اقـترب "عبـد النـبي" مِـن "إبليـس"، لكـنَّ "إبليـسَ" يـزوم ويدفـع "عبـد النـبي" بيـده، بعـد أن يرمقـه بغضـب، في مشـهد ليـس منطقيًـا وانفعـالٍ غـير متوقـع، ويأخـذ يمـضي إلى آخـر الطريـق، وكأنّـه كائـن آخـر غـير ذلـك الـذي ربـض في خيالـه طيلـةَ الوقـتِ الفائـت، راح يـصرخ:

انتظر.

غـيرَ أنّ "إبليـسَ" لـم يكـن يسـتمع، كان يتوّجـه أشـبه بالمغيّـب إلى هنـاك، فهنـاك، في آخـر الطريـق، كان واقفًـا، تعتـلى رأسَـه شـمسُ النهـار، وتحيطـه بهالـة مـن نـور سـاطع، هـذا الـذي يشـبهه، هـل يشـبهه؟ كلاّ.. إنّـه هـو، "عبـد النـبي"، حامـل الكتـاب، هـو نفسـه، الـذي يرتفـع مـع الشـمس ببـطء عـن الأرض، ثـم يتضخّـم.. يتضخّـم.. ويحـرق كلّ شيء؛ حـتى نفسـه.

الجدّ مسعود

(6)

كنتُ مبتئِسًا، محبَطًا، وحزنٌ بليد يغلّف حشايا فؤادي، أرى - ببصيرة مُنحتْ لي بغير إرادة- نفسي واقفًا على حافّة ضياع، ربما حافّة عدمية، في النهاية أرى ولا أشارك رؤيتي أحدًا، ليس يؤتمَن على أسرار الكون غيري في هذه اللحظة. يأتي الرجال لي، يهمسون بذنوبهم، أضع راحتي فوق رؤوسهم، وأقرأ لهم ما لا يمكنهم كشفُه لي، فيرتعدون أمامي، ويُدركون أنّ وصلْي طاغٍ، وفي كلّ مساء، تصطحب الملائكةُ أنفسَها وتجيء كي تغفو جواري، أو على جدران بيتي، ملكتُ السّر كاملًا، وملكتُ الغيب، يا لها مِن أعجوبة كبرى! لو أنّ شيخي أدرك ما فسّر لي، ولو أنّ "طلحة" كان يعلم لربما ما أهلَكَ روحَه في عرض بحر طائش. صخبٌ في رأسي، صخبٌ لا يوازيه صخب. إلهي.. لم أجترئ عليك لكن أطمَعَني عفوُك الجميل، علمتُ بك أنّ المقدور كائن، ذلك الذي لا مَخرج منه إلّا لمن أردت، برحمتك أعتصِمُ، فأجترئ على نفسي، وأمدد كف الندم، وليس مِن ملجأ منك إلّا إليك، أقر عيني بك يا ربّي إذا قرتْ أعين أهل الدنيا بدنياهم، وبلّغني لذائذَ أنسك، وإنّي أعوذ برضاك عن سخطك.

أحمل الدلالاتِ في داخلي، فترهقني، أطوف بخيالي شطوطَ الغيب، أتفقّد "مسعود" الذي يتمثّل لي مع كلّ شمس وليدة، أراه جليًّا، أدركت أنّي إمّا محظوظ وإمّا مخبول، فـ"مسعود"

الـذي ظـلّ عالقًـا في العالـم البعيـد عـن عالـم البـشر يبـدو لا يخـتزل حنينًـا نحـو عالمنـا إلّا وأفـضى بـه، ظـلّ معلّقًـا عاجـزًا لا يُسـعفه إيّ إدراك، وحيـدًا رغـم مـرور السـنوات، وصاحـبي "طلحـة" تنبّـه لـشيء مِـن هـذا القبيـل، غـير أنّـه لـم يُسِرّ لي عن نهايـة الرحلـة، النـاس في القُـرَى المجـاورة باتـوا - مـع عهـدي- يؤمنـون بالمعجـزة، يؤمنـون بتفـرّد البـشر أحيانًـا بصفـات إلهية، قلـتُ لهـم يومًـا لمّـا رأيـت مِـن بـؤس معيشـتهم- حيـث نفَـدَ الطعـام والـشراب، ومـرّت الناحيـة بمجاعـة لـم تكـن قَبْـلًا:

اليوم سوف تتبدّل حياتكم.

أمسـك الرمـلَ في يـدي، وتلـوتُ عليـه، إنّهـا طاقـة لمـن يزيل لثـام الرهبـة عـن روحـه، كان الرمـل في يـدي يتهيّـأ شـيئًا فشـيئًا، ثـم يـذوب، ينصهـر في كفّـي، ويمـتزج بالـسّر، شـيئًا فشـيئًا بـدأ يستعيد خـواصَ قديمـة، وقَـد تحـوّل إلى ذهـب.

في ذلـك اليـوم، كشـفتُ عـن أحـد مزايـا الكـون، تَرجَـم الجميـع ذلـك بـأنّي صاحبـتُ اللـه، وبـات يجيئـني بـأسراره يومًـا وراء يـوم، شـهقوا عندمـا قدّمـتُ لهـم الذهـب بـين يـديّ، ثـم استفاقوا ووجوههـم مصفـرّة، كانـت الشـمس تظهـر مـن وراء الأفـق بنفـسِ لـونِ ذَهَـبِي، إنّمـا تظهـر عـلى اسـتحياء، نظـرتُ طويـلًا أغـوص في قلـب الشـمس الـتي لا يمكـن لعـين الغـوص فيهـا، كأنّي المتحـدّي، كأنّي أخبِرهـا أنّ بعـض أسرار الكـون في قلـبي، وبـين يـديّ، كان الذهـب يلمـع في يـدي، وكانـت الشـمس تلمـع فـوق زجـاج عينيّ.

وهكـذا وقـف الرجـال يعجـزون عـن الفهـم، يدركـون أنّي

متوحّد مع لغز الإلوهية في حدّ ذاته، وقَد نزعت عن وجه الزمن الأقنعة التي لا يجوز نزعها، إنّما في ذلك اليوم، مات ثعباني.

خمسُ سنواتٍ قضيتها صائمًا، منحتُ الناسَ الزاد والتقوى، لكنّي حرمت نفسي من زاد الدنيا، خمس سنوات لم أمسّ الطعامَ والشراب، كما لو أنّي أجازي نفسي بنفسي على ما اقترفت، إنّ الله لم يمنحني الهبةَ كي أهدرَها، بل منحني إيّاها كي أهذّب انحرافاتِ العقول.

خمسُ سنواتٍ يا "مسعود"، وأنت عاجز هناك، لا يهمّك زمن، ولا يتقدّم بك العمر مثلَنا، روحك فقط هي التي تشيخ رويدًا، وأنا في هذا العالم أكتب حكايتَنا كي يستبصر مَن في قلبه غمامة، لكنّ الذي اكتشفت، أنّ البشر - وعلى عمومهم في قلوبهم الغمام، إنّه مبذور فيهم منذ خليقتهم، لماذا طُردَ جَدّنا "آدم مِن الجنّة؟ إنّه السؤال الذي لم يجبني عليه عقلي، ولم تجبني عليه قدرتي، سبَحت بين العوالم لخمس سنوات، كنت أصعد إلى السماء، وأنحدِر لقاع الأرض، رأيت ضِعة النفس، وذروةَ تفانيها في التقرّب إلى الله، شهدتُ نقائضَ الأمور على علاّتها وبرّمتها، فلم أذهب إلى ما ذهب إليه بشر عادي، جاب عقلي الحدودَ جميعها، خلوتُ إلى مناطق تشبه السراب، لكنّها مستوطنة بالحكمة، مناطق لا تنكشف إلّا بالبصيرة، ثم بدأت أُدرك يا "مسعود" لماذا قَد يَطرد الله جَدّنا "آدم" مِن الجنّة!

إنّ "آدم يا "مسعود" كان حائرًا غاية الحيْرة، وإنّ الله لم

يخلقـه كي يتحـيّر، إنّمـا خلقـه كي يؤمِـن، و"آدم يـا "مسـعود" لـم يؤمِـن بالأمـر كلّـه، ذلـك إنْ كان قَـد آمـن ببعضـه.

عبّود

(7)

أصبح كلّ شيء بعيدًا عنّي، اللحظة ساكتة، والأصوات مِن حولي ليست واضحة، والمرارةُ الأليمة باتت تحيق بي، إنّ إحساس الضياع يجتاحني. مِن خصاص النافذة أخذت أتطلّع إلى قريّة "الجوّالة" الملفوفة في السكون، يا لها مِن قريةٌ اعتزلت الإجابات! آثرتْ إلّا تبالي، مِن فوق قممِ النخيل بدت ثمّةَ علاماتُ استفهام، مطلّة دونما حياء. قريةٌ يحدوها شجن رخيم؛ يتصاعد في مسائِها الراكد مِن بين أعوادِها الخضراء، المغموسة في نسيجِ لونٍ رمادي باهت، أعوادٌ تضرب حولها مِن كلّ النواحي، تبدو ساكتةً عن غير منطق، لا تكترث إلّا أن يسير يومُها في سلامٍ احترازي، لا تزدهر فيها نبتةٌ إلّا تحت ضوءِ القمرِ المواسي، كأنّما تنبت الأعواد لتشكو للقمرِ انطواءَها الجبري، يزورها الصباحُ لا يأبه أن يطعّم تفاصيلَها بشيءٍ مِن حياة، إنّها قرية "الجوّالة" البائسة، والفحيح اللعين يراود أذنَيّ.

قلت لها قبل كلّ شيء: -والخلفة! قالت: - عاملة حسابي يا حاج. تُرى ما الذي تورّطتُ فيه؟ هبّت عليّ زفرات الليل، خليط من برودة ومِن حسرة، مدّتْ لي زوجة أكبرِ أبنائي يدَها متضرّعة، واحتوت وجهي بين كفيّها، وقالت:

- غصب عنّي يا حاج.

جاست عيناي بقيّةَ الزوجات، كانتا تنظرانِ لي في قلّة حيلة، وبلا إرادة كان جسدي يرتعد، إنّها مصيبة، قلت لهنّ:

- أبنائي هُلِكوا في السفر! مِن أين لها بالولد؟ سينكشف سرّ بيتي في كلّ ناحية.

لم تَردّ إحداهنّ، ظللن يتفرّسن في ملامحي وعلى وجوههنّ الحيْرة، قالت أصغرهنّ:

- ينزل يا حاج.

أدركتُ أنّي سأخرج مِن مصيبة لمصيبة، مَن سينفذ إجهاضَ الولد الذي في بطنها؟ ماذا لو ماتتْ وقتَها؟ مَن سيتساءل؟ مَن سينتبه؟ كنت أنظر لهنّ وفي نفسي غرض، انتويت أن أشجب الأمرَ برمّته مِن ثنايا تفكيري، قلت لها:

- لا بأس، ادخلي غرفتَك وسأجتمع بكِ بعد قليل.

الأولاد نائمون، الاثنتانِ فهِمتا أنّ أكبرهن في طيّ النسيان، وليس لهما أن تتحدّثا في الأمر، فقط سوف تساعداني أن يكتمل ما انتويت دون أن يمسّ ستر بيتي، اتّفقنا أن تتوّلى واحدةٌ تكبيلَها، والأخرى سوف تضع منديلًا على فمها فيه السّم وينتهي الأمر، وأنا عليّ عبء التخلّص مِن الجثّة. أزحنا باب الغرفة ودلفنا، كانت هي قابعة فوق الفِراش ودموعها تُغرق صدرَها، بدت استشفّت نيّتي، فارتعشتْ شفتاها وهي تغمغم:

- سأتخلّص منه يا حاج.

قلت:

- لم يكن ذلك اتّفاقَنا.

اقتربتا منها، بان الذُعر على وجهها، وقفتُ بعيدًا على طرف الفِراش أراقب، وعيناي متّسعتان، رقدتا فوقها وبدأتا تنفذّان الأمر، واحدة كبّلتها، والأخرى نزلت على فمها بالمنديل المسمّم، أخذت هي تحاول التملّص، بلا جدوى، وتصرخ، خشيتُ أن يستيقظ النائمون، فبذلتُ جهدي في كتم أنفاسها، ثم فجأة دفعتنا جميعًا بساقها وأفلتت منّا وسط ذهولنا، وخرجتْ نحو فناء البيت تصيح.

تتّبعتُها، هرولتُ وراءها، استدارت نحوي وهي تنهج:

أهون عليك يا حاج.. غلطة ولن تحدث مرّة أخرى.

لكنّي استعنتُ بالبَلْطة، تناولتها مِن على جذع شجرة. أمسكتها من رأسها وأنا أشدّ شَعرها قابضًا عليه، هذا الأوان مِن الليل لا يوجد نفر في القرية مستيقظًا، عزمت أنّي سأتمّر الأمرَ بيدي، جررتها بكلّ عزمي، وخرجت بها من باب البيت أجرجرها خلفي.

بانت على مرمى البصر الجبّانة، أخيرًا، تلفها وحشة مُقبضة تنفذ داخل البدن رعشة لا تحكّم فيها، فجأة صار الهواء بطيئًا ثقيلًا لا يُسعِف رئة، وأحاطت بي تصوّراتٌ قد تدفعني للتراجع، لولا العزم القهري، وكانت أصوات بعض الحشرات تصاحبني بطول المسير. لكزتها في بطنها، التي تُطبق عليها يدي، كي أنبّهها أنّ صوت أنّاتِها بدأ يعلو، وأنا أتأمّل ستار السواد الذي يغطّي وجه السماء في جزعٍ حقيقي. ما الذي أفضى بي إلى هذا المآل؟ ما الذي أغفلتُه أثناء تهوّري؟ كنت أسوقها كجذع نخلة مربوط في ساعدي،

وكانت تستميت أن تفلت، تتضرّع، تستعطف ما تبقّى من إحساس بداخلي، أوليتُ لها نظرة نارية، لعلّها تفهم أنّ الأمر قد انقضى. بتؤدةٍ كنت أتقدّم، لامحًا الشواهدَ تدنو مستفسرة، أعواد البوص الملتفّة حول حوش الدفن انكتمت أنفاسها، أعواد ناهزت الهرم منذ أمد بعيد، وتعلّقت بهذه الأرض تأبى الفناء، تستدير مع استدارة الحوش، ولا تصدر خروَشة حتّى، كأنّها تدرك الوجعَ الأليم الذي ساقني للحوش في مثل هذا التوقيت، وتحاول معي لمّ السرّ بين أحضان الليل، وأن تطويه قدْرَ جهدها، فلاذت بصمت قسري، رغم الريح الشامتة التي لم تتوقّف هنيهة عن العبث بالجلاّبية، أو العمامة، أو بالتفاصيل المجاورة، القريبة والبعيدة، لكنّي كنت أخطو نحو الحوش كالمساق نحو قدَرٍ مفجِعٍ معلوم، وفي يدي البلْطة، هي كلّ ما تحصّلت عليه لإتمام الأمر، بلْطة كانت - كذنب لا يكفّ عن الإلحاح- تتأرجّح بين أصابعي، وتنخفض برأسها صوبَ وجهِ الأرض في استجداء وإذلال، بل وتحتّك بسنّها مع الأرض فتصنع ذلك الخطّ السائر مع سير قدمَيّ، والذي قَد يمحوه ذيل جلبابي مع تقدّمي نحو الحوش أكثر. كانت هي تئِن تحت يدي فأوليها لكمة لتصمت ثانية، وأحدّجها بعيني في غلّ، وأقول في داخلي: أنتِ مَن ساقت نفسَها لهذه التهلكة! أجرّها خلْفي وهي تعلم أنّها أوشكت على مفارقة الحياة، لم يُثِر فيّ استجداؤها لي بالغفران، وتحايلها بالعاطفة، إلّا النادرَ مِن المشاعر.

الليل لا يبشّر براحة، وجهي جامد، وقلبي صامد، ونفسي

تـنزع نحـو الانفجـار بشـكل هسـتيري، لـم أكـن أتخيّـل أنّي سـأنتهي لمثـل هـذا!

لـم يكـن في الجـوار نَأَمَـة، حدفتهـا نحـو أحـد القبـور المحفـورة سـلفًا- فارتمـت عـلى حافّتـه يصطخـب وجههـا فزعًـا، انكمشـتْ، وكانـت ترتعـد، وقَـد بـدا الهـواء بـاردًا رطبًـا، انتهـزت الرعشـة الـتي اسـتبانتها عـلى جبيـني ومـدّت أناملَهـا تقبـض عـلى يـدي، هابطـة تقبّلهـا متضرّعـة، للمـرّة الأخـيرة لا يمكنـك زعزعـة نيّـتي، لا تنظـري لي هكـذا، انظـري للجانـب الآخـر مِـن الحيـاة والـذي يفتـح ذراعيـه الآن مسـتعدًّا، سيشـعرك هـذا ببعـض الغرابـة، لكـن لا بـأس، الجانـب الآخـر لـه حـق علينـا كذلـك، وآن لقـاؤك معـه. رفعـتْ نحـوي رأسَـها، كأنّهـا تقـول الجانـب الآخـر مـا زال بعيـدًا، لكنّـني بادرتُهـا قائـلًا: هيـا اقفـزي داخـل الحفـرة. ورميتُهـا في عنـف، لكنّهـا كلبشـت في حافّـة القـبر المفتـوح، وصعـدت نحـوي، يـا لقسـوتي، ويـا لـبرود أعصـابي، يـا تعيسـة إنّ الجانـب الآخـر أقـربُ إليـك ممّـا تتصوّريـن، هيّـا اقفـزي، وإلّا لـو بُقينـا هكـذا نتبـادل كلمـات الأعـين لاتّسـع الجانـب الآخـر لكلينـا، هيّـا.. اقفـزي. في بـطء نهضـت، كأنّهـا لاذت أخـيرًا بالاستسـلام لقدرهـا، وتعـرّت مـن كلّ هـذا الخـوف وكلّ هـذا الارتجـاف اللذيْـن كانـا منـذ قليـل، دفنـتْ رأسـها في صـدري قائلـة: - سـوف أقفـز يـا حـاج، لا عجلـة في الأمـر، المـوت قـد ينتظـر، إنّمـا دعـني لضمّـة أخـيرةٍ منـك. يـا فاجـرة! تسـاومينني عـلى مشـاعري، تتاجريـن بمـا تبقّـى مِـن ضمـير بداخـلي، كيـف جئـتِ بـكلّ ذلـك الـذكاء؟ كيـف بـدوتِ صادقـةً مثـلَ هـذا الصـدق الـذي لا طاقـة لي لصـدّه؟ تعـالَي إذًا،

تعالَي رغم أنّي لن أتردّد فيما انتويته، تعالَي وسوف أتركِكِ في صدري دهرًا، لا تُبقيني على حواف اليأس مشرّدًا، وسامحيني قبل حتّى أن أرتكب جُرمي المجبور عليه. أبدًا لستِ إنسانة أنتِ، كيف تَقرئين مشاعري؟ أنت ملبوسة، حتمًا ملبوسة، ابتعدي عن صدري، ابتعدي، لا مكان للشياطين فيه، أنا أخاف الشياطين. ودفعتها عنّي، وبقوّةِ مغيّبٍ هبطتُ على رأسها بالبلْطة، كانت نظراتها الأخيرة تنعكس على حدّ البلْطة فيلتمع، كأنّ القمر في تمامه، كأنّ النور انبلج مِن بين عينيها، قلتُ تلك لمعات مخادعة، لمعات الشيطان نفسه، لمعات السّر اللعين، ولم تعد الدموع في أماكنها، واكتسبت لون دمائها، وتخالطا، وامتلأ قبرُها بالدمّ والدمع معًا، وظللتُ ممسكًا بالبلْطة رافعًا إيّاها إلى أعلى كأنّي تخشّبت، وحين انفصلتْ رأسها عن جسدها لم تَعُد زوجةَ ابني، بدت كلعنةٍ سوف تعيش داخلي بإطلاق العمر، وكنت كلّما أهلتُ الترابَ فوقها جاءتني مِن عمق بعيد في الذاكرة أصواتُ أبنائي تلهو، أطبطِب عليهم، ويسافرون، فيضيعون، وتبقى كما هي تلك الحياة، هي هكذا إذًا؛ لمحة بَصر.

وفي المدى القريب، رأيتُه، كان يعاين جريمتي بعينيه، وكان واقفًا كأنّه لا يصدّق، لعلّه يتساءل ما الذي جرّني لمثل هذه المأساة؟

كان "جابر" واقفًا، الهلعُ في عينيه، والنارُ في عينيّ، هرعت نحوه، ولم يكن قَد استفاق مِن هول ما رأى، اندفعتُ إلى رقبته، والبلْطة في يدي، وطرتُ في الهواء، طرت كي أهبِط بالبلْطة فوق رقبته، وقَد كان.

جابر

(8)

الأشجارُ أشباح، والرعبُ عظة، وضوءُ الشمس الشحيح الذي يتخلّل جدائلَ الظلام المُحيط بالغابة الكثيفة الموجودة آخِر القرية- والتي يكمن فيها عمل السلطان- ينحسر كلّما دنوت أكثر، وتتراجع الشمس عن السماء أكثر، وتهبط خلف قامات الأشجار العالية، بدا لي الليل يزحف، في بطء وفي خمول، وفي بطء أتقدّم مِن الغابة، المنفردة بالاختباء، القابعة خلف الجبّانة، وضباب بلون الثلج يغلّل عينَيّ، قيل لي مِن أحد العارفين إنّ العمل الذي رُبطت به "خديجة" موجودٌ في هذه الغابة، ألقاه عاملُه وتَرَكه.

كنت أعبُر مَجرى مِن الماء، أدقّ بقدَميّ بطنَ المجرى وأطلع بقطرات ماءٍ ألماسية، لامعة، وأدور برأسي شمالًا ويمينًا، أسمع صوت زئير، زئير عظيم بدا يأتي مِن حنجرة سماوية، يرتعش حاجباي، وأدلف إلى الغابة ناظرًا للوراء، فتضمّني الغابة داخلها، يوخزني صقيع الجوار، يعتصر بدني، يدبّ في خلاياي واحدة واحدة، بينما أشعر بانتصار الرعب الكامن بداخل "خديجة" كمحرومةٍ مِن دفء الأمان، محرومة ولا ينتبه العابرون - كأطيافٍ مِن برزخ لبرزخ- إليها، كرقم يتراص حتمًا نحو مستقر أخير. أنظر لنفسي مَليًّا، وقَد أتفكّر: لم تكن الحياة سيئة إلى تلك الدرجة يا جَدّي "مسعود"، حياة واحد تكفي ألفَ واحد، هذه حقيقة، أيّهما أكثر تماسًّا والروح إذًا، إحساس الغربة، أَم إحساس العدم

ذاتـه؟ أشـعر أنّ عمـري أنـا في حـدّ ذاتـه كلّـه أمـسى مشـاريعَ مؤجّلـة، الأمـان مـشروع مؤجّـل، الـدفء مـشروع مؤجّـل، الحلـم نفسـه مـشروع مؤجّـل، حـتى المـوت، مجـرّد مـشروع آخـر مؤجّـل. لكـن أيّ عبـث! الزئـير يترقّبـني، كأنّ السـلطانَ يعلـم أنّي آتٍ لقتالـه. بـلى، سـأقاتلك، لقـدْ أنفقـت احتمـالي لـك، ولـم يعُـد بالإمـكان تـركك طليقًـا تعيـث في جسـد امـرأتي.

أفـرك كفّـيّ في بعضهمـا البعـض، وثعبـانٌ يرافقـني ليدلّـني، وكانـت عِشّـة مهجـورة تبـدو مِـن عمـق الظـلام، تبـدو مضيئـةً إضـاءة باهتـة، تبعـث عـلى الريبـة، يتقـدّم الثعبـان نحوَهـا، فأتبعـه، وأدخـل، ثـم أُحكـم غلْـق البـاب. لمبـة معلّقـة، والعنكبـوت في كلّ أطـراف العِشّـة، لمـاذا يرتجـف ضـوء اللمبـة؟ تخريـف هـذا! أليـس كذلـك؟ لمـاذا تـئزّ اللمبـة وتشـعل خـوفي أكـثر؟ أحقائـقُ هـذه أَم أنّي أهـذي؟ ثمّـةَ ظلالٌ تجـيء وتروح مِن دون انتظـام، بـدت أرواحًـا تسـكن ظـلام المـكان، ثمّـة غمغمـةٌ سـاخرة، حـيرى أحيانًـا، تعلـو وقتًـا، وتهمـس وقتًـا، تحاوطـني كلّمـا أمعنـت في التركـيز، ثمّـة توجّـس أدرك مـبرّره، ومفارقـات قدريـة أتذكّرهـا مـن بـاب التسريـة، هـي الـتي حرّضتـني عـلى أن أكـون "جابـر الجـوّال" صيّـادَ الأفاعـي.

وشـيش الأشـجار السـامقة في الخـارج يبـدو تمامًـا كجـدلٍ دائـر لكـن حروفَـه غـير مفـسّرة، تلـك الأشـجار الـتي تُخفـي عـنّي مخـاوفَ دغـلٍ فسـيح، مـترامٍ لنهايـة البقعـة الملعونـة الـتي يسـكنها جِـن الناحيـة، دغـل مـن المجهـول، ومـن التأويـل المتلاحـق. صفـير ريـح يدفعـني للتلفّـت حـولي، أنتبِـهُ قليـلًا، ثـم في سرعـة، وفي تحفّـز، ينهمـك ثعبـاني في العبـث بكيـس مـن

الأوراق مُلقَى أرضًا. أخذ العَرَق يغمر وجهي، رغم الأجواء المحيطة التي يحتضنها الصقيع، ورغم أنّ أنفاسي تَخرج في حلقات دُخانية شبه متجمّدة، أتعرّق. أتناول كيسَ الأوراق، أفتحه، بداخله ورقة صفراء متهالكة، ملفوفة بإحكام، أفضّها، أدقّق قراءة الحروف الباهتة الضئيلة، كانت الورقة شبه بائدة، مستعصيّةً القراءة، إنّما أنحني بعينَيّ أكثر، ثمّةَ تعويذة موجودة داخل الورقة. أعقِد حاجبَيّ وأهمهِم بالقرآن، خائفًا ربما، أو لأنّي أحاول بلوغ فكّ شفرة التعويذة المقروءة جيّدًا، لكنّها في النهاية غريبة على فهمي، واستيعابي. بدت بعيدةً محاولةُ استنباطِ أيّ مدخل لفكّ التعويذة، أزفرُ زفرة مرتعشة، وأقرّب عينَيّ نحو الصفحة أكثر، شفتاي ترتجفان، فأعضّ عليهما لعلّهما تتوقفان عن الارتجاف، كانت الحروف الغامضة الهيروغليفية تصطرع داخل ذهني، تومِض أحيانًا، وسرعان ما تخبو. أخذتُ أتنهّد وأتنفّس في بطء ريثما يتأهّب عقلي ثانية لمعركة أخرى مع تلك الحروف، لابد أن أجِد حلًا فعّالًا لوقاية "خديجة" مِن شرّ السلطان، ذلك الشرّ الذي لابدّ أن أمحوَه للأبد.

فتحتُ الصفحةَ مرّة أخرى، الظلام لم يدع لي فرصة التفكير، والبرد فتّت عظامي، الآن أو ستهلك "خديجة" لا محالة، لقد تركتُها في حال يرثى لها، وبدت في ضمور لعين، سيطر عليها الملعونُ مجدّدًا، عليّ أن أحلّل الحروفَ جيّدًا، هي التعويذة التي - إنْ فككتها- ستصرف الشرّ كلّه عن امرأتي.

(الإلهة "نوت" مثل هؤلاء الآلهة التسعة الذين.. الأوزير.. الكاتب "آني".. أن تصبح روحًا مبرورة.. في الجبل الذي

في "أشـمونين")

يـا للتعاسـة! ولا جملـة يمكنهـا أن تتّصـل بالأخـرى، ولا جملـة يمكنهـا أن تكـوّن معـنى مفهومًـا.

("المُلتهِب" هو اسم حارس الباب)

لا شيء أيضًـا، كلّ الـذي انكفـأتُ عـلى تعلّمـه لا يكفـي لفـكّ هـذه الرمـوز.

تـصرّ الريـح عـلى بعـث الخـوف الكامـن أكـثر، وفي الخـارج صـوت حفيـفِ الأشـجار يبـدو كأنّـه يدنـو، والغابـة مِـن خلـف الأشـجار تطلـق كافّـة المخـاوف المحتملـة، المُرهقـة مـع ذلـك، أتسـمّر، ثمّـة حاسّـةٌ تنبئـني، أزِفَ موعـد لقائـك أيّهـا السـلطان، مؤكّـد، شيءٌ مـا يقـترب، أشـعر بهـذا، الريـح تصفّـر آذِنـة، ثـم يعلـو الزئـير أكـثر فأكـثر، وتبـدأ ثعابـين تزحـف مِـن تحـت ثقـب البـاب، سـوداء شـديدة السـواد، تتلـوّى محـذّرةً إيّـاي، تتضخّـم في أنـاة، تقـترب منّـي في تـؤدة، يحـاول ثعبـاني أن يجابههـا، دون طائـل، والزئـير يقـترب، والريـح تعصـف في الخـارج محتـدّة، وأنا لا أملـك حـتّى أدنى درجـات الحيلـة، الزئـير يقـترب، والأشـجار تهمـس لبعضهـا البعـض في حفيـف لا يَخفَـى عـلى أذنيّ، أضرب بقدمـيّ خيـوطَ الثعابـين الزاحفـة، وأبـدأ في التـلاوة العبثيـة، شـفتاي تتحـرّكان بعشـوائية، والحـروف لا زالـت مسـتعصية، أتلـو مرتعـدًا، أتلـو في عَجَـل وبيقـين بـأنّ السـلطانَ قـادم، تهـتزّ الجـدران، ويهـتزّ العالـم بالخـارج، والتعويـذة غائبـة في مـتن صفحـة عقيمـة، لكـنّي أتلـو، مـا دمـتُ أستمسِـك بـالإصرار، رغم العبثيـة. لا بـأس يـا "خديجـة"، لا تقلقـي، الأقـدار لا تَصنـع

مثـل هـذا الكـمّ مِـن اليـأس، الأقـدار لا تَصنـع المصائـر، الخطايـا فقـط هـي الـتي تَصنع مِـن الأسـطورة واقعًـا مأساويًا. أتلـو وتـزداد وتـيرة تـلاوتي، والعالـم مِـن حـولي يتحـرّك، والزئير يتقمّـص هيئـةَ الواقـع أكـثر، ويَجـأر في الخـارج أكـثر، ويبـدو غاضبًـا أشـدّ مـا يكـون الغضـب، ثـم الدمـاء تنهمـر مِـن بطـن السـقف، كشـلاّلات انفتحـت عـليّ فجـأة، بـدا السـلطان يـزاول كلّ مـا مِـن شـأنه إعاقـتي، لكـن بـلا جـدوى، الثعابـين تقـبّ عـلى سـطح الدمـاء، فأرتفِـع مـع مـوج الدمـاء متمالـكًا بـأسي، لـم تعـد الثعابـين تَعنيـني، الصفحـة في يـدي أُغرقـت بالدمـاء، وتلاشـت الحـروف تحـت سـطوة اللـون الأحمـر، يجـتر لسـاني كافّـة المعـوذات، وأهمهـم:

- "إلهـي، أنـت المدعـو بـكلّ لسـان وفي كلّ آن، أخرجْـني مِـن ظلمـةٍ لنـور، إلهـي أنـت قلـتَ ادعـوني أسـتجبْ لكـم، وهـا أنـا متوجّـه إليـك فـلا تـردّني، لا مفـر إلّا إليـك وأنـت المُحيـط بالأكـوان وأسرارهـا، إلهـي بحـقّ جمالـك الـذي فَتَّـتَ بـه أكبـاَد المحبّـين وتحـيّرتْ في عظمتـه ألبـابُ العارفـين، بحـقّ حقيقتـك الـتي لا تُدركهـا الحقائـق، وبسـرّ سرّ سرّك الـذي لا تفـي حقيقتـه الرقائـق، بـروح القـدس، قُـدس سرائرنـا، وبـروح أبينـا آدمَ خلّصـني، لا تجعـلْ روحـي سـابحة في عالـم الجـبروت، نجّنـا نجـاة صمدانيـة ربّانيـة، وتولّنـا بالكفايـة والحمايـة، واحفظنـا، إلهـي..."

ولـم أُكملهـا، كان ينحـدر نحـوي السـلطان مِـن بـؤرةٍ في قلـب السـقف، فتحجّـرت الكلمـات عـلى شـفتَيّ، كائـن ضخـم، جسـدُه حَجـري، تتقاطـر مِـن ثقـوب جسـدِه الدمـاء، تمثـال يخطـو في

خَبَل وفي ثقة وتَعالٍ، لم يكن متوقَّعًا ولو في أساطير التاريخ كلّها، التفسّخات متداخلة في جسده الحجري، يطقطق جسده كلّما دنا مِنّي أكثر، وتبدو في عمق عينيه الحجريتين الناريتين نظرةُ الظفَر، يزأر السلطان في سخط، ويحطّ بثقله فوق الأرض فكأنّها بدت تهبط بجسدِه قليلًا ليحفر له فيها موضعًا، ويقف أمامي كأسطورة لا تعرف الهون.

- لماذا تبِعتني؟

قلت في عِناد:

- دع "خديجة" أيّها المجوسي.

زام، وقهقه، وبدا يَسخر مِن طلبي، فَرُحتُ أتلو: "وأخرجتِ الأرضُ أثقالَها" "لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياءَ مِن دون المؤمنين ومَن يفعل ذلك فليس مِن اللهِ في شيء". "وإلهُكم إلهٌ واحد لا إلهَ إلا هو الرحمن الرحيم

ثم رددتُ عليه:

- إنّي أدعوك إلى الإسلام.

فزام أكثر، وخرج له جناحان، أخذا يطقطقان وهُما يبرزانِ في بطء، ويحتويانِ فضاءَ العِشة، ثم مضى يطوف فوقي وفي عينيه نار، وكان يصيح:

- يوم تُولَد الأرض ثانية.. يومَ أخرج منها.

تكالبتُ عليه بالتلاوة، وكان يُسفسِط:

- أنا وحدي مَن نجا، أنا وحدي السائر فوق الأعجوبة

يَقِظًا.

وطاف فوقي، كأنّه ماجِن، أضرمَ النارَ في كلّ شيء، وانفتحت لي طاقةٌ مِن رؤية، باب مِن أبواب الغيب تَمثّلَ لي، مهيّئًا للدخول، فدخلتُ، لحكمةٍ لا أعرف عنها شيئًا، رأيت سائر الموجودات التي هُلكت عَرَضًا في رحلة الزمن، الجبال التي تحوّلتْ رمادًا، الرماد الذي حلّ بالأودية المترامية أمام الخيال، والأودية التي انشطرت عن حمم، حمم استكانت وباتت رمالًا تذروها رياح، تمامًا مثل السماء العالية التي حطّت فوق الأرض هامدة، كاستواءٍ قسري إثْرَ إنهاك الأرض التي حملتها طيلة الزمن على أكتافها، فقرّرتْ أن تستريح، وتُريح، فالسماء التي لم أرها غيرَ حائمة في الأعالي، ها هي مدحورة قبالةَ البصر كدلالة خرافية للطاقة، بدا قَدْ دَامَ التقلّب زمنًا جزافيًا -ربما ألف ليل- وإلى أن تبدّلت معاني الأشياء لمستقرٍ يبدو عبثيًا، هكذا لا بد أن أصِف الرؤية، إنْ جاز لي أن أصِف ما جرى بأنّه رؤية، وليس هولًا كبيرًا أو جدلًا كونيًا أكبر، فربما هو قَدَر أعظم مِن كلّ نهاية، وربما هو بدءٌ جديد لحلمٍ مكرّر، حُلم كان قبِلَ أن يكون البشر أنفسهم، أو خيال لا يُبقي على حدود، في النهاية أظنّ أن ليس للعدم وجودٌ في الأساس، فالعدم يعني نقطةً لا حياةَ فيها، إنّما كلّ خيالٍ له أصل في الزمن، سواءٌ أكان ماضيًا، أم مستقبَلًا، وأصله سوف يجيء في لحظة مسطورة، ليبدو الخيال في حدّ ذاته أضحوكةً لقومٍ في الغيب، يشيرون إليّ أو إلى السلطان أو إلى الأرض قائلين: تُرى هل جَرَى ذلك حقًّا؟

فيما وراء الباب الخرافي، رأيتُ تقلّب الجبال على بطونها لتستحيل باستواء مداد البصر، رأيت أحشاءَ الأرض تنبثق وتُكبُّ كعصارات ملتهبة، وتَثِب لتتلبّس المستحيلَ بعينه، رأيت الرمادَ يكسو ذهني مع ما كساه هو الهول خالصًا مخلّصًا ما رأيت. الموجودات تطير، ونهر يفيض حدّ الأفق، كأنّه لسان مزبد صاعد نحو السماء، وسماء تتذلّل درجة الانحدار تلامس الأرض، وأرواح تنحَر، وأرض تتقلّب عن حمم لا تُبقي في سيرها أثرًا، فأيّ هزل! الرماد يطير حولي، كأسرابٍ لا نهائية مِن طيور نافقة، رماد كلّ شيء، رماد كلّ مفردة احتمتْ بكنف الكون، وبدا يُنبت على مرمى الأفق كونٌ آخَر، له شكل لم أُولَد عليه، ولم أعايشه قبْلًا، تتدلّى السماء، تتدلّى، لتستوي أرضًا مثل أرضي، والسلطان يطير في الأعلى يُشعِل وجهَ الكون كلّه بنيرانه.

أحشاء الأرض تبزغ أمام بصري كألسنة مِن ألغاز، وأتربة تصاحب قدومَ فمِ السماء مقبّلًا خدّ الأرض المتشقّق، ونيران بكامل قوّتها وكامل أناقتها تبدو في لونٍ أخّاذ، يتخالط فيه الأرجواني بالأحمر القاني، وكأنّ النارَ اقتلعت حشاشَ الأرض وخرجتْ بالدمّ، وكائنات تفصّدت مِن نسيج النار وأخذت تتقافز مهلّلة، كما لو أنّها النهايات فرِحة بتمامها، كلّ ذلك؛ والمدّ قادم مِن ناحية الأفق، عصف حمل في جوفه صوت رعد وضوء برق وصرخاتُ خلْقٍ يتلظّون في جحيم، جيء به ليمحو كافة الأشكال الباقية، كيف احتميت! أو كيف حُميت! تساؤلات لن أطرحها على نفسي، هي مطروحة على قدرٍ شاء لي البقاء، فليس مِن

سقفٍ حماني، ثم أيّ سقف للحماية ذاك وسط قُوَى لا سبيلَ لمجابهتها! وليس مِن ملاذ غير خلاء تهشّم بما فيه، وبات عجينًا معجونًا بكلمة "كُن"، أنا رأيت فسقطتُ فغبتُ ثم صحوت لأجدني في هيئة أخرى، غير تلك التي تركتني عليها، خالصًا نقيًّا لبعث بطريقة عبقرية، وقَد رأيت أمثالي يطيرون في عبث، كندف مِن جمرٍ نتّجه نحو بؤرة عميقة السواد في قلب الأفق، يطيرون صغارًا صغارًا، بأحجام ضئيلة منتهى الضآلة، ينتهون نهاية غير مسبوقة، والجبال تتذلّل تضوّعًا وخنوعًا، لكن تذلّلها لا يَقيها بطشَ القدر، تذوي في لحظة لرماد حارق الرائحة، وقتذاك، فقط، ألحّ عليّ السؤال الذي ماتت إجابتُه في غور دهشتي: أنا؟

السلطان ينفث مِن منخاره أبخرة، أبخرة معناها خلاص حقبة وبدء غيرها، معناها هدوءٌ والتقاطُ أنفاسٍ ثم تأهّب لتشكيل قدريّ، يا لجنوني غير المأخوذ عليه! كيف يتحمّل جسدي فورانَ الأرض وبثّها نيران محتقنة ومحقونة في كبدها منذ الأزل؟ هل بتّ خلْقًا غير الذي عرفتُه! سرُّ كلمةِ "كُن" قَد كان، لكن عينَيّ ما زالتا تريانِ انحطاط َدفتر كوني فوق دفتر، هي لحظة في عمر القَدَر، فيها تمثّلت النهاية سامقة فاختزَنَها عقلي القديم، والآنَ يسردها لي ثانية كيفما يتّسق، حطام البشر زال، ابتلعته دوّامة انفتحت مِن مجرى زمني موازٍ، ربما لتلفظه في مَجرى آخَر، ليس عليّ مِن حيْرة، يكفيني حيْرة، كأنّ بي ألممت بسائر التفاصيل وأنا غافٍ، مِن أول الأرض لآخِرها، ومِن أول الزمن لمنتهاه، في قريرتي يقينٌ أنّ البشرَ كلمةٌ كانت بدءا وقَد مُسحت الآن، لم يَعد

لها جدوى، صارت ماضيًا أرضيًا، كأنّ بي ألممتُ بتعريفات جديدة لم يعرفها غيري، ففي البدء كانت الكلمة....

أنا...

به...

تيقّنت...

ثملًا....

كَفَى أيّها السلطان الكافر، كيف تتيقن بالنهاية قبْلَ أن تكون؟ وكيف يتّفق اليقينُ مع الثمِل؟ آه، الصوت في داخلي، أفِقْ إنْ كنتَ لم تفعل يا ذؤابة البشر، يا بَشر لم يعد بَشرًا، أو صبوة حنين لكينونة البشر، فلا بَشر الآنَ سِواك، وربما لا بَشر في الأساس، بل ربما الكلمة في حدّ ذاتها وطريقة نطقها مجرّد اختلاقٍ عقيم.

جُب حُدودَ خيالك دائرًا ذوّاقًا راحلًا....

لأيّ وجهة؟!

هل أضحيت مهدًا جديدًا لخرف حداثي؟!

أخذتْ عيناي تجوسانِ لُبّ الذي انبثقتُ فيه مِن جديد، عالم مليء بالتساؤلات التي توارت إجاباتُها في منعطفاتٍ قَدَرية، ليس جبلٌ بقيّ جبلًا، ولا مِن مستقرٍ لم يتخلخل، لم تعد الأشكال إيّاها -التي اختزَنَها عقلي- بماهيتها القديمة، ثمّةَ تفسيراتٌ لا أدريها، وثمّةَ تعريفاتٌ مختلفة للأمور برمّتها، ثمّةَ موتٌ فحياة، فموتٌ فحياة، فرجوعٌ

لمصيرٍ مبهم...

زد سؤالًا- شاخصًا- صوب ضياع طليق...

ضربٌ في خيال، وسؤالي لا تعنيه الإجابة قدر الماهية ذاتها! ما الذي ينازع تركيزي؟

صداع كصداع الأرض في زلزلتها، انشقاق داخلي عاتٍ، يقتلعني السلطان ويطير بي، ثم يحطّ على الأرض ويدخل في روحي، يخترق أحشائي، يراود ذهني، فأتلو، أتلو وهو يصرخ بداخلي في جنون، تتقاذف الأرض مِن حولي بتفاصيلها، والسلطان يصرخ، أتلو، والعالم كأنّه إلى زوال، أتلو ولا يمكنني استعادةُ نفسي، والسلطان ينازع بداخلي، ثم فجأة ينغلق الباب ويرميني خارجه، فيحلّ هدوء، تنحسر المعاني كلّها، ويتلاشى السلطانُ تمامًا مِن على خريطة الوجود.

وهكذا عود لبدء التعريف...

(أنا... الله...)

كيف استفقتُ؟ لم تكن لي دراية، كانت حواف التفاصيل قَد اختبأتْ في ثنايا ظلمةٍ حالكة، حيث الليل وقتذاك يخلو مِن قمر، وحيث الكون يغفو بدوره مُرهَقًا، وحيث شعرتُ أنّنا نحن -أولئك البشر- يمضون لنهاية لا تخطر ببال. أخذتُ ألتقط أنفاسي، وثعباني يتلوّى تحت قدمَيّ، عاد كلّ شيء لطبيعته، العِشة، باللمبة المتهرّئة، بسكون الغابة، زفرتُ زفرةً طويلة وخرجتُ، وقَد انتهت مهمتي، ربما للأبد.

وعلى المدى القريب، وكأنّني لم أزَل في دائرة الهذيان،

رأيتُ "عبّود" يجرجِر خلفَه جسدًا ويَدخل الجبّانة، تبِعتُه، لم يكن الفضول، قدْرَ أنّه الفزع الشديد، هكذا على البَشر أن يستعيدوا سيرتَهم الأولى، وقفتُ عاجزًا، متحجّرًا، و"عبّود" يستدير نحوي، وينقضّ عليّ، لم أرَ أيّ شيء آخَر، غيرَ أنّي أحسبني قَد جئتُ إليك يا جَدّي "مسعود"، الآن أقترِبُ منك، الرمل يخشخش حشايا قدمي، والبحر يرفل في سكونه المهيب، والنور.. لا بأس، هو النورُ يا جَدّي.

الجدّ مسعود

(9)

"مسعود" إنّي أمزّق الحكاية، عند آخِر جدران الغرفة، في تلك الزاوية الخالية، أمزق الأوراقَ، الشرفةُ لعنةٌ يا "مسعود"، أطِلّ بها على جحيم الحياة، ثمانون انحناءةً تتلوّى فوق وجهي، أنظرُ في المِرآة ويبدو لي الأمل طفلًا كسولًا، أسائل المِرآةَ: "خبّريني.. متى كان موعدي مع الحلم؟ ذكّريني.. مَن كنتُ منذ بداية القرن؟"

أدفن بين كفّي الكُرةَ المزعجة التي لا تَكُف عن التدحرج، وعيناي بؤرتانِ تختزلانِ مصادفاتِ القدر البعيد، أرى صَقرًا يَجرح بجناحيه ملمسَ الريح وينظر لي قائلًا: - وأنت.. أَمَا حانت رحلتُك؟

أأنّي جُننتُ يا "مسعود"؟ لا بأس، لكنّي سأمزّق الحكاية، سأوقِد فيها النارَ، وعند آخِر جدران الغرفة، قَد أُكبّر عليها تكبيرةً عالية، وأصلّي.

مسعود الأكبر

(10)

"مسعود"، لا بأسَ إنْ لم تستكمل حكايتنا، غيرك سوف يفعل، الحكايةُ في حدّ ذاتها لا تحتاج إلّا أن يُشعَر بها، كلّ الحكايات لابدّ أن تستكمَل، صديقي "طلحة" نفسه زارني ليستكمِلَ حكايتَه، لك أن تتخيّل يا "مسعود"، أنت تعرف أنّه كان مِن النادر أن نلتقي، لكنّنا فعلنا، جالَسَني ومدّ بصرَه نحو البحر، وقال لي:

- لا تَحسب أنّي أهدرتُ نفسي في البحر يا شيخ، كلاّ، فقدْ شدّتني حبيبتي، تجاوزتْ بي حدودَ الزمن، إلى مساءٍ ماضٍ، ذلك المساء الجميل المشبّع ببراءتها، كان هذا منذ قرون، وأمامَنا كانت الأبخرة الصاعدة مِن جوف باخرةٍ تتمايل طالعةً لأعلى وأنا أتطلّع فيها مراقِبًا، بدت تشبه أعصابي التي كانت تتبخّر ببطءٍ وأنا متأبط ذراعَها الملساءَ، وثمّةَ حركةٌ غير مألوفةٍ تسرى في جميع أطراف جسدي، حركةٌ تبث داخل كل خلاياي نشوةَ اللقاء العذب متأجّج الانتظار منذ بعيد. طَلّتْ على وجهي بعينيها الواسعتين ودَنتْ مِنّي هامسة: - ما أجملَ الحب! ترقرقتْ عيناي وملتُ عليها أكثر: - بل ما أجملك! الحب معنى لا يكتمِل إلّا بك. وكان البر يجيء مِن الناحية الأخرى ببطءٍ واستكانة، وتحت أقدامنا يروح ويأتي باستسلام - مع اتّجاه ريح بحر المساء- ورود ذابلة، فينجرف بعضها ويَسقط مِن أعلى ليبتلعه تيار المياه داكنُ الظلمة، وبعضها يتأرجح بين أقدام الجالسين بلا حيلة، وكانت هي/

تلك المنتَظرة، قد استراحت فوق كتفي في وداعةٍ بغير أن تحفِل بمن حولنا. - هل طال انتظارُك لي؟! أصمِتُ قليلًا، أتأمّل بهاءَها، أسرح في أهدابها الطويلة المُسبلة التي أخفت بريق عينيها، وأقول: - ظللتُ العمرَ في الانتظار. فينصرف المَشهد... تتخالط كلّ الألوان لتنتهي إلى الأبيض، لم يكن في خيالي أيّ مشهدٍ متباين يا شيخ، ولكن في لحظة أجِد أنّني راقدٌ فوق فِراشٍ أبيض، سريرٍ أبيضَ، حجرةٍ بيضاءَ، وفمي مكمّم ببداية فمٍ يُشبه الخرطوم لكنّه لزج، ويقتطف لي دفقاتِ أكسجين يدخلها نحو رئتيّ، وكانت حوريّةٌ واقفة على رأسي تقول في أسى: - يا الله، أرجو ألّا نكون قَد تأخرنا عليه. وسكتت، علا همسُها ثانية: - كيف لا يسأل عليه أحد؟ وفي الوقت نفسه الذي كان وترٌ مِن كمانٍ ينغرس في لحم ذراعي، وطنين بعض الأجهزة المعدنية يحاول انتشالي مِن حدود ذلك العالم البعيد، كانت المنتَظرة جالسةً معي والبرّ الآخر يدنو، وهواء البحر يحف وجهينا، والورود الذابلة تتدحرج نحو هاوية البحر المظلمة مِن دون أن تعرف لها قرارًا، وكانت تبتسم في وجهي وأنا أطلّ نحوَها في شوق، والباخرة تتأرجح بنا لتأخذ في التلاحم مع المَرسى الذي تخفق في أسفله أمواج المياه، وبلا دراية كأنّني أحدّث نفسي مِن مكان بعيد همست: بلا جدوى. فيما كانت الحوريّة - وربما واحدة غيرها- قَد جعلتْ تنزع عن وجهي الفمَ اللزج الذي يتلبّسه، وتَشهق، وغيرها يتهامسن في ألم، يعبثن بجسدي محاوِلاتٍ أن يُسعفنَه. هل يمكن أن أكون أنا مَن يرثينه الآن؟ إنّما صدّقني يا شيخ "مسعود" المنتَظرة لم

تكـن لتـأتي، أبـدًا يـا شـيخ.

قلت له يا "مسعود":

- لـو أنّ أحـدًا أهـدَرَ عمـرَه في البحـر سُـدَى.. فهـو أنـا يـا "طلحـة"

ونظـرتُ نحـوَ البحـر، ظللـتُ أنتظـر الـذي لـم يكـن ليـأتي أبـدًا".

السيل

(11)

كان "الجوّالة" يتقافزون جميعُهم، ولا يَدرون أين اتّجاه النجاة، يصرخون، والسماء مِن خلال هذا الأفق البعيد تراقِب، تراقِب البشرَ الهائجين، وتراقِب الماءَ القادم مِن فجوةٍ في المدى النائي، لم يَدرِ أحدٌ كيف يأتي الماءُ بهذه القوة وهذا التدفّق! ولكنّ الله كان غاضبًا، هكذا أحسّ الجميع، الصفعاتُ لا تَترك أحدًا، تلطم الكلّ فيطير مَن يطير، ويَغرق مَن يغرق، المياه المرتفعة تحطّ على قرية "الجوّالة" يصبّها عليهم الجبل، والقرية تُوشِك أن تتزحزح مِن ثَباتها، فيجرفها الماء. الأجساد تتناثر في الهواء، البيوت تُنتزَع مِن الأرض، وتدور مع المياه، الريح تصيح، وتعاوِد الدورانَ بالمياه كلّما بدا أنّ السيلَ سوف ينصرف، والضوءُ يصعد لأعلى، لِمَا فوق حدّ المياه الثائرة، والطيور تحوّم في فزع، تحوّم هائشة، متفرّقة، لا توجد سماء تُعينها على استكمال طيرانها. والنخل الضرير -الذي بدا سيبقى لِمَا بعد القيامة- يُقتلَع مِن حشايا الأرض، الماء يخترق زمامَ القرية، يندفع كسهامٍ تَعرف مستقرها، والشلاّل يزبد، يمور، يعلو، يتواطأ مع القدَر، لا يوقفه دعاء، ولا يتمهّل، هنا بدأ نَسلٌ، وسوف ينتهي، ليس مِن مدد، ليس إلّا حُطام "الجوّالة"، السيل يطيح، ولا يصمد أمامه أحد، تنجرف القرية معه، وكذلك -ربما- سوف تنجرف الحكايات، بلا معنى، أيّ معنى.

الفصل
الخامس

(النور)

{ إِنَّا جَعَلنَا الشيَاطِينَ أَولِيَاءَ لِلذِينَ لا يُؤمِنُونَ }

سورة الأعراف

آية 27

حامل الكِتاب

(1)

- الفَجر يا "عثمان"!

تأمّلَ "عثمان" أصحابَه، اعتدَلَ بجذعه ثم تململَ وتَمَطّى، جرع كأسًا وآذان الفَجر منطلِق، لم يأبه، وقال:

- سرعانَ ما يَنقضي الليل، دومًا.

- الليل في صحبة الحكايات مَغنَم يا "عثمان".

- الليل دون حكايات غنيمةٌ أجدَى يا صاحبي.

- نحن في حاجة إلى نصف غنيمة مِن حكاياتك، سوف نقامِر، ونثِق في كلّ ما تدّعيه، ليس لشيء إلّا أنّك الناجي الوحيد مِن هذه الحكاية.

- لو تَعرفون ما نَجا ما ظننتم أنّي الوحيد!

- عرّفنا...

ضحك "عثمان"، بدت عيناه مرتَعًا لصخَبٍ لا نهائي، قَضَى الليلَ في غمرة الحكايات، وفي ولهِ الخمر، طاف أبوه على ذهنه، فترحّمَ عليه، كترحّمِه على مَن بدّد الزمنُ مِن

سيرتهم، ثم قال:

- قَد نجا معي إرثٌ لن يبدّدَه سيل، نجتْ معي ذكرياتٌ يا صاحبي، لعلّك لا تريد أن تفهم أنّ "الجوّالة" لم تكن قريةً وسحقها السيلُ أبدًا، "الجوّالة" سِيرة، وحاملُها موجودٌ أمامَك.

كان النور يلج إلى مجلسهم في بطء، دَعَكَ "عثمان" عينيه، وبدا سيستفيق، بل بدا أنْ أزعَجَه النور، فعَقدَ حاجبيه، ومِن مدخل باب المجلس رأى شبحًا يزايده طولًا، شبحًا كان ظهْره للنور، وكان واقفًا يتفحّصهم جميعًا.

كابَدَ أن يَنهض، إنّما جسدُه كان مرتخيًا، وبدا له أنّ عينيه تَخدعانِه، لكنّه هَمهَم:

"عبد النبي"!

لبثَ الشبح متسمّرًا لا تَبين ملامحه، استوضَحه "عثمان" بقلبه، وكانت ثمّةَ أشعةٌ تَنفذ مِن خلف وقفتِه، وتصيب تركيزَ عينيه.

- أنا "الرائي".

قال الشبح، فلم يَستوضِح أحد، كانوا مسطولين جميعًا، إنّما الذي بدا، هو أنّ الواقفَ يَحجب عنهم ضوءَ الصبح، كان غاضبًا، وفي نبرة صوته خشونةٌ غير مستحبّة.

مدّ نحوَهم يديه دون أن تتحرّك قدماه، فأزاحَهم عن أماكنهم، فارتاعوا، وقَد أُزيحوا دون أن يقترب منهم هذا الشبح، صرخ بعضهم، وشهق بعضهم، غيرَ أنّ "عثمان"

تمكّن مِن رصد ملامحه، فأوجعه قلبُه، وهتف:

"عبد النبي".

بسرعة، زام الواقف، وصاح:

- أنا "الرائي"

ومضى يتحطّم كلّ شيء، صاح صيحتَه فغمرتهم شظايا الموجودات التي تحطّمت، ففزعوا، وأقبَلوا عليه، تحت قدميه، راكعين يبغون الاستيعاب، أدركوا أنّ الواقف أمامهم أحدُ السحرة المَلاعين.

- لقد تنبأتُ لكم بالقيامة، اتبعوني، أنا "الرائي" حامل كتابِ النّبي الأول، وأنا نبيّ هذا الزمن.

لم يَفطِن أحد لمغزى حديثه، كلّ ما كان يهمّهم أن يَخرجوا خارج إطار الحُطام الذي يتناثر عليهم مِن شتى الزوايا. في غفلةٍ، سَحَبَ منهم "عثمان"، فقط لوّح نحوَه، فطار إليه بجسده كأنّه الريشة، أولى له ظهْرَه، وعينا "عثمان" تنظران في هلعٍ إلى أصحابه، لكنّهم كانوا مقيّدين في أماكنهم لا يستطيعون الحِراك، طار "الرائي"، طار للخارج، يتبعه جسد "عثمان"، حطّ "الرائي" بيده، فحطّ جسدُ "عثمانَ" متهاويًا فوق الأرض، نفخ فيه "الرائي" سائلًا مِن فمِه، ثم تنهّد، فاشتعل جسد "عثمان"، وأخذ يتلوّى، بلا جدوى، أشاح "الرائي" بيده، فهبط "عثمان" إلى جوف الترعة المقابلة وانطفأ جسدُه.

- هذا مصير مَن لا يتبعني.

شدّ إليه "عثمانَ" بقدرةٍ غير مفهومة، ثم نفخ فيه ثانية، واشتعل ثانية، ليس يَقوى على الصراخ، ودفع به إلى الترعة فانطفأ، وسَحَبه ثانية.

- تنبأتُ لكم بالدمار.. فاتبعوني.

كان "عثمان" قَد احترق، لكن أنفاسَه تَخرج في وهَنٍ وبطء، لا يتحرّك إلّا في ضعف، وينظر لـ"الرائي" مستجديًا، لكن "الرائي" يحدِّجه بعينه الوحيدة التي تنفث النار في غلّ.

ثم اشتعلتْ كلّ مفردةٍ في البرّ كلّه، وباتت ظلال البشر مشبّعة بالدخان، والأفواه اليابسة تردّد تنهّداتِ الموت في عشوائية لم تكن ذي قبل، والأعمدة الخرسانية تَسقط فتدك الرؤوس، وتلتصق الأجساد بالإسفلت، وحتّى حينما تساءل واحدٌ عمّا يحدث: أهذا فِعل قدري؟ أم شيطاني؟ يتبدّد تساؤله إثْرَ صخرةٍ عمياءَ أو حَجرٍ باغٍ يَسقط على رأسه فتتهشّم، والدماء تخضّب كلّ علامات الاستفهام، في انتصارٍ بليغ المعنى، بينما ليس مِن شعاعِ ضوءٍ في أيّ جوار، حتّى الشمس، سرعان ما لاذت بجوف السماء استنكارًا، كأنّما الهول بشحمه ولحمه متجسّدٌ أمامَهم يصفق هاتفًا "هأنذا قد جئت، فلا مهرب مِنّي"، والرماد يدفع بعضه بعضًا متزاحمًا، متصاعدًا مِن نقطة المأساة، متشابكًا في خيوط بلون الفحم، متدرّجًا إلى أعلى في هيئة حلزونية، يعصف بالأبصار، والأفئدة، فيستصرخ البشرُ السماءَ، حيث لا سماء إلّا سماء الغبار المتدافع نحو الأفق في حلقاتٍ ضبابية، سوداءَ، شديدةِ السواد. كانت السماء متفسّخة هذه الساعة، ينفذ

منها وإليها بالتناوب ألسنةٌ مِن نار، كما لو أنّها قادمةٌ مِن لبّ الجحيم، ورائحةٌ إليه، والناس يتخبّطون وسط رمادية الأجواء كحشرات نافقة، فاقدة كلّ وعي، والشظايا تستهدف الراكضين دونما وجهة، الذين يهرولون مِن وسط الركام والأطلال، إلى قلب معمعة النيران التي لا تَرحم، والبيوت، كلّها يزاحم بعضها بعضًا في التهاوي لأسفل، فوق البشر، ومِن قلب كابوسٍ لم يبلغه عقل نائم، تتراخى أطراف البيوت وتتهدّل، ويعمّ الغبار، وتدوس أقدام الجحيم كل ما هو رابض فوق الأرض، فتسوّيه بها، أمّا "الرائي" فقدْ كان واقفًا وسط هذا يقهقِه في جذل، وعينُه الوحيدةُ تنفث بخارًا، وسطوة، يصيح:

- نبوءتي.

يَخرج الجنون مِن قمقمه، ليُعلن للعالم أنّ النبوءةَ نافذةٌ، بدأ الناس يتزاحمون حوله، يلوذون بهالته التي حجبت عنه - في غرائبية ملغِزة- السُّحُبَ والنارَ والدخان، حجبت عنه هذا الأذى غيرَ المسبوق، يهبِطون فوق يده يستمسكون بها، وفيما بين الانتباه والرهبة والفزع العظيم ثغرة، مجرّد لحظة، يستثمرها بنجاح، ويحقن خلالها داخل كل العقول المركزّة والأعين المنتظرة سيادته عليهم جميعًا، وهو مُنْتشٍ، سامقٌ بعباءته السوداء إلى أعلى، شَعره متهدّل، وعينُه الوحيدةُ مكحّلة، كان يصيح:

إنّ رّبكم أولاني عليكم، قدَسوني.

صائحًا، فتتزلزل الأجواء مع صياحه أكثر، ويتهدّم كلّ

مَبنى أكثر، ويلتف حوله الناس، يحتمون به، يستنجدون، ومِن حوله يتساقط كلّ شيء، وتَختنِق التفاصيل، ويتغطّى المدى بألحفة مِن نار ومِن سخط، والناس إنْ نجا واحد، هرول إليه يتخالط بمن احتمى، حتى أصبحت هالته مليئةً بالناجين، أولئك الذين لم يُصدّقوا نبوءتَه بدءًا، فتكدّس حوله البشر، ووجوههم تسفِر عن الهلع العظيم، والبرّ كلّه بات حطامًا، رأسه أدناه وقلبه رأسه، والغبار يتطاير، والحديد يعربِد فوق الرؤوس، سياخه تشق الصدور، وتنفد مِن بين الأجسام، وتُهلِك مَن لم يَحتمِ، و"الرائي" لم يزل يصيح:

- أنا حاملُ كتابِ النّبي الأول.

غفلة مِن قَدَر لم يعُد يستبصر هؤلاء الهالكين، الذين يركضون مِن النار لنارٍ أشدّ، والحطام التهَمَ ما التهم، ولم يُبقِ، ولم يَشبع بعد، الشرارات تحوم في السماء الدانية، و"الرائي" يتلو، والعيون معلّقة عليه، وهو يغمِض عينَه، ويتلو، كيما تزول المَهلَكة، ويرفع يدَه، يمدّها في إيحاء، ثم يبدأ يسْحبِها إليه ببطء، فتزحف نحوَه الكائناتُ طائعة، الثعابين والعقارب والجرذان، ويزحف نحوَه البشر، يشد الجميعَ بمغناطيسية مقدّسة، حتّى يكتمِل تسيّدُه، ويتلو:

"أقسمتُ عليك يا ساكنَ هذا المكان، حيةً أو عقربًا أو ثعبانًا أو كائنًا مَن كان، تَجيئني طائرًا بأمري. تخالِف تموت. بإذني أنا الحيّ الذي لا يموت.

وتَهيم في الفضاء كائناتٌ سكنت جوفَ الأرض ثم أَخرَجَها بتلاوته، تسبَح نحوَه في تؤدة، كما لو أنّها سُحُبٌ لا وزن لها، فيستجمعها بتلاوته أكثر، ويبدو المشهد كأنّ "الرائي" بؤرةُ جذبٍ قادمة مِن غياهب الدهشة، والكائنات على أشكالها سلَّمت نفسَها إليه، وتبعت إشاراتِه الطلسمية، ثم شرع جسدُه يترنّح، مثل الذي أتى نشوتَه جميعَها، ولم يؤتَ تسيّده كاملًا بعد، يترنّح، ويبدو كأنّه على نغمٍ لا يسمعه غيره يتراقص، والكائنات على أشكالها تدور حوله، وفق دورانِه بسبّابته، ثم يفرد أصابعَه، فتتوقّف الكائنات عن الدوران.

الأرضُ مِلكي.. والسماء، هبة الكونِ أنا في هذا المنتجَع الجبري المسمّى الحياة، ولو أنّنا استطعنا أن نولّف له مُسمّى جديدًا، كمستنقعٍ، مثلًا، أو كمَنفى، ومِن باب الدعابة يمكننا أن نطلق على هذه الحياة مُسمّى أكثرَ حميمية وفعالية، "السيرك"، فما رأيكم؟

ثم راح يدوس على بعض الرؤوس، مكمِلًا في صلَفٍ وكبرياء:

لماذا أسألكم عن آرائكم؟ وللبدء، إذا عُدنا، فأنا هبة الكون في هذا السيرك، متفرّدًا، مَنَحَني مِن قدرته نفحة، ومِن مشيئته كلّ الإرادة، فجعلني المتحدّثَ الأكثر لباقة، والمؤرّخَ الأكثرِ صدقًا، والمبدِعَ الذي يتشابه بروح الكون أحيانًا، ويقلّدها أحيانًا أخرى، ويحسدها في كثير مِن الأحيان، ويُخضِع حيواناتِ السيرك، تلك التي لا جدوى تُرتَجَى منها

أعظم مِن التسرية على المتفرجين، بل ويذلّل عشوائيتَها وعنفَها وبدائيتَها، ذلك أنا إنْ أجزنا الأنوية، حيث لا موضعَ لغرور، ولا تباهٍ، وإنْ كان هذا مطلوبًا ضمنًا، لكن في النهاية..

ويصمْتُ قليلًا، برأسه يدور بين العيون الجاحظة، ويرمق بعينه الناسَ التي احتشدت تحت قدميه، والسماء أعلاهم تزوم، وكلّ شيء يستحيل فتاتًا، يتناثر مِن حولهم ندفًا محترقة، يقول "الرائي":

- لكنّي أستطيع كذلك أن أحدّدَ عددَ المتفرجين في ذلك السيرك؛ المسمّى الحياة، وتسعيرة تفرّجِهم على خضوع الحيوانات، واستسلام البشر للمشيئة، ووجوههم الضاحكة قسرًا، لأمنحَ روحَ الكون تقريرًا وافيًا عن معنى الإلوهية وتحقّقِها داخل "السيرك"، الصغير جدًّا، المُضحِك للغاية، جوار الكون الفسيح، وأرجائه التي لا يَصلها عقل، ومجرّاته المليئة بمثل السيرك، كتشبيه، وأكثر. هبة الكون أنا، وعليكم الإقرار، وإلّا أُضطررتُ لتفعيل سلطتي الممنوحة، بأداة القلم، وسطر المقدّرات، فاتبعوني، إذ قدْ يحلو لي بعض العبث، فأقرّب قيامتَكم قليلًا، أو أؤخّرها، كيفما يتّفق وقدَر السلطةِ الممنوحة.

ويصرخ بصوت يشبه الرعد:

- أيّها البشر، أطيعوني، استعدوا لمشيئةٍ جديدة.

تومِئ الكائنات، ويتكوّم الناس جوارَه في خنوعٍ قسري، فيضمّ أصابعَه على راحة يدِه في حزم، ليتسمّر المشهد بالكامل قبالةَ العيون المحدّقة، كأنّ الزمنَ بأسره قد توقّف

عنـد هـذه اللحظـة، الغبـار الـذي في السـماء يتسـمّر، المبـاني المتسـاقطة تتسـمّر، وتظـلّ معلّقـة، لا هـي متهاويـة، ولا هـي مسـتعيدةٌ توازنَهـا، يتوقّـف الزمـن عنـد كافّـة التفاصيـل، إلّا مَـن لاذ برحـاب هالتـه، يسـتدير نحـوَ النـاس، تتألّـق عينُـه، وهـو يهمهـم:

- أنتم الناجون، مَن نبيّكم الآن؟

في صوتٍ جماعي ينبِسون:

- أنت.

مسعود الأكبر وجابر

(2)

- ما الذي كان قَبْل؟ الحلم أَم الحياة؟

يمتدّ البحرُ أمامَهما مغرِقًا في وحشتِه، وليس في المدى البعيد إلّا ظلمة العدم، كلّ شيء هادئ، ساكن، الموج ترك البحرَ منذ زمن لم يقف على بدايته "مسعود"، لكنّه كان ينظر للأمام وفي قلبه خشوعٌ اكتسَبَه مِن طيلة العدم ذاته.

- أتعرف يا ولدي أنّ الحلمَ دائمًا ما يسبق الحياة! إنّ الحياةَ في حدّ ذاتها قد تكون حلمًا كبيرًا.

يلتفت نحوه "جابر"، يزفر زفرة طويلة، ويقول:

لكنّي لا أُدرِكني، هذه حقيقة، ولا يمكنني أن أفطِن لطبيعة المسألة، أجهل الإجابةَ يا جَدّي، مَن أنا؟

على أيّة حال؛ ثمّةَ أسئلةٌ أشدّ إلحاحًا، وجميع إجاباتها تكمُنُ في التركيز واكتسابِ بعض التروّي والفراسة والحكمة، علينا إذًا أن نكون محدّدين واضحين، يَسّر لنا الله الطريقَ الذي قَد نسلكه بحثا، كيما نستنبط تلك الإجابات، علينا أن نظلّ مرتحلين ما مدّ لنا الجَهد، مِن مَنأى لآخَر، حتّى تتمثّل الإجابات، ونسبر أغوارَها.

أتعرف يا جَدّي يومَ وُلدت السماءُ ثانية، يومَ أدركت أنّي سألقاك.

ضحك "مسعود" ضحكةَ شابٍ في العشرين، وأومَأ قائلًا:

- إنّي رأيتُ ما لم تَر عين، رأيت الأشجارَ تحارب الماء، رأيت النشوةَ والدهشة، رأيت الحكايةَ قبْلَ أن تروَى.

- ما جدوى الحكاية يا جَدّي؟

التفتَ "مسعود" نحوَه، وتَمعّنَ فيه:

- ما جدوى الحكاية؟ السّر يا ولدي، السّر، كَم حياةً يمكنك أن تعيش لتُدرك مزحةَ الحكاية؟ كَم يمكنك أن تعبر لتفكّ طلاسمها؟

ثم تنهّدَ وأكمَل:

- الهالك لا يفكّر كيف يُهلك، أمَّا الخالد فيفكّر كثيرًا ما جدوى خلودِه، علينا أن نهيم وراء النور دون أن نفكّر فيمَن هلك، هي الحكاية كلّها هنا، وأنا هِمتُ، مرفرفًا وراء النور، كان الطريق يَسحبني وأعلمُ أنّه سهل الرجوع، أستكشِفُه فضولًا وأرجِع، معي الوقت ومعي إيماني ولا مجال للعودة عن الإيمان، هوام تحلق حولي في مدار النور كأنّها تُدندِن، إنّها تُدندِن، لا بد أنّها تفعل، وإلّا ما هذا التوافق المذهل؟ هوام مثل دخانٍ تتحرّك على نغمٍ لا أسمعه يَشعر فقط به كياني، تتحرّك في مصفوفةٍ منِ خيال وتحرّكني معها، بل أحرّكها معي، نَعم، أنا أتأرجح يَمنةً ويَسرة ولا تَطرُف عيناي، وهي تتبع تمايلي كأنّها ريش ينبت من جسدي، كأنّ بي لم أرَ، ولن أرى تناسبًا إيقاعيًا ما حييت كهذا، ثم هذه الهوام ها هي تشدّني وتنزل بي إلى أسفل، أجدني قدْ وقفتُ على سجادة رائعة لم أرَ أروعَ منها فُتِلتْ على ما أظنّ مِن حرير، تطلّعتُ حولي، كنت في منتصف بَشرٍ لا حصر

لعددهـم، يتزاحمـون رافعـين أياديَهـم لأعـلى، لا أعـرف أيـن أنـا؟ أعـرف فقـط أنّـني في عالـم قُـدّ مِـن خرافـة، عـلى يميـني تجويـف في حائـط تتـدلّى مِـن أعـلاه تُرَيـا نورُهـا يغمـر الـروح، وعـلى شـمالي ضريـحٌ يـا لرائحـة شـذاه! قلّـدتُ المحيطـين بـأن رفعـتُ كلتـا يـديّ لأعـلى ثـم انحنيـتُ وراءَهـم وقبّـلَ جبيـني ثغـر السـجّادة الباسـم، احتـواني شـعورٌ أغـرب مِـن أن يوصَـف، أحسسـت بأنّـني أحلّـق في ثنايـا مجهولـةٍ، ممتعـة، أطـوف في السـماء ولا أعتّـد برؤيـة أرض البـشر، قَـد يرونـني وأنـا هنـاك أسبَح أسـفلهم، فليروني جميعُهـم لا يهـم، لـن أفلِـتَ هـذا الشـعور، النـورُ يحقـن كلّ خلايـا وجـداني، النـور كان مقترنًـا بروعـةٍ آسرة وانقبـاض احتـوى كلّ عضـلات جسـدي، عَـرقٌ يكـب مِـن كافـة ثقـوب جلـدي غـير المرئيـة، الجـو حـار، والحَر يشـعل رغبـتي في اسـتكمال المسـير، عرفـت بعـد الارتحـال أنّي عـلى أتـم التأهّـب لمعـاودة البحـث عـن لـذّة الكشـف، جرعـت مـاءً - مِـن مـاء العـدم الـذي لا يَنفـد- وكان العالـم مِـن حـولي رغـم بهائـه المفـرط ينـذر بليـل آتٍ ملامحـه تتشـكّل عـلى صـدر السـماء، هـو ليـلُ أولادي وأولادِهـم مِـن بعـدي، في النهايـة كان ينبغـي أن أشـعر أنّ البهـاءَ لا يسـكن غـير عينَيّ اللتـيْن لـم يفارقهمـا العـدمُ بعـد، عـدمٌ ربمـا لـم أنفصـل تمامًـا عنـه، مـا زال قابضًـا عـلى روحـي بأنامـلَ مِـن سـحر.

ثـم شـدّ "جابـر" مِـن يـده، فتحـرّكا ومِـن تحتهمـا وسـادةٌ مِـن الهـواء، وقـال:

- مـدّ بـصرَك نحـو الأفـق، ثـم أرجِـعِ البَـصرَ كَرّتـيْن، وقُـل مـاذا تـرى؟

قال "جابر" وهو يديم تأمّلَه:

أرى الغربـالَ.. نحـن معلّقـون في غربـالٍ بـين الحقيقـةِ والضـلال.

أشـار "مسـعود" نحـوَ صـدرِ السـماء البعيـدة، وقـدْ كانـت هالـةٌ مِـن ضيـاء تتكـوّن أمـام بصريْهِمـا، وطاقـةٌ ترتفـع بجسـديهما، قـال "مسـعود":

- إنّنا نعبُر الآنَ، فاطمئن.

رفعـا رأسـيْهِما لأعـلى، كان بينهمـا وبـين الهالـة المزدانة سِحرًا بضـعُ خطـوات، راحـا يتسـلّقان دَرَجًـا مِـن نـور إلى فـوق، فـوق، عينـا "جابـر" تنبشـانِ عـن السـرّ، لا أسرار هـا هنـا ولا أحـداث، فقـط العـدم خـاوٍ لا يحمـل إلّا النـور، إلّا الجـبروت، إلّا الحـيْرة والدهشـة والسـكينة، والريبـة في كلّ وقائـع مـا مـضى، عـلامَ كانـت الحكايـة؟ لا شيء، يتفحّـص نفسَـه، كان هزيـلًا، مَحـنيّ الظهْـر. يتسـاءل الآن أيـن اسـتقر الأجـداد؟ أيـن الخطايـا؟ أيـن الملائكـة؟ السـماءُ فـاردة كافـة التسـاؤلات، كَـم حيـاةً عاشـها كي يـدرك هـذه المزحـة؟ النـور يمتـدّ أمـام عينيـه إلى مـا لا نهايـة، ومِـن بـؤرةٍ واهنـةٍ في عمـق السـماء البعيـدة يتفصّـد مَلمـح، ثـم الضياء الغامـر، ضيـاءٌ ينتـشر مِـن نقطـةٍ في قلـب الحقيقـة البعيـدة ويهـرول نحوَهمـا، ضيـاءٌ عجيـب، روحـاني المَـرأى، عجائـبي الطلّـة، رأيَـا فيـه كلّ الوجـوه وكلّ المعـاني، قَـرءَا في مجيئـه رِضـا بالغًـا وبـراءةً شـديدة، ضيـاء الآن يلفّهمـا ويلـفّ شـتات عقلهمـا، فاطمأنّـا، وصـدى روحـاني يجـوب نفسـيهما، مَسّـدَ "مسـعود" رأسَ "جابـر" وقـال:

- هنا الحقيقة كاملة، دون مساسٍ بشفافيتها، انظرْ مَليًّا.

ونظـر "جابـر"، رأى العـرشَ بلـونٍ لا هــو ذهـبي ولا هــو مَرمـري، فيـه فـيروز ويتألّـق كماسـةٍ بِكـرٍ في عُمـق شـطٍّ مِـن الجنّـة، رأى العـرشَ بلـونٍ لـم تعرفـه عـينٌ إنـسي، ومِـن تحتِـه الأيـادي معمِلـة في دأب، تَمسـح وتكلّـل وتسـتنطق الحقيقـة، رأى لوحًـا حُفظِـتْ فيـه تـلاواتُ الأقدمـين جميعًـا، وفـوق العـرش، كان يَجلـس، عظيمًـا، ليـس كمثلِـه بَـشر، وليـس مِـن وصـفٍ لـه إلّا الجـلال.

أمّـا "مسـعود" فاسـتراح، أدرَكَ أنّ مَـن يَحبِـس في أحشـائِه بحـرًا، متجـوّلًا بـهِ، متعبّـدًا لا يَشـقى، متأمّـلًا، هــو السـارِحُ أبـدًا، هــو مَـن طَـوَى أزمنـةً للوصـولِ، فلمَّـا بَلَـغ أبلـغَ، ولمّـا اسـتكان بُعِـث، فـلا بـدّ أن يسـتريح. أدرَكَ أنّـه، إذ لعـلّ قبْـلَ رحلتِـه، مغامرتِـه، قبْـلَ عدمِـه وشَـطحِه، قبْـلَ كلّ تسـاؤلاتِ المـاضي المبهَمـةِ، قبْـلَ هـذا وذاك، قبْلَـه وقبْـلَ كلِّ البَـشَر..

كان النور.

صدر عن دار الربيع العربي

2014

طهران..الضوء القاتم، أمير حسن جهلتن، رواية مترجمة
صياد الملائكة، هدرا جرجس، رواية
أبابيل، شريف عبد الهادي، رواية
الطيبيون، أدهم العبودي، رواية
النوم مع الغرباء، بهاء عبد المجيد، رواية
تقتلني أو أكتبها، عبد الصبور بدر، قصص
صف واحد موازي للوجع، ممدوح زيكا، شعر عامية
بنادورا، ميسرة صلاح الدين، مسرحية شعرية
لا شيء لي، محمد رجب، شعر

2013

بريود، محمد متولي، قصص
القاهرة، أحمد بخيت، ملحمة شعرية
آخر أحلام الدانتيل، معتز هاني، نصوص
شفرة فرويد، رامي جان، رواية
الوشم المقدس، شادي المحمودي، شعر

2012

ملك وامرأة وإله، نوال السعدواي، مقالات وقصص
آيات علمانية، عماد نصر ذكري، مقالات
الشوارع الجانبية للميدان، طارق مصطفى، متتالية قصصية
قميص جامعة الدول، أحمد الواصل، قصص
أورارا، فضل ساسي، رواية

يخرج الجنون من قمقمه، ليُعلن للعالم أنّ النبوءة نافذةٌ. بدأ الناس يتزاحمون حوله، يلوذون بهالته التي حجبت عنه -في غرائبية مُلغزة- السُحب والنار والدخان، حجبت عنه هذا الأذى غير المسبوق، يهبطون فوق يده يستمسكون بها، وفيما بين الانتباه والرهبة والفزع العظيم ثغرة، مجرّد لحظة، يستثمرها بنجاح، ويحقن خلالها داخل كل العقول المركزة والأعين المنتظرة سيادته عليهم جميعًا، وهو مُنتشٍ، سامق بعباءته السوداء إلى أعلى، شعره متهدّل، وعينه الوحيدة مكحّلة، كان يصيح:

- إنّ ربكم أولاني عليكم... قدّسوني!

.....

أدهم العبودي

روائي مصري، حازت روايته "باب العبد" جائزة الشارقة للإبداع الأدبي، صدر له روايات: "الطيبيون" و"متاهة الأولياء"، ومجموعة قصصية "جلباب النبيّ". كما حاز العديد من الجوائز مثل "إحسان عبد القدوس" وجائزة "اتحاد الكتّاب المصريين".

.....

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف